



30.4.2013

جيلبرت سينويه

أنا، يسوع

ترجمة: سعيد بوكرامي

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

أنا، يسوع

ترجمة: سعيد بوكرامي



منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: أنا، يسوع

جيلبرت سينويه روائي فرنسي، ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر أولاً ثم أكمل دراساته الموسيقية بباريس حيث تحصّل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)، **المصرية**، رواية (٢٠٠٥)؛ **ابنة النيل**، رواية (٢٠٠٧)، **نعيم قطان: فريدة**، رواية، ترجمة، (٢٠٠٦)؛ **اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨)؛ **أنا يسوع**، رواية (٢٠١٢).

جيلبرت سينويه، **أنا يسوع**، ترجمة سعيد بوكرامي

الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد - بيروت، ٢٠١٢

ص.ب: ٥٤٣٨ - ١١٣، بيروت - لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Gilbert Sinoué: **Moi, Jésus**, 2007

© Éditions Albin Michel, 2007

© *Al-Kamel Verlag* 2012

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الاول
في مكان ما من يهودية

في السادس والعشرين من شهر نيسان، سنة ٣٧٩٠ بعد تكوين العالم

*

أكتب.

أكتب مادامت يدي تستمد القوة من الركض فوق ورق البردي. أكتب من أجل أن نتذكر. أكتب كي أحذرهم، لأني أشعر باقتراب العاصفة. أكتب لهؤلاء الذين سيقرؤونني ليعلموا أني لم أرغب في شيء مما يرغبون فيه.

أسمع.

مازلت أسمع صرير الأشواك وهي تسحق جبهتي، وضربات المطارق وهي تطرق بجانب وجهي ممزوجة بصخب الصراخ المتعالي من أحشاء يهودية، والسامرة، والجليل.

ارتفعت الرياح، والغيوم حجبت الشمس، وخشب الصليب اللاذع يكشط أجزاء من لحمي.

لحمي أصبح متشققا وبئيسا، مثقبا ومشرفا على الموت.

أسمع، مازلت أسمع الصوت المكتوم للمسمار الأول المخترق لعروق معصمي. الحديد بارد، وكأن الشتاء في دمي. بدأت الرياح تعول وتصفع وجهي.

هل أنا من قال هذه الكلمات؟

ربي، لم تخليت عني؟ إليك كان الآباء يلجؤون، وكنت تخلصهم. وأنا؟ أنا الدودة ولست الإنسان، عار على الناس ومحتقر من الشعب. كل من يراني يسخر مني. أنت أخرجتني من بطن أمي، ووضعتني بأمان بين ثدييها. واليوم، ها هي ثيران حوران تحيط بي. تفتح في وجهي أشداقها الشبيهة بالأسود المفترسة، والمزمجرة. أنا مثل الماء الذي يجري، عظامي جميعها تتصدع. قلبي كما الشمع يذوب في أحشائي. قوتي تيبست كما الطين، ولساني يلتصق بحنكي. ها قد صيرتني غبار الموت، أمام أعين الكلاب التي تسيجني. ثقبوا يديَّ وقدميَّ. كما يمكنني عد جميع عظامي، ها هم يراقبونني، ويخدشون وجهي، ويتنازعون ملابسي، ويقترعون ردائي. أصبحت حياتي في مقابل سلطة الكلاب!

كانت الساعة تشير إلى التاسعة تقريبا.

كنت وحدي منبوذا من الجميع تقريبا.

أين كان بيير؟ يوحنا وأخوه يعقوب الذين كنت ألقبهم بأبناء العاصفة؟ أندريه؟ فليبوس؟ بارتلومي؟ ماتيوس؟ أين كانوا؟ وفي أي جحر يكمنون خائفين كما فتائل ميتة.

يا للأسف لم يفهموا شيئا.

بلا جدوى، حدقتا عيني تتمددان باحثة بين الحشد البشع المتجمع مثل طور من الجماجم.

لا أحد. الفارون. كلهم هربوا كنساء فزعات. بينما النساء أنفسهن لم يتخلين عني قط. كنت أرى المجدليات من بين جراحي ودمائي. رأيت مريم وأختها مارثا، سلومي وأم الاخوين زيبدي، جان زوجة خوزا، زوجة هيرودس

أنتيباس، ماري كلوباس وأخريات. النساء فقط، وأمي أيضا. آه يا بني! أمي المصلوبة في أحشائي، اليتيمة المتوسلة يكاد ينفجر قلبها. مريم يا روح الروح. كانت تعرف، كانت دائما تعرف، بواسطة ذلك الرابط السري الذي يربط الأم بابنها، أن هذه الساعة آتية لا ريب فيها. كانت تعرف: لن يتبقى لديهم نبيذ. ذاكرتي تسترجع، كانت تهمس بهذه الجملة خلال زواج ابنة ناثان في قانا بالجليل. لن يتبقى لديهم نبيذ.

أما أنا، أنا ما كان بمقدوري أن أغير أي شيء؟ امرأة يا امرأة! ما الذي كان بيننا كي تقرأن الكلمات التي لا أراها. تلك الحروف المنقوشة في اللامرئي المبلط الذي تطأه خطوات الرجال؟

الثلاثة عشر الفارون: «أضرب الراعي فتتشتت خرفان القطيع»

لا أحد من إخوتي وأخواتي[1]، ما كانوا سيحضرون، وهذا طبيعي، ألم يكرهوني دوما؟، كنت في نظرهم مجنونا. لكن أين هم الآخرون! لا يوجد أحد أيضا!.

وحيداً إذن أجرجر هذه العارضة الخشبية الكريهة في الأزقة القذرة بالغبار. وحيداً، تحت زعيق الجنود ونباح ميليشيا المعبد. وحيداً، تحت البصاق والشتائم.

وحيداً، تقريبا، فعندما عبرت بوابة أفرايم، رأيت ذلك الرجل الذي تدفعه فرق العسكر ـ هل كان ذلك تعبيرا عن رغبته؟ أجاء ليخفف عني حملي ومساعدتي على نزول المنحدر المؤدي إلى غابة الجمجمة حيث ينتظرني هناك ساق شجرة الزيتون[2] لا أعرف اسم هذا الشخص، وليس هو من كنت أنتظر في هذا الموعد.

---

(١) أنظر الصفحة ٢٥٠.

(٢) انظر الصفحة ٢٥١.

كيفاس[1]، سمعان بيير، صياد الجليل العزيز المهيمن من موقعه على مياه بحيرة طبرية، هذا الـ «كيفاس» حسبته صخرة فإذا هو رمل. هذه خيانة، خيانة: «أقولها لك، هذه الليلة بالذات، قبل أن يصيح الديك، ستتبرأ مني ثلاث مرات!» دافع الرجل عن نفسه قائلا: «عندما سيكون علي الموت معك، فلن أتبرأ منك» وهتف الجميع نفس العبارة.

وحيدا، ولا أدري لأي سبب، خرق عسكري خاصرتي برأس رمحه. في ذلك الوقت اعتقدت أنهم يغلفون جلدي بالجمر. لا ينبغي أن أصرخ، يجب إخراس الألم، وسحقه في الداخل كي لا يظهر أي شيء. لم تكن هذه رغبتي قط. لمَ رشقة بالرمح؟ لمَ هذه الإهانة الجديدة التي تنضاف إلى جسدي المهان؟ لم إضافة ألم إلى آلام أخرى أشد عنفا؟ ما كان عليك أن تفعله هو أن تحطم ساقي كي تسرِّع قدوم الموت. لقد فعلتم ذلك بالاثنين الآخرين أيضا. هذان البئيسان المسمران مثلي.

على يميني ويساري تتقصف الأغصان اليابسة. صراخ. فجور أخير. ها هما يسلمان روحيهما إلى الأب. رمشات قليلة للجفون، لهاث كائنات يائسة، ثم لا شيء بعد ذلك. لا، سمعت صراخ أحدهما، لا أعرف من هو بالتحديد: «تذكرني، عندما تعود إلى مملكتك!»

غريب، إنه لا يتوسل بل يأمر!.

وحيداً في أورشليم.

في مدينة داوود. أصبحت غريقا، محقرا، مهزوما، مهانا من طرف روما، مشوها من طرف اليونانيين. أورشليم يا أورشليم، يا من تقتل الأنبياء وترجم

---

(١) كيفاس تعني بالآرامية الصخرة والمقصود هنا سيمون ابن جون الملقب أيضا بـ «بيتروس» (المترجم).

من يُرسل إليك. كم مرة حاولت أن أوحد أبناءك لكنك كنت ترفضين! للأسف لم يفهموا شيئا.

إن لم تخني الذاكرة ففي حديقة الزيتون الفواحة بألف عطر خلال شهر أبريل كنت أرتعد من الخوف مع أن الخوف ليس غريبا عني، اعتقدت أني طوعته، لكن هذا المساء، الأمر يختلف، فلكي يرعبني أكثر، كان عليه أن يتخذ صورة العالم: بشاعة الأفلاك المظلمة. لا شيء غير تجاويف يندفع منها نحيب النجوم. حتى زيتون الغابة الصلب ينوح من شدة الذعر، حتى الظلال المتشظية تهمس الخبر دون توقف: (سيموت ابن الإنسان، سيموت.)

على بعد خطوات من هنا، ينام الآخرون في عجز مطلق.

في أي لحظة ستطرد المشاعل الصمت؟

كم كان عدد جنود المعبد؟ عشرة، مائة، لا ألمح غير عصيهم، وسيوفهم.

ثم فجأة تشتت الجمع. أراد مالشوس قائد الجنود أن يحتجز يوحنا، أمسكه من كمي ردائه، مأخوذا على حين غرة تمكن جان من التخلص من ردائه والانطواء على ركبتيه عاريا كما خلقه الله. أما بيير فسيموت بالتأكيد فحماسته المعتادة والملحة دفعته إلى الاعتراض. كان تصرفا سخيفا. كما أن هذا الاعتقال كان أيضا سخيفا. جاء بيير في جنح الظلام كما اللص كي يستولي علي، في حين كنت دائما بين ظهرانيهم وكان بإمكانه أن يمسك بي في أي وقت.

أكتب... أكتب. أكتب كي يتذكروا. وإلا من سيتذكر؟ لا الانسان، لا الازهار، لا أصغر ذرة رمل في الصحراء، لا المياه الراكدة في البحر الميت، لا شجرة. لن يتبقى أثر لحياتي.

الحياة قصيرة. قصيرة جدا.

صوت خطو. . .

ها هم.

بعد لحظات، سيفتح الباب

ها هم بالتأكيد.

الشعلة الوحيدة التي تنير الغرفة ذات النافذة الوحيدة المترنحة.

ـ سلام عليك، يا يوشع.

بدأ نيقوديموس الأول بالكلام، أما يوسف الرامي فبقي واقفا على العتبة. هو من أشار إلى الجرة الموضوعة فوق المائدة.

ـ هل بقي لديك قليل من الماء؟

ـ نعم، لكن احتاج مزيدا من الحبر وورق البردي.

تقدم نيقوديموس خطوة إلى الأمام وجلس على أحد المقعدين المؤثثين للغرفة. لم يبلغ الأربعين من العمر لكنه يبدو شيخا. بلا شك يرجع السبب إلى لحيته الرمادية التي تلتهم خديه. أما يوسف فهو يبدو كالتالي: رجل في الخمسين، مقوس الظهر قليلا، بطين بعض الشيء. لديه لحية أيضا لكنها مشذبة بعناية. كلاهما يرتديان لباس عرافي السنهدرين[1]. هذه المحكمة التي أعلنت الإدانة ضد ابن الانسان.

ما جدوى الكتابة؟ لمن تكتب؟

تفحص يسوع زائريه بنظرة باردة دون أن ينبس بكلمة. حينها واصل نيقوديموس:

ـ كيف تحس اليوم جراحك؟

---

(١) السنهدرين صيغة عبرية للكلمة اليونانية «سندريون» وتعني «مجلس» وقد كان هذا الاسم يطلق على الهيئة القضائية العليا المختصة بالنظر في القضايا السياسية والجنائية والدينية المهمة في المناطق التي كان يعيش فيها (المترجم).

لاحظ يسوع قدميه ملاحظة مضببة. مجرد هالة خبازية اللون. بغرابة لم يعد يحس بأي آلام. معصماه اللذان كان من المفروض أن يكونا ممزقين كليا، لكنهما استعادا حركتهما كاملة وبالكاد نلمح عليهما آثار المسامير المحفورة.

ـ أحضرت لك مرهما لظهرك. أعلن يوسف الرامي.

يقترب.

ـ هل يمكنك نزع قميصك؟

نفذ يسوع دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ها هو يسوع عار.

أزال الكاهن غطاء جرة الفخار.

ـ إنه مستحضر من العسل. سترى سيخفف آلامك.

ـ لم أعد أتألم، وجسدي لا يؤلمني. قال يسوع.

تراجع يوسف إلى الوراء مذعورا وهو يرى الأخاديد البنفسجية التي كانت بالأمس القريب تحرث الجلد قد اختفت تقريبا.

حينها ألقى نظرة فزعة في اتجاه نيقوديموس.

كان قصر بيلات يستحم داخل أنوار زرقاء. جرجروه ثم ربطوه إلى عمود. لا يتذكر غير ضربات السوط الاولى، بعدها أحس بالخواء. هل فقد وعيه؟ لكن لا، لقد تعرض للبصاق والشتائم، تتقدمه القصبة المزروعة في يده مثل الصولجان، ثم الصياح. آه من هذا الصياح!

لا، لم يفقد الوعي. ثم هناك الأشواك أيضا، المغروسة في جمجمته بقوة اللكمات. ثم الدم.

الدم المستقر داخل العينين.

ـ ها هو الانسان!

بحركة مباغتة، يبتعد يسوع مستعيدا رداءه.

ـ كفى!

ـ كما تريد، تلفظ نيقوديموس بصعوبة.

كانت كفه ترتعش قليلا وهي تغلق الجرة.

ـ هل نحن في النهار؟ تساءل يسوع.

ـ كلا نحن في الفجر.

ـ هل ستقول لي أخيرا أين نحن؟

يطلق نيقوديموس تنهيدة.

ـ معلمي، في اليوم الأول سألت هذا السؤال، في اليوم الثاني أجبناك: في مكان ما، آمن جدا.

ثم ألقى تساؤلا:

ـ هل فكرت في الأمر؟

ـ هل كان علي فعل ذلك؟

ـ دعك من هذا، كن متعقلا أرجوك. لا يوجد خيار آخر غير الذي اقترحناه عليك. هناك قارب ينتظرك في يافا. أنت...

ـ متعقل؟ السجن المؤبد أو النفي!

وميض من اللهب يخترق عين ابن الانسان.

ـ لماذا؟

يتدخل نيقوديموس:

ـ آه من عنادك المستمر، انظر إلى أين أوصلك اليوم!

ـ لماذا؟

ـ لماذا، لماذا، لماذا! أليس لديك غير هذه الكلمة على لسانك؟

صمت طويل.

طعم الخل والماء المقزز لا يفارق فمه، بصعوبة لمح الإسفنجة المبللة التي مدها العسكري إليه على رأس القصبة كي يروي ظمأه. تناول يسوع المحلول بشغف رضيع.

في الخارج يستعجل أن تحمر السماء.
الصمت يتواصل، يرفع ابن الانسان رأسه.
ـ لقد سرقتم موتي.
ـ غير معقول! يحتج نيقوديموس. غير معقول وليس عدلا.
لقد أنقذنا حياتك، وهذا ليس نفس الشيء. فلولا تدخلنا لدى الحاكم...
ـ بيلات...
تظهر ابتسامة ساخرة على شفتي يسوع.
ـ هل وافق، دون عبوس؟
ـ بالتأكيد لا. ليس في حينها، لكن بعد أن عبر عن تفاجئه، تعجب قائلا: «هل مات فعلا؟».

والسبب أنك لم تمض في الصلب سوى ثلاث ساعات. ولم نشهد مصلوبا يموت في هذه المدة الزمنية السريعة. لقد حضرت من قاوم لثلاثة أيام، وبعضهم أكثر. لِمَ في نظرك نضطر إلى تحطيم طنبوب الساقين إن لم تكن الغاية تسريع الموت؟ عندئذ تم إرسال عسكري للتحقق من الأمر. هذا الأخير ثقب خاصرتك برمحه، ربما ليس بالعمق المرجو، كانت معجزة أن تفلت من الهلاك. لقد شعرنا بالخوف.

رفع يسوع كفه بطريقة غريزية ووضعها فوق جنبه، بمحاذاة الجزء اليمين من الرئة. لا أثر، ولا ألم أيضا.

ـ وماذا بعد؟

يعبر نيقوديموس عن حنقه مرة ثانية:

ـ أنت تعرف كل شيء، لم نخف عنك أي شيء.

ـ أريد معرفة المزيد. . .

ـ حينما لم تصدر عنك أي ردة فعل، عاد الجندي عند بيلات وأكد له وفاتك. فسارعت أنا ويوسف إلى جبل الجمجمة. كانت السماء سوداء وهي تمطر، لم نستطع رؤية الشمس، يمكن القول إن الطقس كان يشبه نهاية الزمان، وبفضل مساعدة بعض الأصدقاء المسلحين بكلاليب وسلم، اقتلعناك من الصليب ثم غسلناك ودهنا جسدك بالطيب. وكاحتياط فقد حملت معي مائة ليبره من المر المكاوي والمقر، ثم بعد ذلك لففناك في الكفن ووضعناك في القبر الذي تعود ملكيته ليوسف.

ـ مع أنك كنت تعرف أني على قيد الحياة.

همهم نيقوديموس بـ «نعم» متضايقة.

ـ في أسوأ حال، لكن على قيد الحياة. كنت أنا ويوسف من يعلم فقط.

ـ وإذاً لَمَ استعملتما الطيب والكفن؟

ـ لخداع العساكر الذين لو علموا لأجهزوا عليك. لقد خاطرنا كثيرا.

ـ ولم العجلة؟

تردد يوسف الرامي في الرد:

ـ تذكر، كنا عشية السبت وكما تعرف لا بد من تنفيذ طقوس التطهير قبل غروب الشمس. ثم إن لمْس. . .

أكمل يسوع مكانه:

ـ. . . لمس الجثة يشكل سببا رئيسيا للدنس، ومن واجب كل يهودي أن ينسحب إلى داخل أسوار المدينة قبل نزول الليل.

ـ إذاً تخيل أن عضوين بارزين من السنهدرين، ومن نفس المحكمة التي أدانتك، يضبطان كحفاري قبور عاديين.

التفت جهة مرافقه:

ـ ومعي يوسف، المستشار الخاص لكيفاس، زعيم السنهدرين. نعم، لقد خاطرنا مخاطرة كبيرة لإنقاذ حياتك. معلمي، ينبغي أن تكون ممتنا لنا. في اليوم التالي تحدينا مرة أخرى كل تعاليم يوم السبت وعدنا لأخذك، كنت تحتضر حينما حملناك إلى هنا. ثم عالجك معالج ليلا ونهارا، كنت محموما وحرارتك مرتفعة. ولمدة طويلة كنت تتأرجح ما بين الحياة والموت. . .

وقف يسوع وقفة مستقيمة.

ـ لم تجيبوا على سؤالي، لحد الآن: لماذا؟

تبادل الفرّيسيان نظرات وكأنهما يتشاوران. يقرر نيقوديموس أن يجيب بصوت هادئ، وشبه متقطع.

ـ غريب أن تتساءل حول دوافعنا. لم نكن متفقين مع السنهدرين. وكنا نعرف أنك بريء من التهم التي ألصقت بك. لم تكن تستحق هذا العقاب الرهيب. زد على ذلك ألم نحضر جميع خطبك؟

يهز يسوع كتفيه:

ـ لأنك قدمت لزيارتي، ذات ليلة، مثل مصاب بداء الزهري، ينسل إلى مخدع امرأة سيئة السمعة.

يحتج نيقوديموس:

ـ أنت تظلمني. لقد آمنت بك بقلبي: «معلمي، كنا نعرف أنك مبعوث من

الرب، لأن لا أحد يمكنه أن يقوم بتلك المعجزات إلا من كان الرب معه» وبعد تلك الليلة، ألم أدافع عنك أمام الجميع، على مرأى ومسمع الجميع؟ ألم أدافع عنك في الوقت الذي كنت فيه أشد عرضة للانتقاد، وهم يحاولون القبض عليك؟ لقد برهنت لك أني حليفك.

يرد يسوع، بلهجة حاسمة.

ـ إذا كنت حليفي فاتركني حرا لأذهب حيثما أشاء.

ـ أنت لا تدري ما تقوله! بذعر يجيب يوسف. ألا ترى معي أنك إذا عدت إلى اورشليم، ستحطم الأحلام التي أيقظتها في قلوب الملايين من الناس؟ هل تقدِّر بوعيٍ الأمل العظيم الذي أحييته؟ كل أولئك النسوة، كل هؤلاء الرجال، كل هؤلاء البسطاء الذين لا ينتظرون شيئا من العالم. أنت...

يقاطعه ابن الانسان مقاطعة حاسمة:

ـ عماذا تتحدث؟

غرز نيقوديموس بؤبؤيه في عيني يسوع الشقراوين.

ـ أن يسلِّم ابن الانسان إلى الناس كي يميتوه، وفي اليوم الثالث سيبعث من جديد. هل هذه هي كلماتك؟ بلى هذه هي كلماتك الحقة.

ـ أخشى أن أكون قد فهمت...

صرخة استهزاء، بلا شك لضبع، يأتي صداها من بعيد.

يضيف الكاهن:

وجد الذين يحبونك القبر فارغا. ومن الآن فصاعدا أصبحوا متيقنين أنك عدت من جديد، لا مجال للشك، أنت المنقذ، أنت محرر إسرائيل. هل تسمعني، يا يسوع؟ يا مسيح من كنا نترقب منذ قرون. من تنبأ به عيسى وجيريمي. الوعد المجسد لداوود...

ثم بدأ يتلو بصوت متأثر:

«عندما تنتهي أيامك، وترقد إلى جوار آبائك، سأرفع عنك سلالتك، التي ستخرج من بين أحشائك، وسأوطد ملكك» لا، يا يسوع، بعودتك إلى العالم، تعود إلى الحياة، وبعودتك إلى الحياة، ستقتل كل الذين ولدوا بين عينيك، ولدوا بقدرتك في الماء والروح.

يلتقط نيقوديموس أنفاسه قبل أن يخلص:

ـ يا معلمي، ليس لديك خيار آخر.

ـ قبر شاغر! هل أتباعي من السذاجة كي يصدقوا هذه الحجة؟

ينهض نيقوديموس. مشيرا إلى مرافقه كي يلحق به.

ـ إلى أين تذهبان؟ أجيباني، كي يصدق بعثي لا بد أن يراني الناس ويلمسوني ويشهدوا بذلك.

سيعبران المدخل، لكن يسوع سيحاول اعتراض طريقهما.

ـ أجيباني!

فجأة يدخل جنديان، سيفاهما على خاصرتهما، مستعدان للتدخل. أحدهما مميز بعاهة واضحة: أذنه اليمنى تشبه كعكة.

يطمئنهما يوسف بحركة من يده.

ـ تريد أن تعرف؟

يفكر الكاهن برهة.

ـ معلمي، لقد تجليت لهم.

يترنح يسوع، ثم يستند إلى إطار النافذة.

ـ مستحيل! أنا لم أغادر هذا المكان أبدا، أنت تعرف ذلك!

ـ مع ذلك، فهذا ما حصل.

وبصوت عال:

ـ بالفعل فقد تجليت لهم.

وبإشارة من نيقوديموس يدفع الجنديان يسوع إلى داخل الغرفة.

يختفي الكاهنان.

ثم تنغلق الغرفة.

الفصل الثاني
اورشليم، نفس المساء، في القصر العتيق للحشموثئيين

حل الليل. حرارة مفرطة تحفر الوديان والجبال ثم تنحني لاحتضان غرفة نوم الحاكم.

أحس الحاكم بيلات أن جسمه مغطى بالعرق، فانتصب جالسا على السرير متأملا زوجته النائمة:

ـ كيف تتمكن من النوم؟

أحس بالاختناق، فوقف واتجه نحو الشرفة. يمكننا من هنا، من قمة الربوة الغربية أن نرى المعبد بكل عظمته، الظل الرمادي لقلعة أنطونيا، بوابة يافا والحي الغربي للمدينة، مدينة؟

فكر بيلات، لا. قالها بمزاج مستعد دائما لقذف حمم النار.

يكره بيلات هذا البلد، بيهوده وخصوماتهم، آه لو كان بمقدوره أن يخمن ذلك! ها هي أربع سنوات قد مضت على تعويضه للشجاع فيلاريوس غراتوس. أربع سنوات حاول خلالها أن يفهم هذه الأرض، بمعتقداتها وتناقضاتها وخصوصا مللها، صداع رأس حقيقي.

لنبدأ بالسدوسيين جماعة من ذوي الامتيازات المحافظين المتشددين،

يؤمنون بالقانون المكتوب ولا شيء غير القانون المكتوب، ينامون ويستيقظون على فهم حرفي له.

ثم الفرّيسيُّون الأكثر تسامحا وانفتاحا، يتبنون فكرة البعث وأبدية الروح أو وجود الملائكة مما يدفع السادوسيين إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لأن هذه الفئة الأخيرة تؤمن بأن قانونا شفهيا سيأتي ليكمل القانون المكتوب! قانون مكتوب! يا له من خليط متشعب! وبين هاتين الطائفتين نجد الزيلوت القساة المستعدين للعنف لفرض مبدأ الفصل ما بين بني إسرائيل وباقي «بشر الأمم الأخرى» بمعنى بقية العالم المعروف.

وفي خضم هذا الغموض نرى انبعاث فرق عشوائية من كل نوع للسحرة ومدعي المعجزات. داعب بيلات ذقنه بطريقة آلية متسائلا إن كان قد نسي عنصرا ما في استذكاراته. بلى أجاب. الكهنة، إنهم أكثر من سبعة آلاف تقريبا، فقط في القدس. ونفس العدد يحوم في أنحاء البلاد. ينقسمون إلى أربعة وعشرين فئة مؤلفة من ثلاثمائة رجل، خمسون فردا يتناوبون على خدمة المعبد كل يوم لمدة أسبوع. ألم يجازوا على ذلك؟ فكل يأخذ ـ دون تنازل ـ حصته كاملة من التبرعات. يا لهوسهم بالطهارة! تنظيف الجرر، تنظيف الأكواب، تنظيف الصحون. في نظرهم القذارة في كل مكان. حتى الهواء فهو يفحص، ويحاكم. كل ما هو خارج إسرائيل فهو مدنس وبالتالي كل غريب فهو قذارة. ينبغي رؤيتهم وهم يتشاجرون لساعات حول صحة أكل الخبز المطهو في فرن حطبه من حطّاب غير يهودي. وإذا كان النساجون بإمكانهم ادخال اللحمة في مكوك صنعته أيدي وثنية.

يتجادلون بلا انقطاع قبل أن يقرروا المدة التي ينبغي أن تنقضي قبل أن يشربوا الحليب إذا ما تناولوا اللحم. وأكثر سخافة أيضا ذلك المنع من تناول

بيضة بيضت يوم السبت! في آخر الأمر، فبيلات ليس مستاء من القرار الذي اتخذه بمصادرة، خلال كل قداس، ملابس الكاهن الاكبر وصدريته المرصعة بالحجارة الكريمة.

طريقة من الطرق للتذكير بهيمنة روما.

آه من الكهنة! طلبات في كل وقت وتهديدات وابتزاز! ألم يرغموه منذ عشرة أيام على إصدار حكم بإعدام هذا الرجل الناصري؟ هذا اليسوع؟.

قطب بيلات جبينه. يا لها من قصة من أجل لاشيء! هذا الجليلي لم يكن يمثل سوى حفنة من الملهمين. المنقذ! رسول إله اليهود الوحيد. الملك المطلق. يستحمون في الغباء، ثم إضافة إلى ذلك لا عجب من هذا التجديف في بلد ينبعث في كل صباحاته ممسوس يعتقد نفسه رسولا من الآلهة! أي شخص يمكنه أن يعلن نفسه ملكا بمجرد أن يصبح على رأس عصابة من المتمردين، حتى وإن كان، لحسن الحظ لا يسبب سوى بعض الخسائر الهينة في صفوف الجيش، إلا أن ذلك ليس مماثلا بالنسبة للشعب الذي يتحمل مباشرة جميع الاهانات. لم تمض سوى سنون على ثورة يهوذا الجليلي الذي عارض أداء الضرائب. كان هذا الوغد مساندا من طرف حشد كبير، حينما انطلق مقتحما القرى صارخا: «ليس لدينا سيد سوى الله، ولا يجب أن ندفع الضرائب لسزار ولا أن نعترف بسلطلته» لقد تمكن من تخريب الترسانة الملكية في سيفوريس، والتهجم على كل من يعارضه.

وكان هناك أيضا ثوداس الذي كان يظن نفسه رسولا ويطمح إلى أن يصبح ملكا لليهود. ومن قبله، وفي السنة السابعة والثلاثين من عصر الأكتيوم، بعد موت هيرودس الكبير قام فليربوس غراتوس بإخماد ثورة نشأت بسبب عملية إحصاء للسكان.

ملك اليهود. . .

ـ ألا تنام؟

ـ لا كلوديا، الجو حار جدا.

خشخشة الشرشف.

تلتحق كلوديا بروكيلا بزوجها، تقف بجانبه تاركة بصرها يهيم فوق المدينة.

ـ يبدو كل شيء هادئا، كما لو كنا في قيسارية[1].

تضيف بسرعة:

ـ لكن بدون بحر.

ـ اطمئني، غدا سنعود، هل ينبغي أن يكون حضوري ضرورياً كلما أقاموا احتفالا؟

تمد بحنو كفها إلى رقبة بيلات.

ـ أليست هذه مكافأة كل حاكم. . .؟ هل تلقيت أخبارا من روما؟

ـ لا جديد، تيبر مازال يتخذ موقعا مريحا في كابري. ولوسيوس سيجنوس مستمر في الحكم.

ـ أقصد مستقبلك.

ـ مرتبط بلوسيوس، فما دام محميا من طرف تيبر أو لوسيوس، فلا خوف علينا.

---

(١) مدينة سيزاري أو قيسارية أنشئت خلال فترة الفارسية (بين ٥٨٦ قبل الميلاد. و٣٣٢ قبل الميلاد).

قرية Le village s'agrandit durant la période grecque (entre 332 av. J.-C. et 37 av. J.-C.) نمت خلال الفترة اليونانية (بين ٣٣٢ قبل الميلاد. و٣٧ قبل الميلاد).

و En l'an 30 av. في عام ٣٠ قبل الميلاد. كانت القرية بمثابة مكافأة لهيرودس.

يستدير فجأة نحو زوجته:

ـ لم هذه الأسئلة؟ هل تخشين شيئا؟

تطأطئ رأسها بالنفي، لكنه مع ذلك يلح:

ـ أراك مكتئبة منذ فترة، وبالضبط منذ اليوم الذي حلمت فيه بهذا اليسوع. ما زلت أتساءل عن السبب الذي دفعك أن تقاطعيني وأنا في مقر الحكم لكي تهمسي في أذني: «إنه لاشيء بيني وبين هذا الشخص، إني أتألم بسببه»

ـ أنا بنفسي لا أعرف، هو الحدس بلا شك، شيء غير مفهوم.

ـ ألا يكون الملل هو السبب؟

ـ الملل؟

ـ طقس هذا البلد ثقيل، ألاحظ كيف تعيشين، من قيسارية إلى اورشليم ومن اورشليم إلى قيسارية. حفنة من الصديقات أو قلة قليلة منهن، وتستنفر حواسنا كلها كلما وقع حادث صغير.

ـ أنت مخطئ، لا يتعلق الأمر بحوادث صغيرة، فقد صادفت أشخاصا في حياتي، لا أحد منهم يشبه هذا الرجل.

ـ طويل القامة، هذا صحيح، عينان معبرتان، بالتأكيد، لكن بالنسبة لما تبقى؟

يستدرك بيلات بسرعة:

ـ كنت أمزح معك.

ـ أخطأت حينما حاكمته.

ـ أخطأت، لقد شاهدت مثلي تلك الحشود الهائجة، وكنت شاهدة على فظاظة الكهنة. لقد أوقعوني في المصيدة.

تسخر كلوديا:

ـ حاكم روما القوي، يقع في المصيدة.

ـ بالتأكيد، عندما صرخوا في وجهي أن الناصري يريد أن يصبح ملكا. لقد أجبروني على تحمل مسؤولية ما يحدث: «ليس لنا ملك آخر غير سيزار» أجابوا مستنكرين، الثعالب، ها هم فجأة يصبحون مخلصين للإمبراطور وحاكمه! وإذا ما أطلقت سراح يسوع، فسيعتبرونني خائنا اتجاه روما، وربما قد يصل الخبر إلى حاكم سورية وبالتالي إلى طبريا.

يعبر بيلات عن كدره ثم يلتحق بمخدعه مستنتجا:

ـ مهما يكن، فإذا كان هذا سيبهج يومك، فأخبرك أن من تناصرين قد عاد من العالم السفلي.

تحاول كلوديا أن تقمع صرختها:

ـ ماذا تقول؟

يحاول بيلات أن يطيل دهشة زوجته.

ـ أجبني، هل عاد من بين الأموات؟

يتمدد بيلات على ظهره، يشبك يديه خلف رقبته:

ـ هذا على الأقل ما يحكونه هنا وهناك.

ـ وماذا بعد؟

ـ اختفت الجثة.

ـ ماذا؟

ـ يا له من هذيان! إنهم بطبيعة الحال، مريدوه من سرقوه بعدما رشوا ميليشيا المعبد الذين وضعهم الكهان أمام القبر. لحسن الحظ أن الحراس لم يكونوا من جندي وإلا اتهموني بالخيانة.

ـ هذا كل شيء؟

ـ أكدت امرأة من قرية المجدل أنها صادفت ملاكين أبيضين يجلسان في

المكان الذي وضع فيه الجلد المسلوخ، ثم بعد ذلك ستلتفت إلى الوراء حيث رأته هو.

ـ يسوع؟

ـ هذا ما تدعيه، لكن هناك تفصيل أكثر غرابة، لأنها لم تتعرف عليه بل اعتقدته البستاني. وهناك تفصيل آخر أشد فرادة لقد منعها من أن تلمسه بدعوى انه لم يذهب بعد عند أبيه.

ـ كان يكذب إذاً؟

ـ أو أنها كانت ضحية تخيلات. بالنسبة لي، أجد أنه من الغرابة أن لا تتعرف عليه امرأة تقدسه ثم لا تستطيع قطعيا التعرف عليه بعد ثلاثة أيام.

ـ هل تمكنت من التعرف على أشياء أخرى؟

ـ يحكي مسافران أنهما صادفاه في طريقهما إلى عاموس، لكنهما لم يحددا. أقول لك مجرد هذيان.

صمت، يستدرك بيلات شاردا:

ـ في النهاية، هذه قضية خاسرة.

ـ لا أفهم.

ـ عندما سألته: «هل أنت ملك اليهود؟» كنت سأكون سعيدا لو أنه رد بالإيجاب، للأسف، اكتفى بالرد: «مملكتي لا توجد في هذا العالم»

ـ لا أستوعب كلامك، ماذا كنت تنتظر؟

بدأ بيلات يضحك.

ـ كنت اتمنى لو أنه رد: «نعم، أنا ملك اليهود، وأطالب بالسلطة» يهودي، ملك لليهود، الكل سيجمع أننا من الواجب أن نتخلص من هذا الوغد النبطي، أقصد جيدا هيرودس أنتيباس.

كان الهدوء سيعم، وكنا سننتهي من هذه الحرب الخفية التي يشنها علينا هذا الشعب منذ عقود. في النهاية سنحصل على السلام.

ـ نعم، لكنك قلت إن السلطة، هنا في الأرض، لا تهمه، أعتقد أن هذا ما فهمته.

ـ رفيقتي اللطيفة، هل توجد مملكة غير التي على الأرض؟

لحظة صمت أخرى، ترد كلوديا:

ـ في كل الأحوال أعتقد أني شاهدتها في نظرات هذا الرجل.

*

في مكان ما من يهودية، في نفس الساعة.

«الذين يحبونك وجدوا القبر شاغرا، إنهم مقتنعون بأنك بعثت من جديد»

جنون! جنون!

يشد يسوع رأسه بيديه. كانت جبهته ندية.

«حاخامي، إنك تجليت لهم، ثم إنهم شاهدوك»

«لقد خاطرنا كثيرا من أجلك» أعلن نيقوديموس.

بالتأكيد، فلو كان سمعان بيير أو يوحنا، أو أحد مريديه الأربعة عشر، لكان سيفهم قاطعا. لكن من أحد مستشاري كيفاس؟ وعضو من السنهدرين؟ الذين اتهموه بأشنع الاتهامات؟ فلا يوسف الرامي ولا نيقوديموس كانا صديقيه وهو أيضا ليس منهم. وإذاً؟ من أين أتتهم هذه القدرة المفاجئة على إنقاذه إلى درجة المخاطرة بحياتهما؟

بلا أدنى شك. لا يتعلق الأمر بحماسة تلقائية. الطيب، الكفن، القبر الذي أعده يوسف. كانت كل تصرفاتهم متعمدة، كانا يقتفيان هدفا. ما هو؟

اكتب. قبل كل شيء، أكتب كي تحذرهم، قبل فوات الأوان.

الأصابع المرتعشة تشد القصبة جيدا.
يغطس رأسها في المحبرة.

أنا في الثالثة والثلاثين من العمر، ولدت في منتصف نيسان، أيام قليلة قبل عيد الفصح.

إسمي يسوع ويعني الله المنقذ وهو تنويع عن جوسيوي ابن نون وريث موسى الذي أدخل الشعب الاسرائيلي إلى الأرض الموعودة.

ولدت في الجليل السفلي، بالناصرة[1]، وهي عبارة عن قرية معتمة، وتافهة، كانت تحت حكم أغسطس[2]، وبالتحديد سنتان قبل موت هيرودس الذي كان يلقب بالملك العظيم، بينما هو مجرم كبير. لقد قيل لي إنه في شهر ولادتي ظهر في السماء نجم أكثر توهجا من بقية النجوم وإن الفلكيين قدموا من بابل فجاؤوا إلينا متنبئين بالمستقبل. هل أضع ذلك في الحسبان؟ لا أدري.

أمي تدعى مريم. إنها ابنة خواكيم وأبي يوسف كان حاخاما ومعلم نجارة. يقولون إنه ينتمي إلى عائلة داوود. نسب ورثته أيضا بما أن التبني في نظر القانون له نفس القيمة التي للبنوة. غير أن يوسف نفسه لم يكن متأكدا.

واستجابة لأمر الحاخام الأكبر تزوجت أمي من أبي. كانت يتيمة. مات والداها وهي في الثالثة من العمر. ورأفة أواها رجال الدين. عندما بلغت الثانية عشرة خشوا أن يصير لها ما يحدث عادة للنساء في المعبد وأن يصبح المكان مدنسا. فتشاوروا واستنتجوا أن الأفضل أن يتعهدها وصي، رجل طيب، بالأحرى، عجوز تجاوز فترة الشهوة.

---

(١) انظر الصفحة ٢٥٣.

(٢) أغسطس قيصر واسمه الكامل، غايوس يوليوس قيصر اوكتافيانوس (٦٢ ق.م ـ ١٤م). المترجم.

ثم إذاً استدعاء فاقدي زوجاتهم المعروفين بثقتهم، فتم إجراء قرعة على أسمائهم، فكان يوسف المختار: «أنت من سيرعى الطفلة، قال الكاهن الأكبر، هي تحت وصايتك، إعتن بها حتى نجد لها زوجا».

وهكذا أخذ أبي بالتبني البالغ حينذاك الخمسين من العمر على عاتقه حماية مريم. وفي سن السادسة عشرة حدثت المأساة، فيما بعد، ربما سأتحدث عنها.

إخوتي يدعون، يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا وأختاي ليزيا وليديا، أما أنا فالأكبر بينهم جميعا.

ترعرعت في الناصرة. الناصرة المجهولة المنبوذة. نقطة صغيرة فوق الأرض. شتاؤها رياح عاتية باردة وصيفها شمس حارقة.

أحتفظ بين عيني بصورة قمم جبال جيلبوا التي تغلق من الشمال وادي زرعين حيث في بعض المساءات يرتسم ظل طالوت المحطم لمقتل أبنائه من طرف الفلسطينيين. المكان الأبدي المشؤوم الذي لعنه داوود.

احتفظ بين عيني بحقول العنب، بالمنازل البسيطة ذات الأسطح المشيدة بالأغصان والطين المعجون، بظلال التين وطيران الخطاطيف المنتشرة في السماء اللازوردية.

أحتفظ بظل أمي وهي منحنية على الحافة ذات السبيل الوحيد، ثم تمضي إلى بيتنا حاملة جرة الماء فوق كتفها. أمي ذات الشعر الجليلي والجلد الكامد. لون الفتيات اللائي ترعرعن في النور.

في الغرب تظهر منحنيات الكرمل وفي الشرق جبل طور الذي يشبه نهدا منتصبا فوق السهل. وفي ما وراءه تتموج جبال موطن السامريين. في البعيد أيضا يظهر وادي الأردن العذب.

رأيت القوافل العابرة إلى مصر تتوقف لتستقي من نبع القرية. هنا وليس في مكان آخر رأيت مخالطة بين الجنتيلز ـ غير اليهود ـ والفينيقيين والعرب والسوريين والأشكانيين وحتى اليونانيين.

كانت لأمي قريبة تدعى إليزابيث، هي زوجة الكاهن زكريا أحد المتدينين الذين يخدمون في المعبد. كلاهما ولد في الخليل بيهوذا. تنتمي إليزابيث إلى سلالة هارون ومن قبيلة ليفي.

تروى حكاية غريبة عن هذين الزوجين، ففي أحد الأيام اختير زكريا بالاقتراع كي يدخل إلى قدس الأقداس قصد إحراق البخور. وكان ذلك امتيازا نادرا لا يحدث للشخص إلا مرة واحدة في حياته. حينها تجلى له في الجهة اليمنى من المعبد ملاك من الرب. عندما لمحه زكريا استبد به الذعر. فخاطبه الملاك: «لا تخش شيئا يا زكريا، زوجك إليزابيث ستلد لك ولدا وستسميه يوحنا» ثم أضاف الملاك: «سيسير أمام الرب بفكر وقوة إلياس كي ينزل الرحمة في قلوب الآباء اتجاه الأبناء وينير قلوب المتمردين بحكمة العقلاء حتى يُعدَّ للرب شعبا حسنا»

تعجب زكريا لأنه كان قد بلغ من العمر عتيا، كما أن زوجه عاقر أيضا. رد عليه الملاك: «أنا جبريل، ولأنك لم تصدق كلماتي، أقسم بالرب أن تصبح أبكما، ولن تستطيع الكلام، حتى تتحقق هذه الأشياء»

وهذا ما حدث فعلا. فقد بقيت شفتا زكريا مختومتين. عاد بعد ذلك من خدمته، إلى البيت ومرت أيام، تبين أن إليزابيث حبلى، وبعد تسعة شهور ذهب ليسجل الوليد في الألواح. سيدون ما أمره به الملاك: يوحنا، حينها فقط فك لسانه.

يوحنا الملقب بـ«المؤسس». الذي ابتدأ معه كل شيء.

اشتغل ابي يوسف بالتبني خلال طفولته في بناء المعبد المبالغ فيه الذي ذات يوم عنَّ لهيرودس كي يستبدل به هيكل سليمان المدمر من طرف أعداء إسرائيل. خليفته وابنه أنتيباس ولكي ينال رضانا، سيبذل جهدا لتوسيعه. وهنا سينهمك وينهمك آلاف العمال المميزين في كل الأقاليم. متى ستنتهي الأشغال في المعبد؟ لا أحد يعرف. ربما عندما سيندثر بين النار ورثة هيرودس، أبناؤه الثلاثة: أنتيباس، حاكم الجليل، أرخيلاوس حاكم يهودية والسامرة، فليب حاكم إتوريا وترشونيتيد. ثلاث أفاع في خدمة الرومان.

يحدث أيضا أن يراقب أبي مواقع بناء مدينة صفورية المعلقة فوق الرابية على مسافة ساعة من الجليل. وكنت أرافقه منذ أن أصبح بمقدوري حمل المسحاج.

صفورية التي جعلها أنتيباس عاصمة لحكمه، هي مدينة ملحدة حيث يختلط الفسيفساء الروماني بعواميد اليونان. رأيت فيها منازل ذات سقوف من القرميد الأحمر، مزخرفة الجدران ومحاطة بأروقة. رأيت أيضا مسرحا مخادعا منصوبا كخطيئة. قاربت اليونانيين وتأملت رسوماتهم حيث تتجسد صور آلهتهم، فشعرت بالغثيان.

ما هو هذا الرب الذي نستطيع تحطيمه إلى قطع نلقيها على الأرض؟

ما هو هذا الرباني الذي يمكن تصويره، وكل تجسيد له أكذوبة؟ كيف يمكن الركوع للأصنام؟

كباقي أبناء اليهود، وفي اليوم الثامن خضعت لعملية الختان. بهذا تم احترام إرادة إبراهيم الأبدية: «في اليوم الثامن، ستختنون بتعاقب أجيالكم، سواء ولد في البيت أو اشتريتموه من الغرباء من غير عرقكم. وكل زيجة من نسلكم ستكون رابطا أبديا. أما الرجل غير المختن فسيطرد من شعبي»

تعلمت إلى جانب أبي القراءة والكتابة بالآرامية، لغتي. ثم تعلمت العبرية بعصا حاخام يدعى صموئيل الذي لا يمكن تحديد عمره. فيما بعد دخلت بيت الدراسة في الجليل، الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة جدا خالية تقريبا من الأثاث حيث يجتمع المراهقون. هنا وجدت الوقت المناسب لتعميق معرفتي بكلمات التوراة. كان الوصول إلى المعرفة شيء نادر، وقد كنت محظوظا بمقاربتها.

في سن الثانية عشرة وبمناسبة عيد الشكر كنت ارافق والدي الى اورشليم. اورشليم أبواب السماء. عابراً أسوارها كنت أشاهد كلمات يعقوب: بالقطع، هنا يوجد الرب.

المدينة غاصة بحشود هائلة قادمة من كل الاتجاهات ومن جهات أخرى أبعد.

في ذلك اليوم بالتحديد شاهدت هيكلاً لأول مرة لم يكن بناؤه قد انتهى. ورغم أوصاف أبي له للمرة المائة، غير أنني لم أتخيل أبدا كل هذه العظمة. كان الصرح محاطا بسور ضخم تتخلله عشرة أبواب. تسعة منها مغطاة بالذهب والفضة وكذلك الدعامات والسواكف. عندما تنعكس الشمس عليها تبدو الأبواب وكأنها قطعة من اللهب. وكانت الأروقة تمتد في صفين من العواميد المرتفعة بعلو خمسة وعشرين ذراعا منحوتة من قطعة واحدة من الرخام الناصع البياض. وكانت السقوف التي تغطيها مصنوعة من خشب الأرز. أما الجهات المكشوفة فكانت مرصعة بحجارة ملونة، وفي الزاوية الجنوبية ينتصب درابزين قائمي الزاوية. الدرج الأكثر قصرا يقود إلى البوابة الرائعة والآخر في الشرق يقود إلى أبواب كيبوتز. ثم هناك ثلاثة صحون: واحد للجنتيلز مسموح للجميع وآخر للنساء فقط. ثم آخر خاص بالرجال وفي الوسط يوجد الكهان والقداس.

أما في الخلف فتوجد بناية تحتوي على الشمعدان الذهبي ذي الفروع السبعة (المينورا) وقدس الأقداس. يقولون إن الأمطار لم تهطل نهارا منذ ثلاثين عاما فوق مكان الأشغال ما عدا بعض الليالي التي زخت فيها، ولهذا فالأعمال لم تتوقف قط.

في عهد هيرودس حلق نسر من الحديد المذهب، كان تجسيدا للإلحاد، مال نحو الفناء، وما أن لمحه الحاخامات المغتاظون حتى أسقطوه محاولين الدفاع عن أنفسهم. وما إن علم الحاكم بذلك حتى أمر بأن يطلى أربعون منهم بالقار ويحرقوا في الليل كمشاعل.

عندما أشاهد هذا المكان المقدس أحس أن روحي تمتلئ سعادة، غير أن إحساسي هذا يتبدد عند سماع صياح مشاحنات الباعة الحادّ. ضوضاء، فجور وجشع. هذه إهانه لقدسية هذه الأمكنة. كان الباعة متكئين على مناضد ثرواتهم، يبيعون البخور واليمام والزيت والنبيذ والتمائم و بخور المر[1] والشموع، ويشيرون ويجادلون من أجل الأثمنة. وهناك أيضا الصرافون بعيونهم الجشعة، يلمعون قطعا نقدية من كبادوكيا[2] ومقدونيا أو من لوتشانيا[3] مضورب عليها

---

(١) المر: مادة راتنجية عطرية حمراء بنية تنتجها شجرة المر. يبلغ معدل ارتفاع شجرة المر ثلاثة أمتار، لها أغصان شائكة وأزهار حمراء برتقالية، وهي تكثر في شبه الجزيرة العربية (اليمن وعمان) وفي شرق إفريقيا (دجيبوتي وأثيوبيا والسودان والصومال وكينيا)، هي بالفرنسية myrrhe، وبالإنكليزية شجر المر، اسمها العلمي Commiphora myrrha Engl وجاء في العهد الجديد أنه كان دهان المسيح بعد الصلب. المترجم.

(٢) كبادوكيا في الجغرافيا القديمة، cappadocia او capadocia، kapadokya التركية (من الفارسيه: katpatuka معنى «ارض الخيول الجميلة»، اليوناني: καππαδοκία / καππαδωκια كان اسم مقاطعة في آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) . . المترجم.
استمر استخدام اسم كبادوكيا في مصادر غربية وفي التقليد المسيحي عبر التاريخ، وهو لا يزال يستخدم على نطاق واسع دولي لتحديد مفهوم السياحة، منطقة استثنائيه، عجائب الطبيعة، تميز تراث تاريخي وثقافي فريد. . أما اليوم فإن كبادوكيا تقع في منطقة نوشهير في تركيا.

(٣) منطقة في وسط إيطاليا. (المترجم).

صور ملوك بعيدين وآلهة وثنية. تعتبر كل عملة أخرى غير خالصة باستثناء عملة سكان مدينة صور التي يسمح للحجاج بأن يدفعوها كضرائب للطبقة الكهنوتية. هذه العملة وثنية بدورها لأنها تحمل صورة الإله الفينيقي ملقار: نفسه هرقل الرومان.

كنت أرى أيضا خيوطا تتراقص أمام الطاولات حيث تباع الخواتم الضرورية لشراء الدواب التي تقدم قرابين لمحو الخطايا.

هل نحن في مكان للصلاة أم في خان؟ كنت أسأل أبي. في البداية نبهني إلى أن التجار كانوا يحصرون في الرحبة إلى جانب الجنتيلز[1] تمهيدا للفصل بين ما هو عرق خالص وغير خالص. ليس في قدس الأقداس وحده. ثم فيما بعد شرح لي أن هؤلاء الأشخاص سمح لهم بالمتاجرة لأنهم يدفعون للكهنة ضرائب كبيرة. ونتيجة لذلك تصبح هذه العائلة الكهنوتية تحتكر تجارة العطور وتلك تحتكر تجارة الخبز. الخبز بعدد الاثني عشر الذي يقدم إلى الرب ولا يتناوله غير المكلفين بالقرابين.

بطبيعة الحال، تنال عائلة كيفاس[2] وحنان النصيب الأوفر من المداخيل. وبهذا يصبح عبيد الرب وسطاء وأثرياء باسم الرب القدس.

شعرت ببلبلة عميقة، فابتعدت عن هذا الصخب منفصلا عن والدي.

وكأنني مدفوع بقوة خفية، اندسست داخل الحرم القدسي. كانت هناك غمامة دخان كثيف تحوم بعلو منخفض فوق القبة. رائحة شحم ولحم مشوي وبخور تتصاعد من كل مكان. قطعان خرفان يقودها لاويون[3] في اتجاه الكهنة

---

(١) مصطلح يقصد به في التوراة الأشخاص غير اليهود(المترجم).

(٢) الكاهن اليهودي الأكبر الذي لعب دورا كبيرا في القبض على المسيح وصلبه(المترجم).

(٣) اللاويون أفراد من قبيلة اللاوي لدى الاسرائيليين مهمتهم خدمة المعبد(المترجم).

المكلفين بالقرابين. كل هذه الحيوانات ستموت وسط ثغاء وفسوق دموي. في النهاية، فهو لم يكن ملاذا مقدسا للإلوهيم[1] بل مجزرة كبيرة.

لا أعرف كيف وجدت نفسي وسط مجموعة من الطلبة المكونين من طرف أحبار الناموس. كانوا يتحاورون أمام نظرات إجلال للمخلصين. وفي لحظة محددة وبفعل جرأة مجنونة سمحت لنفسي بمساءلتهم حول بعض المواضيع في التوراة. مثل التسعة والثلاثين عملا ممنوعا خلال يوم السبت. كنت أريد أن أعرف إن كانت الخياطة محظورة، بينما التمزيق أو القص مسموح بهما. وكنت أيضا أحاول فهم معنى «تسيتسيت» أي تلك الهدب التي تزين الحواشي الاربع لخمار التعبد.

في خضم غليان ذلك النهار، لم تنتبه مريم ولا يوسف إلى غيابي. كانا قد انطلقا إلى الناصرة مقتنعين بلا شك أنني ضمن القافلة، لكن فيما بعد اكتشفت أمي اختفائي، عندها ستتوقف عائدة يفترسها القلق. ستذرع طرقات المدينة. وبعد ثلاثة أيام ستعثر علي داخل الحرم القدسي ـ المكان الوحيد لم يخطر ببالها مطلقا ـ كنت مازلت هناك، ظمئا وجوعان مأخوذا برغبتي في التعلم. شيء محير، خيل إلي في تلك اللحظة أن أحبار الناموس كانوا معجبين من سرعة بديهتي. ربما مجرد تهيؤات.

كانت مريم مرتبكة فوبختني قائلة:

ـ بني، لم تصرفت معنا على هذا المنوال؟ أنا ووالدك بحثنا بخوف شديد.

---

(١) في مجموعة الآلهة الشامية الإلوهيم هم أبناء الإله الأقدم وهي (صفة للإله، عولم) ويعتقد أنها تجتمع في المكان الإلهي المقدس جيل زفون (جبل اقرا) الموجود في سوريا ويعتقد وجود مقابل له في السماء. إلوهيم في الكتاب العبري عامة اسم مفرد يستعمل كاسم لله. واقترح البعض أن هذا يدل على أصول متعددة الآلهة أو هينوثية لليهودية. لكن استعمال صيغة الجمع لاسم مفرد موجود في أمثلة قليلة في العبرية. . (المترجم).

ووجدتني أقول لها كلاما بدا لها غريبا.

ـ لم تبحثان عني؟ ألا تعلمان أني كنت أهتم بأشغال أبي.

لكنهما لم يفهما شيئا، أما أنا فكنت أعرف دائما أني أعرف.

كنت أطالع المزمور أياما كاملة من الفجر حتى المغيب، حينها رثيت عزلة شعبي. أضع جبهتي ملامسا حلم إبراهيم، مصليا لإلي،

أعظم الأنبياء. إلي، الأبدي الرحيم الذي يقتلعنا من سكرات الموت رافعا إيانا إلى السموات داخل زوبعة.

عندما تصفحت النصوص جيدا، شكرت الرب الذي خلق الكواكب، الماء والتراب. كنت قد عرفت العطش والجوع في أراضي المنافي. وارتجفت على سفح الجبل في جنح الظلام عندما جلب لنا موسى الشريعة السماوية. عندئذ استسلمت للنوم متألما بجراح الحرب إلى جانب الملك داوود.

كان انفعالي شديدا وأنا أتصفح الكتاب الذي منحني الدوار والوجع، ومن جسدي كانت تخرج نيران لن يستطيع الزمان ولا الإنسان إخمادها. كنت في حالة ذعر وحميَّة. تتدفق النيران في عروقي كالسيل الهائل. كنت أرى جيدا القلق في عيون أقربائي وإخوتي باستثناء جاك الذي كان يسخر من اضطرابي كما لو كان قبحا شاردا يخترق من وراء ستارة. كنت أحتاج وقتا لكي أفهم وأفرق بين الطاهر والنجس والصواب والخطأ والحقيقة والكذب.

ذات صباح استدعاني أبي:

ـ بني، منذ ولادتك وأنا ألاحظ أنك مولع بديانتنا، ألا ترغب في أن تصير حاخاما؟

أجبته دون تردد:

ـ لا، لا أرغب في ذلك.

بدا وكأن جوابي قد فاجأه:

ـ هل أنت متأكد؟

ـ نعم.

ـ وما هي الأسباب يا بني؟ كل تصرفاتك كانت تدل على أنك مستعد لخدمة الرب الأبدي.

ـ هناك ألف طريقة لخدمة الرب، لكن هناك الأهم وهو أني أحس أنني لا أنتمي لهذا العالم.

ازداد تعجب أبي فسأل:

ـ لا أفهم.

راودتني في الحال كلمات النبي عيسى: «لقد قيل: أيها الانسان توقف عن الاعتداد بنفسك، ففي النهاية لا توجد غير النفس وهي بلا قيمة»

بقي يوسف حائرا. ترى ما هي الفكرة التي كانت تتخبط في ذهنه ولم يصرح بها أبدا؟

من خلال الكتابة فقد كنت آنذاك قد بدأت سنتي السادسة من التعلم على يدي حكيم الحكماء «رابي هيليل»

«إذا لم أكن نفسي، من سيكون مكاني؟ وإذا لم أكن أنا نفسي، فمن أنا؟
وإذا لم أكن ذلك الآن، فمتى إذاً؟»

بدا لي هذا المبدأ غامضا لمدة طويلة إلى أن جاء اليوم الذي فهمت فيه المعنى الحقيقي الذي يعني ببساطة أن كل فرد منا يجب عليه أن يهتم بنفسه وأن يضمن لها الخلاص دون الاعتماد على الآخرين وبلا مضيعة للوقت. لأن قدراتنا صغيرة والطريق طويلة جدا وغدا سنكف عن الحياة.

«ما يبدو لك سيئا لا تفعله لقريبك. هذا جوهر التوراة، أما الباقي فمجرد اجتهادات، إذهب الآن لتعلّم ذلك للآخرين»

كان هيليل يقول تلك الكلمات الرائعة لأحد تلامذته مضمنا كلامه آيات مقدسة من كتاب زكرياء «العهد القديم»

«لا تحبوا لجيرانكم الأذى، ولا تقسموا زورا، لأني ما كرهت أشد من هذين الشيئين، يقول الرب. »

فاستنتجت وفقا لذلك أنه من الواجب أن نحب لأخينا ما نحبه لأنفسنا. الحب أسمى قيمة من كل الضحايا والتضحيات. فلكي نغير العالم يجب على الانسان أن يسمو درجة عالية إضافية. لهذا أعلنت ذات يوم أمام حشد كان متجمعا على التل المشرف على بحر الجليل:

«أحبوا أعداءكم، وباركوا الذين يلعنونكم، عاملوا بالحسنى الذين يكرهونكم، وصلُّوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم. هل استمعوا إلي حقا؟ والذين استمعوا هل أصغوا لكلامي حقا؟ »

في الوقت الذي كنت أغذي فيه روحي، علمني والدي مبادئ النجارة منذ نعومة أظافري. علمني كيف أستعمل المسحاج أو الرابوب، أشحذ شفرة، أخيط ألسنة خشبية. علمني كيف أصقل وأرمم شقوق الراتنج بالنشارة المعجونة بأبيض البيض. كيف أستعمل المثقب وأصنع لسانا وفرضاً من خشب. خلال فصل الشتاء تعم منزلنا رائحة البراية والنشارة، وفي الصيف نحول منضدة العمل إلى الخارج تحت شجر الزيتون حيث يمكنني أن أتملى السماء اللازوردية مشتغلا بنحت منجزي. أحب تواصلي بالخشب، هذه الحياة التي ترتعش تحت الشكير. كم من طاولات وصناديق ومقاعد وأسرة ومحاريث ومقاري صنعت بيدي؟ لقد نسيت العدد. لا أتذكر غير ضوضاء الجوار وذهاب وإياب أمي المنهمكة بأشغال البيت أو غزل الصوف، وضحكات أخواتي ومناوشات إخواني، وروائح الشعير والخبز الساخن.

مريم يا مريم، أنت التي تبكينني، أحب كثيرا أن أقول لك: كفكفي دموعك، لأن قسوة هذين الرجلين، يوسف ونيقوديموس لا متناهية. بسببهما ستموتين، بسب موتي وأنا مازلت حيا.

فجأة تداهم يسوع حالة نصب شديد، فتسقط كفه فوق ورق البردي.

ينهض يجول ببصره داخل الغرفة.

حصير، طاولة، مقعدان.

حيطان عارية. يحس بالاختناق ويود الفرار، الرحيل.

يخطو خطوة في اتجاه الباب واضعا راحته فوق المصراع، يعي جيدا لا جدوى من تصرفه، فالباب موصد وهو سجين. وبحركة غاضبة يضرب الباب مرة ومرتين.

ـ إني جائع!

ونتيجة لنداءاته، يستجيب صوت خطوات من الخارج. صلصلة ثم يدور الباب.

يظهر أحد حراس المعبد أمام عتبة الباب.

ـ ماذا تريد؟

ـ قلت ذلك، إني جائع.

يصدر الرجل زمجرة.

ينغلق المصراع بصلصلة حادة.

تمكن يسوع من رؤية هيئة عجوز منحنية. غريب، ملامحها تبدو له مألوفة.

أين بيير؟ أين الآخرون؟

ينهار على الأرض، على ركبتيه، ويداه مضمومتان إلى بطنه.

أبي، أبي، فليتطهر اسمك المقدس.

الفصل الثالث
اليوم التالي، أورشليم، قصر الكاهن الأكبر

ساخطا يطارد حنان ذبابا صغيرا يحوم حول وجهه النحيف بالشيخوخة.

ـ آه! فلتخلصونا من هذا العذاب.

ـ الحرارة. يعلق كيفاس، في كل فصل ربيع يحدث هذا، أما في الصيف فالوضع أسوأ.

ـ هل وضعتم الشباك على النوافذ؟

ـ نعم، لكن الثقوب ليست ضيقة كفاية. ينبغي التفكير في تغييرها.

ـ إذا فلتغيروها.

نتيجة لطول المعاشرة، أصبح كيفاس يعرف لحظات تغير مزاج حميه، فبدون سبب محدد، يمكن لهذا الأخير أن ينقلب من الحالة الأشد لطفا إلى حالة سخط شديد. في كل الأحوال، فهو لا يستطيع أن يظهر انتقادا اتجاهه، فحنان شخصية مهمة جدا، فهو الحاخام الأكبر للسنهدرين. وهذا يعني أنه الشخصية الأولى في إسرائيل، فهو ممثل الشعب اليهودي لدى روما.

لقد عرف زوال الحظوة عندما اعتلى تيبر عرش الامبراطورية.

لكن رغم عزله عن مهامه فقد استطاع ـ بقوة الرشوة ـ أن ينقل مكانته إلى أبنائه ثم إلى صهره. ومازال يمارس هيمنته الكبرى في المجلس. في الحقيقة إذا كان كيفاس يرأس السنهدرين، فإن حماه يحكم في الظل.

ـ إذاً، يضيف حنان بنفاذ صبر، أين هم؟

ـ لقد وصلوا للتو إلى أورشليم، ولن يتأخروا.

ـ أتمنى أن تكون لديهم أخبار جديدة، وإلا سندفع مستقبلا الثمن غاليا، إنها كارثة وفاجعة. ها نحن قد وقعنا في المصيدة التي وضعناها بأنفسنا.

يمد كيفاس يده إلى كأس الخروب. يشرب جرعة ويعلق:

ـ صحيح أن الأمور لم تسر كما خططنا لها، لكن هذا لا يمنع من أننا مازلنا أسياد الموقف، نحن. . .

ـ أسياد الموقف؟ الرجل ما زال على قيد الحياة رافضا مغادرة البلاد. إنه مجنون وكجميع المجانين، فإننا لا يمكن توقع تصرفاته.

ـ سيستسلم، لقد خيرناه بين المنفى أو السجن المؤبد.

يستند العجوز إلى حاشيتي مقعده وينهض بصعوبة ثم يبدأ في ذرع القاعة طولا وعرضا.

ـ ويتصرف أخرق تمنحونه وسائل للكتابة!

ـ تنازل بلا نتائج، كان هذا الثمن الذي دفعناه من أجل تعاونه، وفي كل الأحوال مهما كانت قيمة ما يكتبه فلا أحد سيؤمن به وخصوصا أن لا أحد سيتمكن من قراءته، نحن متأكدون من ذلك.

يرد كيفاس:

ـ لو كان الامر بيدي لكان هذا الجليلي في الوقت الحالي يرقد داخل قبر مجهول في عمق أعماق صحراء يهودية.

ـ قتله؟ نحن قتلة أمام الرب، دماء على أيدينا، نحن. . .؟

ـ وإذا هرب؟ هل فكرت في هذا؟

مستحيل، انه مراقب من طرف الميليشيات ليلا ونهارا. أقلهم مالكوش الذي

قطعت أذنه ليلة القبض على يسوع من طرف أحد مريديه، سيكون سعيدا لو تتاح له الفرصة للقيام بهذه المهمة، ولن يستطيع يسوع الإفلات منه أبدا. زد على ذلك ففي ما سينفعه الهرب؟ هل سيذهب عند مريديه ليقول لهم: «لم أُبعث أبدا، لقد كذبت عليكم، لست المنقذ الذي تنتظرونه» هذا غير معقول!

يدير حنان العقد الذهبي الذي يزين صدره، يرفعه قليلا ثم يطلقه.

ـ في كل الاحوال، هل سبق له أن أعلن أنه يسوع الرب؟ أنا شخصيا لم يقل أمامي ذلك.

يتفض كيفاس:

ـ لكني كنت أعتقد. . .

ـ لا شيء، لا تعتقد أي شيء، لقد احتفظت بكل عباراته في ذاكرتي. في أي لحظة، لم يعلن ذلك أمامي.

يقف كيفاس بدوره ويتجه نحو حماه.

ـ حنان. . . (وجها لوجه). . . بالنسبة لي فقد أعلن بجلاء: «أنا يسوع». أنا بدوري أتذكر جميع عباراته، كان جوابه حاسما. «هل أنت يسوع ابن الرب؟» فرد: «ها قد قلت ذلك!»

يهز العجوز كتفيه:

ـ هذا ليس جوابا، المسألة كلها تتمثل في الأسلوب المستخدم. كم مرة حدث أن كنت في حالة غضب وتعب من شخص فظ، فأرد عليه: «ها قد قلت ذلك! ها قد قلت ذلك!» وأنا أضمر: «لا داعي لهذا الحديث، لقد استسلمت» هذه هي الطريقة الوحيدة لوضع حد لمناقشة عديمة الفائدة. مع العلم أن مثل هذه المناقشات تكون فاشلة سلفا. أما عبارته «أنا ابن الرب» التي لم يتوقف عن ترديدها، فإن أي أميٍّ يعرف أنها عبارة مألوفة جدا.

وهي واردة في الكتاب أكثر من مائة مرة.

ـ لقد جدف معلمنا بجرأة: «اهدموا هذا الهيكل، خلال ثلاثة أيام سأغير مكانه.»

ـ هذا خطأ، يا أخي كيفاس، لقد كان يقصد هيكلا آخر.

التفت الكاهنان في لحظة واحدة في اتجاه من قال هذه الكلمات: نيقوديموس وبجانبه يوسف الرامي.

ـ السلام عليكما،

يرحب حنان

ـ كنا في انتظاركما.

تجاهل كيفاس الرد على التحية وأسرع متسائلا:

ـ ماذا تقصد بهيكل آخر؟ حسب علمي لا يوجد هيكل آخر في أورشليم.

ارتقى نيقوديموس الدرجات ليصل إلى مستوى قامة الرجلين.

ـ أعتقد أنه في ذلك اليوم كان يقصد هيكل جسده.

يدعو حنان الرجلين للجلوس. يلتحق بدوره مقعده.

ـ إذاً فقد حدثتماه؟

يرد نيقوديموس:

ـ نعم، لحد الآن مازال يكابر ولا يريد أن يعرف شيئا وهذا عادي لأن الرجل تعذب كثيرا وهو ليس على درجة كبيرة من الوعي، غير أنني متأكد أنه سيستسلم في نهاية الأمر. المسألة مسألة أيام أو ساعات. في كل الأحوال فالوقت في صالحنا.

يصرخ حنان هائجا:

ـ أنت يا نيقوديموس، إنه خطؤك، كانت فكرتك.

ـ يا أخي، كن متسامحا قليلا، كيف يمكننا أن نعلم أن الليلة التي أخرجناه فيها من القبر كان مازال على قيد الحياة. كما أن العسكري تحقق من الأمر حينما غرس رمحه في خصره. بالنسبة لنا جميعا لم يكن لدينا شك أن الناصري قد مات. لكن عندما أدار حراسنا حجر القبر اكتشفنا انه لم يمت.

ـ إذاً كان من المفترض أن تتركوه يموت. يحسم حنان

ـ لنشاهد خطتنا تنهار. يعترض يوسف الرامي ثم يتابع: بل ليتحول كل ما أنجزناه إلى لا شيء.

يتدخل كيفاس بوجل:

ـ بخصوص الحراس. . . ألا توجد مخاطرة من أن يفشوا السر.

يهز يوسف رأسه بالنفي:

ـ في هذا الوقت بالذات أصبحوا خارج البلاد ومعهم مال وافر يكفيهم حتى نهاية عمرهم.

صمت جسيم يغطي القاعة.

يسأل حنان.

ـ والاشاعات التي تقول ان الناصري يوجد هنا وهناك. . . أظن رجالنا من حرضوا على ذلك؟

يبتسم يوسف:

لا، خلافاً لكل التوقعات، لم نحتج للتحرك في هذا الاتجاه، فمريدوه تصرفوا بما يفوق تطلعاتنا، وهذا جيد.

يزيح خيطا رفيعا عن كمه ويتابع:

ـ فلنحافظ على برودة أعصابنا، سيستسلم أنا متأكد من ذلك.

ـ وإذا رفض؟ يتساءل حنان.

يتردد نيقوديموس ثم يقول:

ـ إذاً سنضطر إلى اختيار حل آخر. . .

ينظر كيفاس إلى الأرض.

يعدل حنان استدارة العقد حول صدره.

شعاع شمس قانية يخترق النافذة ويتحطم بمحاذاة أقدامهم.

في نفس الساعة، في مكان ما من يهودية

يتأكد يسوع من أن زيت القنديل مازال متوفرا، ثم يواصل الكتابة:

رددت على الحاكم: «لقد ولدت وجئت الى العالم لكي أقول الحقيقة، فكل من سيسمع صوتي سيعثر فيه على الحقيقة» وردا على كلماتي، سأل بصلافة: «وما هي الحقيقة؟ » بدوره لم يفهم شيئا. فقد كان متقوقعا داخل منظوره للعالم خادما للامبراطورية، كان بيلات أعمى، أعمى، أعمى. يظن أن التطهير من جريمة يتم بمجرد غسل اليدين في القدح معلنا: «أنا بريء من دم هذا العادل» ثم عندما لجأ إلى هذه اللعبة المسرحية مقترحا استبدال حياة هذا المجرم يسوع بـ بارابا (أو باراباس المترجم).

بحياتي. أي هدف كان يصبو إليه، لا شيء، كانت الحيلة الأخيرة لهذا النذل.

كيف يمكنه أن يصدق أن هذا الجمهور الهائج سيتخلى عن الفريسة التي اختارها؟ عندما يغرز حيوان متوحش أنيابه في لحم ضحيته، لا شيء يمكن أن يثنيه عنها. في كل الاحوال فقد شاء الرب أن يسطر منذ الازل كل تفاصيل حياتي. فلا ذرة رمل يمكن أن تتغير من موقعها إلا بمشيئته.

كنت أعرف، وعرفت دوما.

«يجب أن يوضع ابن الانسان بين أيدي الناس الذي سيحكمون عليه بالموت ويسلمونه للكفار كي يسخروا منه ويهينوه ويبصقوا عليه»

كنت أعرف دائما أن هذا سيحدث، لهذا كنت أؤجل الذهاب إلى أورشليم. كنت أعلم أن الخطر يوجد هناك، وهذا أيضا ما دفعني للهرب من الكهان الذين كانوا يحاولون القبض علي. حدث ذلك على بعد فراسخ من الاردن. ليس بعيدا عن المكان حيث التقيت يوحنا المعمدان بعد سنوات من الفراق. هربت ولم أحس بالطمأنينة حتى اقتربت من مياه النهر(نهر الاردن ـ المترجم) عادت إلي ذكرى يوحنا.

كان يوحنا في نظر بيلات تلك «الحقيقة الغريبة». ولد يوحنا في أسرة كهنوتية، أي كاهن بالولادة، لكنه اختار طريقا آخر. كان غاضبا وهو يرى الامتيازات التي يحصل عليها الكهنة وثروتهم المتزايدة وتواطؤهم المستمر واليومي مع المحتل الروماني. كان يوحنا في خضم ذلك متعطشا للطهارة، كنا معا كذلك. لا شيء يمكن ان يشفي غليلنا.

خلال فترة مراهقتنا لم نلتق إلا نادرا: بين الناصرة والخليل تبلغ المسافة مائة ميلٍ[1] لكن في كل مرة يكون اللقاء مبهجة. كان يوحنا يكبرني ببضعة شهور غير أن بصيرة رجل كبير كانت تسكنه. في نفس الوقت كانت الثورة تزمجر في أعماقه كما لو أن بداخله تهدر الأنهار غاضبة. كان يتحدث عن عالم خال من الامتيازات بعيد عن الكهنة وأطماعهم. عالم حقيقي. كان يحلم بفجر جديد يتحقق فيه نصر الرب، وجلاء الملوك الغرباء لتسود الطهارة العالم برمته. كان غالبا ما يرفع قبضته مرددا كلمات عيسى: «إسمعي أيتها السموات، أصغي جيدا لأن الرب يكلمك، لقد أطعمتُ ورعيتُ الأبناء، لكنهم تمردوا علي، العجل يعرف مالكه، الحمار يعرف زريبة سيده، أما إسرائيل فلا تعرف شيئا.

---

(١) حوالي ١٥٠كيلومتر. مثل جميع الناس في ذلك العصر الروماني فيسوع يتحدث عن الميل الذي كان يعادل ١٤٨٠متراً.

لا يملك شعبي أدنى ذكاء ـ اللعنة على الامة المذنبة، على الشعب الغاشم، على العرق الشرير، على الاطفال الفاسدين!»

ذات صباح وقد بلغت التاسعة عشرة من عمري، دق يوحنا بابنا، تكبد مشقة السفر ليخبرني أن والده زكريا قد مات. لم تستطع أمه إليزابيث تحمل المصاب.

ـ سأرحل، قررت أن ألتحق بطائفة الأسنيين(١).

لم يدهشني قراره لأنه سبق له أن حدثني مرارا عن هذه الطائفة من النساك التي كانت تقيم في قمران على ضفاف البحر الميت، في عزلة عن العالم. لقد شرح لي طريقة عيشهم ونظرتهم للعالم، وتوقعاتهم. بالنسبة له، تعتبر هذه الطائفة أعدل من يوجد على أرض إسرائيل. ثم طلب مني أن أرافقه في رحلته.

ـ ارحل معي، أعرفك جيدا، اضطرامك أكثر مما يلتهمني. أنت أيضا تبحث مثلي. أرى في نظرتك قوة غامضة. أنت صامت لكنك تبدو كما لو أنك تصرخ. تبدو غائبا لكنك حاضر أقوى من الزمن. هيا معي، هناك سنكبر.

ـ يوحنا، لست مستعدا لذلك، أفضل النبيذ والخبز.

لم أكن أكذب، يصر بإلحاح:

ـ يسوع، هيا معي.

ـ ربما فيما بعد، أحتاج بعض الوقت. عدد كبير من الأسئلة تتدافع في رأسي.

وضع كفه الأخوية فوق كتفي، أوقفني مسمرا مدة من الزمن، ثم قال بنبرة غريبة:

ـ سأنتظرك، سأمهد لك الطريق.

---

(١) طائفة الأسنيين طائفة قمران كانت مختلية للتعبد في كهوف مطلة على البحر الميت منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وهي طائفة يهودية تقويمية نباتية، وهي صاحبة المخطوطات التي تم العثور عليها في السنوات الأخيرة المسماة بمخطوطات البحر الميت(المترجم).

مرت أسابيع وشهور وأنا أكاد أختنق بأسئلتي. أقلب حياتي كما يقلب المحراث ترابا دون بذور، ثم خلصت إلى أن يوحنا ربما كان على صواب. وفكرت أن الأجوبة توجد هناك على سفوح هضاب الصوان الوردي، فقررت الذهاب للالتحاق بيوحنا.

أتذكر.

عندما أعلنت خبر رحيلي عارضني إخوتي وأمطروني بالانتقادات إلا جاك. يعتقدون أن من واجب الأخ الأكبر أن يبقى إلى جانب العائلة. أبي فضل الصمت أما مريم فكفكفت عبراتها.

عند مخرج المنزل فقط وضعت أمي كفها فوق خدي وهمهمت: «اذهب، بني، لكن لا تنس أبدا» اعتقدت لحظتها أنها تعلمني أنها ستكون دائما في انتظار عودتي. لكني كنت مخطئا. كانت تقصد ـ ولم أستوعب الأمر آنذاك ـ «لا تنس لم أتيت إلى هذا العالم».

كانت الرحلة طويلة من الناصرة إلى البحر الميت. كانت مناسبة للتفكير والتأمل.

وصلت إلى قمران في يوم ماطر وعاصف. كان بيت النساك منتصبا داخل منظر قاحل. وليس بعيدا عن هذا البحر الملعون ذي المياه الثقيلة بالملح التي يمكن أن تجعل الحجر يطفو على سطحها، مياه متماسكة لدرجة أنها تمتص الأشعة. أما الأشجار القليلة المحيطة فتجعلك تفكر أنها عظام أموات ممتدة نحو السماء.

كان أولئك الأشخاص يلقبون بـ «أبناء صدوق» حراس المصاهرة. ذرية هارون أخو موسى. كانوا يبجلون كاهنا يلقب بـ «اونياس»، ولا أعلم لأي سبب بـ «سيد العدل». يتعلق الأمر بشخص حكيم، قتله ملك كافر منذ زمن بعيد.

كان قد قسم الناس إلى عصبتين: أبناء الظلمات وأخرى هي أبناء النور، التي تنتمي إليها طائفة قمران. بالنسبة لهم أبناء الظلمات ينتمي إليها باقي البشر المؤهلون للوقوع في الخزي والعار. كل باقي الامم وكل اليهود خارج طائفتهم سيتهون إلى الهلاك يرسله ملاك المصائب، فيرزحون تحت الكوارث غضبا من الرب المنتقم، وبهذا يصبحون ضحية فزع بلا نهاية وخزي أبدي، بلا هوادة وبلا انقطاع.

غمرني الحزن وأنا اسمع هذه العبارات، فكتاباتنا المقدسة زخمة بالوعيد والدم المسفوك إلى درجة أنني كنت أسمع الصراخ في بعض المساءات عندما أكون مستلقيا فوق فراشي. كانت الأصوات تقتحم رأسي وتحرق لحمي. آه كم ليلة مرت أمامي عيني مشاهد المذابح! كم ليلة سمعت صوت موسى الرهيب آمرا: «تقلدوا سيوفكم، اخترقوا وجوبوا الموقع بيتا بيتا وليقتل كل واحد منكم أخاه وأبويه» في ذلك اليوم قتل ما يقارب الثلاثة آلاف شخص من السكان.

ألا يتعارض هذا مع مبادئ يهوه: «لا تبحثوا عن الانتقام، لا تحقدوا على أطفال شعبكم، أحبوا أقاربكم كما تحبون أنفسكم»

رفضت فكرة أن يلعن الأب أطفاله. عيناي كانتا تقرآن وتفهمان. قلبي كان يدرك وينزف.

«ستحب قريبك كما تحب نفسك»

لـم أكن أريد سماع سوى هذه الكلمات. بلا شك هذا نتيجة صدمتي من قسوة ولا تسامح الأسنيين.

كنا مترهبين داخل دير، لا نتناول غير الخبز وجذور النباتات والفواكه. كان اللحم ممنوعا، وارتداء الملابس محرما: كان يجب ارتداء الصوف الابيض، وكانت تفرض علينا طريقة خاصة لحساب الأيام والسنوات. فالبنسبة للأسنيين

فالتقويم الجديد كان تقويما مدنسا ومن هنا كان احتفالنا بالأعياد يتم في أوقات خاطئة. وهذا أحد الأسباب التي دفعت اصحاب هذا المذهب الى رفض الصلاة في المعبد او مصاحبتنا لأننا كنا في نظرهم ـ نحن اليهود ـ مغتصبين.

لم أشعر أبدا بأي تحفظ للصلاة رفقة أهلي، أو أن ألقن داخل الحرم القدسي. بالنسبة لي كانت الأمور طبيعية.

كانت طقوس الاغتسال تشغل حيزا مهما من حياتنا اليومية. حمام للتطهير يسبق كل وجبة طعام. وللتذكير، فالماء لم يكن متوافرا في الجوار بما يكفي ليغمر الجسد بكامله، لهذا كان علينا أن نعبر مسافة ثلاثة أميال.

كان ممنوعا علينا ذبح الحيوانات، أو صناعة السلاح أو الاشتغال بالتجارة. كان أعضاء الطائفة عندما ينتهون من التعلم الذي يستغرق ثلاث سنوات، يقسمون أن يتخلوا إلى الأبد عن جميع ملذات الحياة.

في بداية الأمر، اعتقدت أن رؤيتهم للعالم تجذبني، قلت في بداية الأمر فقط لأنني شيئاً فشيئاً رأيت الهوة التي تفصلني عن هؤلاء.

كانوا يؤكدون أن التوبة عن الخطأ لا تصح على المذنب والعدو. وإذاً ما جدوى التوبة من الأصل؟ أما أنا فكنت أفكر: «إذا كنت تحب الذين يحبونك، ما هو الجزاء الذي تستحقه؟ واذا كنت تلقي السلام على إخوتك فقط، هل تفعل شيئا استثنائيا؟ ألا يتصرف الوثنيون هكذا؟ »

كانت هناك أيضا تلك القوانين الصارمة المفروضة في جميع المجالات حتى الأشياء الحميمة، كلمس الآخر باليد، أو كشف الأعضاء التناسلية. إذا شوهد أحدهم يمشي عاريا بلا سبب ملحٍّ، فإنه يعاقب لمدة ثلاثة أشهر.

في الحقيقة، سبب قطيعتي مع الآسنيين كان في مكان آخر: كانت هذه الطائفة تعيش راضية بلاواقعيتها، في انتظارٍ، غير أنه انتظار عقيم. كانت قريتهم

المنتصبة فوق الجبل بادية للعيان ولا يمكن إخفاؤها، من غير الممكن أن نضيء مصباحا لنضعه داخل علبة أسطوانية بل ينبغي وضعه في مشكاة ليضيء جميع البيت.

ذات صباح، بعد سنتين، غادرت، تخليت عن يوحنا في قمران وعن أشباحه.

هل عاتبوني؟ لا أعتقد ذلك، لأن المستقبل كان سينصفني.

إلى أين المسير؟ أين سأجد الحقيقة ومعنى كل شيء؟

كان هناك ذلك الصوت الذي يهمس الكلمات التي لا أفهم غير نصف معناها. في بعض المساءات كان يتردد قويا ملعلعا كالرعد، وفي أخرى يأتي هادئا ودافئا. عرفت، منذ ذلك الحين، أنه صوت أبي، الذي في السموات.

الفصل الرابع
٢٩ نيسان، كفر نعوم، بيت سمعان بيير

إنسدل الليل فوقهم، إنه يوم السبت، هناك شمعتان ترسلان وميضا شاحبا على وجوههم.

كانوا ثلاثة عشر شخصا ممددين فوق الفرش، جميعهم من حواريي الناصري.

كان هناك أيضا ابنا سمعان بيير، آفي الابن الأكبر في الخامسة عشرة، وشاول الابن الاوسط، أقل من الأكبر بسنتين، ترقد بينهما أدايا حماة سمعان. يضع سمعان يديه فوق رأسي ابنيه:

ـ فلينر الرب طريقكما ويمنحكما السكينة، ويجعلكما مثل إفرايم ومناسي.

ثم يرتل الكيدوش شكرا لنعمة النبيذ والهاموتسي شكرا لنعمة الخبز، بعد ذلك يقطع الخبز، يملحه، ويوزعه قطعا على كل فرد.

فوراً يتساءل جاك:

ـ لن نعرف أبدا لم شنق نفسه.

يعبر سمعان بيير بازدراء:

ـ كان من الأفضل له لو أنه لم يولد قط.

ـ بلا شك.

يلاحظ توماس التوأم[1] ثم يمد يده نحو جرة النبيذ ليتناول منه.

ستارة تحجب النوافذ، الباب موصد. فوق صينية كبيرة موضوعة على الأرض ثمة زيتون وجبن جليلي رطب وسمك مشوي مسقي بالليمون.

ـ هل يعرف أحدكم أين وقع الحادث؟ يستفسر بيير فليب.

يجيب فليب البيشسدي[2]:

ـ حسب الإشاعات حدث ذلك في وسط أحد الحقول المشرف على أبواب أورشليم.

يعلق بيير وهو يمضغ حبة زيتون:

ـ في حضن الشيطان.

تقاطعه زوجته:

ـ توقف يا سمعان.

كانت زوجته أطول قامة من باقي النساء الجليليات. في سن الأربعين، يبدو وجهها خال من التجاعيد إلا من بعض الجعيدات حول أطراف العين.

تتخترق الغرفة مهرولة واضعة بقوة فوق الصينية قصعة كبيرة مليئة بالرمان.

ـ ماذا سأقول لك يا سيمون أنت قاس جدا مع هذا الـ (يهوذا) المسكين. رغم كل شيء، هل نسيت أنه كان رفيقك الأشد استقامة.

ـ الأكثر استقامة! هكذا تصفين من باع حلمنا بحفنة من الشيكلات.

تستلقي حنا بين زوجها وماثيوس ليفي.

ـ كعادتك تتسرع بالكلام بغير ما تفكر به. فكر قليلا! أنت تتحدث عن

---

(١) انظر الصفحة ٢٥٤.

(٢) نسبة إلى قرية بيشسدا التي تأسست في القرن العاشر قبل ولادة المسيح. تقع شمال بحيرة طبرية. كانت تمتهن صيد السمك. في العبرية تعني بيت الصيادين وبالآرامية تعني الدار أو البيت (المترجم).

الشخص الذي كان أمين مال الجماعة، يجمع التبرعات ويشتري الطعام والملابس. كانت الفرصة متاحة أمامه كي يأخذ من الخزنة. هل يعقل أن يكون هو الشخص الذي خان من أجل بضع شيكلات بئيسة؟ ما سمعت في حياتي قط كلاما سخيفا مثل هذا!.

تتدخل أدايا:

- هدئي من روعك يا ابنتي. ستثيرين الأحقاد من حولك.

يلاحظ ماثيوس ليفي:

- مع ذلك، فهذا ما حدث فعلا.

يزايد جان:

- بالتأكيد، ولدي دليل على فضاضته، تتذكرين الصيحات العالية التي أصدرها عقب سكب مريم من بيت عنيا وعاء عطر الناردين على قدمي المعلم. وقتها استاء القريوت[1] قائلا: «لم نضيع كل هذا العطر؟ صحيح أن الوعاء كان يحتوي حوالي خمسمائة غرام عطرا، أي ما يعادل ثلاثمائة يوم عمل مزارع للكروم أو قيمة شراء عبد».

يبادر نثنائيل[2] مصححا:

- نسيت يا صديقي عنصرا مهما، لقد أضاف أنه كان بإمكاننا بيعه وتوزيع ماله على الفقراء.

تلح حنا:

- وهذا يبرهن أنه كان يملك قلبا. في كل الأحوال، أنت يا جان لم تحببه أبدا.

---

(١) المقصود يهوذا الخائن الملقب بالأسخريوطي (المترجم).

(٢) نثنائيل هو واحد من الرسل الاثني عشر الواردين في إنجيل يوحنا. (المترجم).

يخبط جان صدره:

ـ أنا؟

ـ نعم، أنت! أكاد أجزم بأنك تغار منه.

بيير موبخا:

ـ أنت يا امرأة!

تتدخل أدايا بامتعاض وأسى:

ـ لن تتصرف ابنتي يوما برزانة...

ـ مع ذلك، فهذه هي الحقيقة، لم يتحمل جان أبدا أن لا يكون المفضل لدى المعلم.

ـ أنت الآن تتجاوزين حدودك.

تضيف حنا بجرأة:

ـ لنفترض أن يهوذا كان هو الشخص الذي تتخيلون: شخص مرتش وعديم الذمة. هل تعتقد حقيقة أنه كان سيرافق معلمنا ثلاث سنوات فقط من أجل سرقة أموال الجماعة؟ هل كان المعلم أعمى كي لا يلاحظ ذلك وهو الذي كان يعلم ما بالصدور؟ بالإضافة إلى أنه لم يكن وحده من احتج على تبذير مريم، أنتم أنفسكم عبرتم عن احتجاجكم، إلى درجة أن الحاخام أعلن أن الفقراء سيوجدون دائما أما هو فذات يوم لن تجدوه بينكم.

تحرك رأسها بقوة:

ـ لاحظت مرارا رفيقكم. كان في بعض الأيام يصاب بالقلق ألاّ يستطيع ملأ بطونكم بالقليل المتوفر لديه. مقتصد بالتأكيد، لكنه ليس طماعا إلى درجة الخيانة. وأكرر ذلك: ليس من أجل مبلغ زهيد يخون الرجل.

يرد سمعان بيير غاضبا:

ـ حسنا يا امرأة، أنت تفهمين كل شيء، طيب فسري لنا ما الدافع إن لم

تكن الغنيمة الذي دفع يهوذا للافصاح للكهنة عن مكان اجتماعنا ذاك المساء. أوَلَم يعلن الحاخام أمامنا جميعا ساعة من قبل: «أحدكم ممن يتناولون الطعام بصحبتي، سيخونني»؟ ولأننا كنا نستفسر عمن المقصود بكلامه. فأضاف مصرحا بدقة: «من سأناوله كسرة الخبز المبللة» وهذه الكسرة لمن قدمها؟ إلى يهوذا. هل سمعت جيدا، يا حنا؟ إلى يهوذا.

تتنهد المرأة:

ـ أنت ترهقني، يا سمعان. أنا لا أعرف شيئا. لكنني أعرف وحسب أن الجشع ليس هو السبب. الأمر يتعلق بشيء آخر.

يلاحظ توماس التوأم:

ـ مهما حصل، فقد منح المال إلى السنهدرين، ويمكن أن نتخيل أن الندم كان يفترسه.

فجأة يعلن يوحنا ابن زبدي:

ـ وهذا وإن لم أكن خاطئا، لم يكن أبدا من طباعنا.

رغم صوته الخافت فقد كان بتوكيد قاس أذهل جماعة الثلاثة عشر.

تناول توماس قدح النبيذ دفعة واحدة. أما الباقي فقد تجمدوا في مكانهم.

يسخر ابن زبدي:

ـ بدون تعليق.

يتذمر يعقوب أخوه.

ـ ماذا تقصد؟

ـ انتبهوا إلى عجرفتكم! منذ فترة وأنا أسمع إهاناتكم لذكرى رفيقنا. يهوذا الخائن، يهوذا المرتشي، يهوذا السارق، الجشع...

ونحن؟ ماذا فعلنا ذاك المساء عندما كان معلمنا يصلي للرب وجبهته تنز

بالدم[1]؟ كنا غارقين في سبات عميق. ماذا فعلنا عندما جاءت الميليشيا للقبض عليه؟ انسحبنا كالأرانب. اين كنا حينما كان يجرجر تحت البصاق إلى جبل الجمجمة؟ كنا نلبد في أركان المدينة المظلمة مرعوبين من فكرة أن يماثلوننا به. أين كنا حينما غرس الجلاد تلك المسامير، وكذلك عندما كان العساكر يستخيرون قميصه؟ وعندما صرخ: Elli... Elli... lama sabactani ? من منا كان تحت الصليب؟ من منا حمل جثته إلى القبر؟!.

ينهي توماس كلامه وهو يلتفت اتجاه سمعان بيير:

ـ وأنت. . أنت يا سمعان بيير، أين كنت؟

يلزم سمعان الصمت.

ثم يتذكر.

كان الطقس باردا، فأشعلنا النار بموقد في الساحة المجاورة لغرفة الصخرة المنحوتة حيث كان يجتمع السنهدرين.

كان رأس بيير مدثرا وهو يجلس أمام جمر الموقد ورغم ذلك فقد كان يرتجف.

صوت أول يوبخ:

ـ هه أنت اكشف عن وجهك لنراك، ألم تكن صحبة الجليلي؟

صوت آخر يلح:

ـ أي نعم، أعرفه!

ـ لا. يحتج بيير. لا أعرف هذا الرجل.

قفز بيير على قدميه ثم حاول أن يبتعد. تشده خادمة من يده:

ـ أنت، بالتأكيد، لقد كنت مع الناصري.

ـ أنت تخطئين، لا أعرف شيئا عنه.

---

(١) انظر الصفحة ٢٥٤.

ـ لهجتك تخونك، يزمجر لاوي[1]. أنت جليلي. أنت أحد مناصريه.

ـ توقفوا، قلت لكم أنا لا أعرف هذا الرجل.

في تلك اللحظة بدأ ديك في الصياح، فتجمد بيير في مكانه، لأن نبوءة المعلم نزلت عليه كالصفعة:

«بيير، يا بيير، ستنكرني ثلاث مرات، قبل أن يصيح الديك»

ـ اصمتوا! هتف ماثيو ليفي. أحدهم يطرق الباب.

إصغاء جماعي.

لا أحد.

ثم طرقتان، هنيهة، طرقتان إضافيتان.

ـ إنها الإشارة، يهمس سمعان بيير. بلا شك هذا أخي.

يمسح شفتيه بكمه ثم يذهب لفتح الباب.

رجل فوق عتبة الباب، يدخل خلسة إلى الغرفة بهمة هارب.

ـ كل شيء على ما يرام؟ يقول حنا بقلق، أنت أبيض كغسيل.

يرفع أندريه القلنسوة التي كانت تخفي رأسه الحليق ثم يسقط فوق الفراش.

ـ كل شيء على ما يرام.

ـ هل اقتفى أحد أثرك؟ يسأل ماثيو قلقا.

يرد أندريه بالنفي، يتمعن في الوجوه ثم يسأل باضطراب أقل:

ـ هل عاد؟

يرد سمعان بيير:

ـ لا، لكنه لم يقل أبدا إنه سيعود. لقد قام بثلاث مظاهرات. ألم يعطنا

---

(١) اللاوي عضو من قبيلة اللاوي لدى الاسرائليين مهمته خدمة المعبد (المترجم).

وصاياه الأخيرة أن نجعل من الأمم كلها مناصرين له وذلك بتعليمهم كل ما أصدره من تعاليم؟!

ـ نعم، يوافق فليب، لكن الحصاد وفير بينما العمال قليلون. كنا في البداية سبعين. كم نحن اليوم؟ فرَّت الأغلبية.

ـ نحن نعرف السبب، يلاحظ سمعان بيير. لقد صدموا يوم قال الحاخام الكلام إياه. لكنني متفائل لأنهم سيعودون الآن بعدما يعرفون أنه انبعث.

يخيم صمت أليم على المجموعة. يهمس أندريه:

ـ كنت أتمنى رؤيته من جديد.

نبرة أندريه غريبة، يستشف منها توتر كبير.

ـ تكلم! يأمر أخوه. ما هو السؤال الذي يعذبك؟

أخيرا وكأنه يحس بآلام لا تطاق، نطق بنفس واحد:

ـ لا شيء، فقط بعض الأسئلة المبرمة. ربما هو الحزن.

ـ في هذه الحالة نحِّ عنا حزنك. تنصح أدايا. لقد انبعث يسوع من جديد. في أحد الأيام وضع رجل كفه فقط فشفاني من حماي، لن يكون غير مبعوث يهوه (الرب). لقد عاد من جديد.

*

في نفس اليوم، في مكان ما من يهودية

يلامس نيقوديموس بأصابعه ورق البردي الموضوع فوق الطاولة.

ـ لا أعرف حتى الآن جدوى هذه الكتابة. . .

ـ لا يهم، أجبني أولا، أكدت لي أنه منذ ثلاثة أيام أن مناصريَّ متأكدون من انبعاثي لأنني تجليت لهم، بالتأكيد أنت تكذب.

ـ لا، هذا ما يؤكدونه، زد على ذلك فهم ليسوا وحدهم. هل نسيت مريم

المجدلية[1] (أو مادلين) المشغوفة. هي أيضا تقول إنها رأتك. تحكي في كل أنحاء الجليل أنها كلمتك وتؤكد أن اللقاء كان بينكما في الحديقة المجاورة للقبر.

- هذه أيضا إحدى دسائسك...

- حاخامي، أنت قاس جدا، قاس جدا معنا. هناك تفسير قد لا يروقك. رؤية مناصريك للقبر الفارغ كان كافيا لكي يعتقدوا أنك انبعثت من جديد. كيف تريد أن تكون غير هذا؟ أنت المخلص، المنقذ، ومعجزاتك تدل على ذلك. إذا كان مؤيدوك يشيعون حكايات بعض الشيء... (نيقوديموس يبحث عن العبارة)... مخالفة للحقيقة، ويغالون قليلا، ليس فقط لأنهم يحبونك، بل لكي يقنعوا المتشككين وهم كثر.

- ها نحن نسقط في هاوية البهتان والرعب. أهكذا ينتهي كل شيء؟

يشد الكاهن كف يسوع بحنو.

- لا، على العكس، من هنا سيبدأ كل شيء. وهذا مرتهن بك، إذا أردت رسالتك أن تخلد وتمتد إلى الأبد.

- إذا رحلت، وغبت عن الدنيا.

- أنا...

- لا تحاول، يا نيقوديموس، لن أتغير أبدا.

- حاخامي، ألا ترى أن عنادك غير معقول؟

- يوجد طريق آخر.

- أسمعك.

- موتي، حراسك مسلحون، ضربة سيف وموتي سيكون محسوما.

---

(1) أنظر الصفحة ٢٥٦.

يصرخ الكاهن:

ـ كيف؟ هل أنقذنا حياتك لكي نميتك.

ـ إنقاذ حياتي؟ لم تكن حياتي أبدا ملكا لكم، إنها ملك ربي.

بحركة تدل على اليأس، يحرر كفه ويمسك ذراع نيقوديموس.

ـ قل لي ما يستتر وراء تصرفاتكم، ولا تذكر لي الشفقة، فأنا لا أصدق ذلك.

ـ ومع ذلك فهذه هي الحقيقة الصرفة، إنها بالفعل الشفقة من تدلنا على الطريق، ولا شيء آخر. أنا ويوسف يهوديان تقيان، وبالتالي فالظلم يثيرنا. وقد تمكنا من كشف الأسباب التي دفعت حنان وكيفاس للمطالبة بموتك. كانا يخشيان من ضياع سلطتهما. هذا هو السبب الوحيد، لكننا رفضنا دعمهما.

ـ وتحكم علي بالموت هنا.

ـ أو العيش في مكان آخر.

ـ هذا مرفوض كليا.

يصمت الرجلان لحظة طويلة ثم يعلن نيقوديموس بصوت مكتوم:

ـ حسنا، أنت حر. إرحل! لن نمنعك، هل سمعت؟ إذهب للقاء مناصريك. إذهب، لكن قبل أن تعبر الباب، أعد على نفسك كلمات النبي دانيال.

يستظهر، ووجهه بين كفيه:

ـ «إلهي، إليك أبوح بأسراري: ألا تخزيني بالهوان! وألا يستلذ أعدائي بأخطائي!»

تكاد هيأة نيقوديموس أن تنخسف، وعيناه أن تحتجبا.

– ها أرضنا منذ قرون وهي تعاني. ألف عام وهي تنتظر منقذها، وها قد أتيت كالنور وسط الظلمة. خطاباتك أضرمت النار في الأرواح الراقدة.

لقد رأت إسرائيل أخيرا من سينتشلها من نير أعدائها. هل تريد أن تحطم هذا الأمل؟ إذاً حطمها. ليس مهما إذا انتظرنا ألف عام أخرى. نحن ـ اليهود ـ نملك قوة لا تفنى هي القوة التي منحها ادوناي (الرب) لنسائنا، الـ " emouna "، الصبر.

ينهض نيقوديموس، بينما بقي ابن الانسان جامدا في مكانه.

ـ أنت حر. يهمس نيقوديموس.

ـ لقد فهمت.

ـ إذاً؟

ـ إذاً، يا نيقوديموس، أنا من يملك اختيار الساعة واليوم.

٣٠ نيسان، مدينة المجدل[١]

تقف مريم المجدلية أمام النافذة ترصد المنظر القاحل وكأنها تأمل ظهور طيف مألوف.

أين هو؟ كم نفتقده... أين هو؟

المرة الأخيرة التي رأته فيها كان ذلك في حديقة يوسف الرامي. مر على ذلك خمسة عشر يوما. عند انبلاج الفجر، مشت إلى قبر المسيح بذراعان مخضبتان بالطيب رفقة مريم من كليوباس[٢] وسلومي وجان، زوجة أمين المال لدى هيرودس. النساء الأربع يسرن معا وهن يتساءلن من يمكنه مساعدتهن في فتح مدخل القبر. لكن مفاجأتهن كانت كبيرة عندما وجدا أن محبس القبر تم فتحه سلفا، حينها استبد بهن الذهول فهرولن إلى داخل القبر فوجدن أن جثة المعلم قد اختفت وبدله وجدن شابا واقفا يرتدي لباسا أبيض، وعندما لاحظ ذعرهن قال: «لا تخفن، تردن يسوع الناصري الذي صلب، لا يوجد هنا، لقد

(١) مدينة المجدل توجد على الشاطئ الغربي لبحيرة طبرية(المترجم).

(٢) هي أخت المسيح من أمه. وكليوباس هو الزوج الثاني لمريم. (المترجم).

ابتعث من الموت. اذهبن وقلن لمناصريه ولسيمون بيير إنه سبقهم إلى الجليل، سترينه هناك. ثم اختفى الشاب عن ناظريهن».

وأمام هول المفاجأة، هربت مريم كلوباس وسلومي وجان تاركات مريم وحدها في الحديقة، كانت رجلاها ترتعدان، جسدها كله كان يرتعش، لا تدري ما تفكر فيه، فأجهشت بالبكاء. عندها ناداها صوت من ورائها: «لم تبكين؟» أجابت وهي تلتفت: «لأنهم اختطفوا سيدي، ولا أعلم أين أخفوه.» وجدت نفسها وجها لوجه مع رجل لم تكن قسماته مألوفة لديها. إنه البستاني بلا شك، قالت لنفسها ثم سألته: «إذا كنت أنت من أخذه، قل لي إلى أين أخذته؟ وسأذهب لاسترجاعه.» هتف هذا الأخير باسمها: «مريم!»

وقتها أدركت أنه هو، فصاحت: rabbouni ! (معلمي)

حاولت مريم بوثبة تلقائية أن تلقي بنفسها في حضن معلمها، خلال ذلك الوقت كان يشد كفها ثم ساعدها على الوقوف.

زالت ضغينة الآخرين. وانخرست سخريتهم. جذبها نحوه وهمس في أذن مريم: «اخلدي بحبي» في تلك اللحظة اعتقدت أنه يتحدث عن الحب المتعارف عليه بين رجل وامرأة، لكن فيما بعد أدركت أنه يتحدث عن شكل آخر من الحب. ذلك الذي يوحد السماء بالأرض منذ بدء الزمان.

لم تتركه مذ ذاك أبدا. إلى اليوم الاخير بقيت إلى جانبه وقد بادلها يسوع حنانا بحنان أكثر. إلى درجة أن ذلك جلب لها غيرة الحواريين الأربعة عشر مع أن المجدلية لم تكن المرأة الوحيدة التي تقتفي أثر السيد. فهناك جان زوجة هيرودس وشوشانة زوجة زكريا الجابي وماري كلوباس ومارثا، بطبيعة الحال لكل واحدة منهن طريقتها في تقديم المساعدة. بعضهن ينتمين إلى عائلات ثرية كن يقدمن المال، وأخريات مثل مريم يقدمن الطعام والملابس وأخريات أيضا يفتحن بيوتهن للاستضافة.

الحقيقة أنها أدركت أن غيرة الحواريين مصدرها التقاليد القديمة الجارية التي تنصب الرجل سيدا مطلق السيادة.

كانت النساء المرافقات للسيد لا يحق لهن لقب الحواريات. فذات يوم ألمحت بذلك ليوحنا ابن زبدي فرد عليها هذا الأخير بصلافة أنه لا وجود لحواريات. هذا الرد أزعج مريم لكنها وجدت له مبررات فقد كان يوحنا ابن زبدي محمولا بنزق الشباب كما انه كان يكن للسيد حبا غريبا ويرتبط به ارتباطا قويا، فهو لا يفارقه وكان دائما عند قدميه ودائما يستبق رغباته ودائما يسعى للنوم بجانبه بل إنها سمعت أنه مساء العشاء الأخير كان يجلس بجوار يسوع واضعا رأسه على كتفه في وضعية امرأة عاشقة.

ماذا يهم، إذا كان يسوع لم يظهر بعد انبعاثه لا لجان ولا أي شخص آخر بل للمجدلية دون سواها. هي وحدها من بينهم جميعا.

ماذا؟ هذا الأمر لن يعجب الخائنين، لم يكن بينهما غير الحنان العظيم. بطبيعة الحال كان يعبر لها عن حبه لكنه كان من النوع الذي يكنه المعلم لتلميذه والأب لابنه. لكن لِمَ هي بالذات؟

لم تتوقف عن طرح الاسئلة. في النهاية لم تجد سوى إجابة واحدة. ففي عالم حيث تسود الذكورة ألم يُرد يسوع أن يذكِّرنا باللحظة التي خلق فيها الرب الرجل الأول واللحظة التي خلق فيها المرأة الأولى محيلا أيضا على اللحظة التي يقفان وجها لوجه أمام ملاك الموت؟! في كلا اللحظتين كان الرجل والمرأة متساويين أمام الرب. ولو في تلك اللحظتين فقط.

أين يوجد الآن؟

ترفع عينيها المغرورقتين بالدموع نحو السماء، ثم تتذكر الكلمات التي همسها يسوع في أذنها: «اخلدي بحبي»

الفصل الخامس
في اليوم الأول من شهر أيار
في مكان ما من يهودية

ذات صباح وبعد مرور سنتين، رحلت تاركا ورائي يوحنا في قمران رفقة أشباحه.

هل آخذوني؟ لا أعتقد ذلك مادام المستقبل سينصفني. إلى أين المسير؟ أين سأجد الحقيقة ومعنى كل الأشياء؟

كان دائما يرافقني ذلك الصوت الذي يهاتفني بكلمات لا أفهم منها غير نصفها.

في بعض المساءات كان يدوي بقوة كالرعد وفي مساءات أخرى كان هادئا ودافئا. كنت أعرف أن الأمر يتعلق بصوت الرب الذي في السموات.

منذ عودتي إلى الناصرة اكتشفت أن منزلنا في ذروة الفوران. أمي وضبت الملابس في رزم وأبي جمع أدواته بمساعدة يعقوب. كانا منهمكين في تفكيك منضدة النجارة وبالكاد بادلاني التحية.

ـ وصلت في الوقت المناسب. همهم يوسف دون أن ينظر نحوي.

ألقت أمي بنفسها في حضني وهي تغمرني بالقبلات.

ـ هل عدت يا بني؟

ثم صبَّت سيلا من الأسئلة والأوامر:

ـ تبدو حالتك سيئة، هزلت كثيرا، هل أنت مريض؟ لا بد أنك جائع. هيا معي لقد أعددت سلطة الهندباء ويوجد خبز جيد.

طمأنتها قدر المستطاع، ثم سألت يوسف:

ـ ماذا يحدث؟

بقي يوسف صامتا، فقال يهوذا، أخي الأكثر تشددا، بسخرية:

ـ منذ متى كان يهمك ما يحدث للعائلة.

لم أنبس بكلمة وبقيت أنظر إلى أبي بإلحاح. عندما التفت نحوي أدركت ولأول مرة كم تغير شكله منذ غيابي الذي دام سنتين. انحفرت قسماته وتقوس ظهره والتهمت التجاعيد وجهه.

أتذكر أنه كان عمره يناهز الرابعة والسبعين.

ـ سنرحل. أعلن أبي. سنغادر الناصرة، لم يعد لعملنا هنا مستقبل. سنستقر في كفر نعوم.

قلت مستاء:

ـ كفرنعوم؟

ـ أجل، إنها مدينة صيادين والقوارب تحتاج إلى إصلاح. كما قيل لي إنهم يشيدون منازل ليس عن طيب خاطر يجمع رجل في مثل عمري حقائبه للرحيل إلى أمكنة أخرى. لم تعد لدي القوة للانحناء على منضدة النجارة كما أن أيامي أصبحت معدودة، وإذا كنت سأرحل فمن أجلكم.

أضاف وهو يلتفت:

ـ من أجل إخوتك.

التلميح لم يفتن إدراكه. ففي نظر يوسف وكذلك الباقين، فأنا الابن الضال.

في ذلك المساء، لم أستطع النوم.

ابن ضال؟

ما قلته ذات يوم لأبي، أصبحت أشد يقينا به: لا أنتمي إلى هذا العالم. ولدت يهوديا لكنني أيضا ابن الانسان. ما الانتماء الأفضل بالنسبة لي؟ هل لأنني طفل إسرائيلي، يجب أن أمضي حياتي محاربا من أجل حرية شعبي والسيف في يدي؟ أم أن ابن الانسان منذور لمصير آخر لا يهم الشعب اليهودي فقط، بل شعوب العالم بأسره؟ من أجل تغيير الأشياء، التحطيم من أجل البناء، لأن لا أحد يضيف قطعة ثوب جديدة إلى لباس قديم وإلا القديم سيذهب بالجديد. ولا نضع النبيذ الجديد في الجرار القديمة وإلا ستفيض الجرار والنبيذ يضيع. في المقابل إذا وضعنا النبيذ الجديد في جرار جديدة، فإننا نحافظ على النبيذ.

كان قلب ابن الانسان ينفق تحت ثقل الستمائة وثلاث عشرة وصية المكتوبة، وآلاف أخرى غير مكتوبة. وتحت عشرة آلاف من سفر التكوين، وسفر الاعداد، سفر الأحبار اللاويين، وسفر القضاة والملوك، وسفر الخروج. قلب ابن الانسان يستجدي ويستعطف. الرحمة الرحمة يا أدوناي! انظر كيف أنكشفُ وأمزقُ إلى أجزاء، أطلبُ الرحمة والحرية!

تغيير الأشياء. التحطيم من أجل البناء. نعم، لكن كيف؟ زد على ذلك من يأتيني هذا الكبرياء؟

كم من مرة ركعت، وصليت حتى أصبحت ركبتاي جراحا، وأعضائي عاجزة عن المشي راجيا الرب؟ عندما أنهض بجبهة خضلة مرهقا واضعا قلبي في حالة ترقب. هل سيجيبني إلوهيم، هل سأدرك ما أنتظره؟ لا، لا شيء، فقط الصمت وخرير فسقية في البعيد.

كانت كفر نعوم مختلفة عن ضياع الناصرة.

كانت القرية قليلة السكان، مع أنها تتمتع بموقع متميز نظرا لامتهانها الصيد والفلاحة والتجارة. كانت ايضا ملتقى لعدد كبير من المسافرين الذين يدخلون إلى قطاع هيرودس أنتيباس او يخرجون منه. وهذا ما يفسر تواجد حامية عسكرية ومركز جمركي مقام على الطريق الامبراطوري الكبير الذي يؤدي إلى سوريا. وهنا سألتقي ماتيوس ليفي جابي الضرائب.

كانت المساكن أقل تواضعا من تلك في الناصرة. أسقفها خفيفة مصنوعة من ألواح خشبية وطين مدكوك بالتبن، تغطي غرفا يتم الدخول إليها من خلال أدراج حجرية مشيدة من الخارج امام ردهات حيث تعد النساء الطعام، وهنا أيضا اعتاد الرجال النوم خلال فصل الصيف على فرش بسيطة، في الهواء الطلق.

من خلال منزلنا الجديد كان بإمكاني مشاهدة مياه البحيرة البراقة للجليل وذهاب وإياب مراكب الصيادين. وبسرعة أحسست بانتصار سكينة اعتقدت أني فقدتها.

مضت خمس سنوات. حاولت خلالها بذل مجهود للمساهمة في الأعمال التي كان يطلبها سكان المدينة.

لكن خلال شهر آذار نزل المصاب بيتنا. كنا نحتفل بالبوريم، العيد الأكثر فرحا في في تقويمنا السنوي لأنه يحتفي بشجاعة إخوتنا الذين كانوا مهددين بالابادة من طرف الفرس.

مع جيراننا تبادنا الطعام والعطايا ثم تناولنا حلوى التين التي أعدتها أمي،

كانت صحة أبي قد تدهورت منذ عدة أسابيع، لكن في ذلك المساء بدا اكثر انتعاشا بسبب أجواء المناسبة. كان ذلك مجرد وهم، فما كادت الحفلة تنتهي حتى انهار رأسه فوق المائدة.

مددناه على سريره منقطع النفس.

بجانبه، تداعيت بدوري على الأرض. غير قادر على النبس بأي كلمة. كنت أرغب أن أشد كفه، لكنني لم أستطع ذلك. كنت أرى بجلاء ملاك الموت يقف على عتبة الغرفة. كنت أراه وأنا أحدث نفسي أنه يكفيني أن أقف بينه وبين فريسته: سيعود على الوراء مدحورا. في المقابل كنت أحس أني مصعوق بشيء يمنعني. لم يكن الوجه الشنيع للموت من يعيقني هكذا، فالموت ليس سوى وسيلة للعبور. لا، لأنني كنت أصبحت جامدا بسبب رؤية الحياة وهي ترحل. تلك اللحظة التي تسلم فيها الروح إلى ربها. .

التفت يوسف فجأة صوبي وشخص بعينيه وكأنه يراني لأول مرة. كانت شفتاه تنطقان شيئا لا أحد يسمعه. قرأت: «بني».

أصبت بانفعال شديد، فإلى غاية تلك الساعة، كانت الرابطة التي تجمعني به ليست هي نفس الرابطة التي تجمعه بيعقوب ويهوذا والاخرين لأنني أحمل في أعماقي السر الرهيب. السر الذي باحت لي به أمي ذات ليلة ماطرة.

حدثت الواقعة[1] حينما بلغت السادسة عشرة من عمرها

تحول جسدها، وأصبح وزنه ثقيلا. في البداية قال يوسف إن مريم بدأت تصبح امرأة. كان مخطئا: فستصبح أُمّاً.

في الأيام الأولى من شهر أيلول، حينما كانت الشمس شديدة الحرارة فوق الجليل، ركعت مريم أمام يوسف معترفة بسرها:

ـ أنتظر مولودا.

---

(١) انظر الصفحة ٢٥٥.

ثم أضافت متلعثمة:

لكنني كما وجود الرب، فأنا مازلت عذراء.

تمنى يوسف الموت، خبط وجهه ثم ألقى بنفسه على الأرض نائحا:

- بأي وجه سألاقي ربي؟ وبأي صلاة سأصليها أمام الرب؟ من خانني؟

استعطفته:

- أنا طاهرة ولم يمسسني رجل.

لكن يوسف لم يكن يصغي إليها. لا يمكنها إلا أن تكذب كما يكذب الأطفال تلك الأكاذيب التي لا يصدقها أحد. ثم أخذ يكرر:

- من ارتكب هذه الجريمة تحت سقف بيتي؟ من اغتصب العذراء ولطخها؟ هل تكررت معي قصة آدم؟ فعندما كان آدم يؤدي صلاة الحمد للرب، تسلل الثعبان وفاجأ حواء وحدها، فأغراها ولطخ شرفها. وها أنا اليوم تصيبني نفس اللعنة!

أمسك أمي من كتفيها وهزها.

- لماذا دنست شرفك، أنت من ترعرعت داخل قدس الاقداس؟

لم تكن لديها غير إجابة واحدة:

- أنا طاهرة ولم يمسسني رجل.

لم تكن تكذب.

- إذاً من أين جاء ما في بطنك؟

- لا أعرف، لا أعرف من أين أتى!

وإذا كان ما قالته هو الحقيقة؟

ما العمل؟ تساءل يوسف. ماذا سأفعل بها؟ إذا تسترت على خطيئتها سأعارض ناموس الرب. وإذا اعترفت عليها لبني اسرائيل، فإنني ربما أسلم دما بريئا للإعدام. ما العمل؟

تمر الأسابيع والشهور مفعمة بالوجع.

بقي يوسف خلالها مسمرا لا يقوى على مواجهة نظرات الآخرين، متيقنا أن كل سكان الناصرة كانوا على علم بالفضيحة. وهكذا إلى أن جاء ذات يوم نساخ أرسله الكهنة. حدث هذا أياما قبل ولادتي، شاهد النساخ بطن أمي المنتفخ، فأدرك السر وفي الحال عاد مسرعا إلى أورشليم ليعلن للكاهن الكبير:

ـ يوسف ارتكب الخطيئة الكبرى، لقد أغوى الفتاة التي أوصاه عليها معبد الرب.

ولأنه رفض تصديق الأمر فقد أصر النساخ قائلاً:

ـ أرسل رجالك وسيرون أن الفتاة حبلى.

فقال الكاهن آمرا:

ـ أحضروا الاثنين.

وعندما وصل الرسول إلى الناصرة ألزم يوسف أن يذهب إلى المعبد فورا.

غضب يوسف غضبا شديدا:

ـ الفتاة ضعيفة والرحلة طويلة. كما أننا لن نعثر على مكان للمبيت خاصة وأن هذه فترة تدفق الزوار.

لم يكن يوسف كاذبا، فقد كنا على مقربة من عيد الفصح الكبير يعرف عدد المسافرين القادمين إلى أورشليم، لكن الرسول لم يرد سماع أي نوع من المبررات.

على ظهر الحمير عبروا المائة وثلاثين ميلا الفاصلة بين الناصرة ومدينة داود.

وبالفعل، فقد كان حدس يوسف في محله إذ لم يعثروا على مكان للمبيت، فاضطروا إلى المبيت في مستودع للحصيد.

بمجرد وصولهما إلى أورشليم التحقا فورا بالمعبد حيث الكهنة ينتظرانهما.

صاحوا محتجين:

ـ ماذا فعلت يا مريم؟ هل نسيت ربك؟ أنت من نشأ داخل قدس الأقداس؟ ماذا فعلت؟

لم يكن على لسانها غير الكلمات التي قالتها ليوسف:

ـ كما حقيقة وجود الرب، فأنا طاهرة بين يديه، لأنه لم يمسسني أي رجل.

عندها استدعى الكهنة يوسف، فسألوه:

ـ وأنت كيف تجرؤ على فعل كهذا؟

يرد يوسف محتجا:

ـ كما حقيقة وجود الرب، فأنا طاهر ولم أمسسها.

يهددون:

ـ لا تقدم شهادة مزيفة. نحن نريد الحقيقة.

ينفي يوسف بشدة.

بعد لحظات يأمر الكهنة:

ـ فلتأخذوا الفتاة إلى مولِّدة، هي من سيوضح لنا الأشياء.

وهذا فعلا ما حدث.

بعد ساعة جاءت المولدة إلى المعبد وفي يدها مريم. كان وجهها ممتقعا كمحتضرة. جسدها يرتعش بالكامل.

ـ وإذاً؟ سأل الكاهن الكبير بقلق.

ـ هذا سحر أو معجزة. الفتاة حبلى رغم أنها مازالت عذراء.

ـ هلا كررت ما قلتيه؟

ـ كما أراكم الآن، فالفتاة حبلى لكنها بكر.

المرأة ترتعش أكثر، فأكثر.

سلموها أجرها وصرفوها.

تعم بلبلة ومشاحنات بين الكهنة:

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا؟ هل من الممكن صب الماء في جرة مقفلة؟

بعد لحظات، أعلن الكاهن الكبير:

ـ ها قد سمعتم جميعكم تأكيدات المولدة. الفتاة حبلى. يوجد سر خفي ومن العبث أن نحاول تفسيره. لدينا مولود سيولد وليس له أب.

ثبَّت نظرته على يوسف وواصل:

ـ ستتزوج مريم.

يحتج يوسف:

ـ أنا رجل عجوز وهي فتاة صغيرة السن. أتريدونني أن أصبح أضحوكة بني إسرائيل.

ـ يا يوسف. يهدد الكاهن. إخشَ ربك وتذكر المصير الذي أعده الرب لداثان وأبيرام وقورح الذين خسف بهم الارض لأنهم كانوا من العصاة. والآن إخشَ نفس العقاب أن ينزل على بيتك.

هكذا اصبحت امي زوجة يوسف. أثناء عودتهما لم يتبادلا أدنى كلمة. كانت بطن مريم تلتهب بالاهانة أما يوسف فكانت تفترسه آلاف الأسئلة. أهي معجزة أم سحر؟ كما قالت المولدة. كلا ليس سحرا بل معجزة من الرب وإشارة.

بمجرد وصولهما إلى الناصرة، أخذ يوسف مريم بين ذراعيه وضمها إلى صدره قائلاً:

ـ أطلب منك المغفرة، لقد شككت في شرفك. لكن هذا لن يحدث أبدا. كلانا وضع في مواجهة مع شيء يتجاوز إدراكه. لن نتحدث عن هذا الأمر أبدا. كوني مطمئنة: ابنك، سيكون ابني.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت علاقتهما حميمية.

عندما اعترفت لي أمي بكل هذه الأشياء. أول سؤال أحرق شفاهي كان:

ـ لكن كيف حدث ما حدث؟ ومن هو؟

ترقرقت الدموع في عينيها وطأطأت رأسها.

ـ هل ستصدقني؟ قالت بصوت خافت. هل ستصدقني اذا قلت لك ان ما حدث مازال حتى اليوم يترجح بين الحلم والواقع؟ هل عشت ذلك فعلا؟ ما أعرفه فقط أني رأيت صورة رجل وليس طفلة مثلي. كان في السابعة عشرة تقريبا. بدا لي غريبا ويحمل ملامح ملاك. فجأة شدني من كفي ووضع شفتيه على باطنها، عندها ارتعشتُ. كان هزيلا جدا اكثر مما كنت عليه. قال لي إني جميلة. كان ذلك عذبا. تمددنا جنبا إلى جنب ثم مال بجسده فوقي حتى أحسست جذعه الأمرد فتهيأ لي أن الأرض تميد تحتي. بقينا طويلا هكذا منقادين بين فجر وغروب.

خفت حينما بغتة أومضت السماء، فانتزعت نفسي منه. انتشر الوميض اكثر فأكثر.

سويت تنورتي وركضت في اتجاه البيت. هطلت أمطار غزيرة ولم أره بعد ذلك.

بعد محاولة يائسة، قبضت كفي:

ـ يجب أن تصدقني. أنا طاهرة أمام الرب. لم أكن أعرف هذا الرجل. زد على ذلك فالمولدة أكدت عذريتي. يجب أن تصدقني.

ـ يا مريم أنا ابنك، فكيف لي أن لا أصدقك!

فيما بعد، وبعد مرور وقت طويل، وبفضل هذا الاعتراف، فهمت الطريقة التي كان البعض يستفسرني بها. «هل هذا هو النجار ابن مريم؟ »

من يهودية إلى السامرة، لا أحد أبدا ينادى بنسب أمه بل بنسب أبيه.

في ذلك اليوم الذي كنت أحاجج فيه في الهيكل، كانت تلك التلميحات الغادرة التي قالها الفريسيون في حقي «على الأقل فنحن لسنا أبناء غير شرعيين» لم أسأل أمي ولا بحثت عن معرفة اسم المراهق ذي الصورة الملائكية.

لم يعرف قلبي ولا عيني غير أب واحد هو يوسف.

ذهبت رفقة يعقوب لشراء الريحان والألوة والكفن بينما باشرت أمي وأخواتي طقوس «الطهارة» غسل الجثة. عندما عدنا لففنا أبانا بوشاح الصلاة ثم وضعناه في الكفن. كان أحدهم ينشد الكاديش.

تم الدفن في نفس يوم الوفاة. وعندما انتهت مراسم الجنازة عدنا الى البيت. أما الذين لمسوا الجثة فذهبوا إلى الحمام للتطهر. حسب العادات فالحداد يدوم ثلاثين يوما. كانت فيها الحلاقة وتلاوة التوراة والعمل والاغتسال وتبادل التحية وارتداء الملابس الجديدة محظورة.

الفصل السادس
الثاني من أيار ـ قيسارية: اقامة بيلات

يخطو بيلات ذهابا وإيابا داخل قاعة الاستقبال بإقامته.

بين لحظة وأخرى سيدخل هيرودس أنتيباس. قبل يومين أخبره الأدومي أنه سيشرفه أن يحظى بمقابلة الحاكم مؤكدا على أن القضية مستعجلة.

قضية مستعجلة لابد أن الأمر سيكون له علاقة مرة أخرى بمسألة الضرائب. فكر بيلات. الغبي العجوز يزداد جشعا. يريد بلا ريب أن يطالب بحصة أكبر من المداخيل.

كان تيبر قلقا فقد منح منذ فترة طويلة إقطاعييه مطلق الاستقلال في تدبير الأراضي الموضوعة تحت إدارته. طبعا مادام لا يتعارض ذلك مع السياسة الإمبراطورية. لحد الآن لابد من الاعتراف بأن الرجل قد حقق أرباحا من أعماله. ثعلب. لا يمكن أن نجد له غير هذه الصفة التي تنطبق تماما على شخصيته المشهورة بفن التوفيق بين الماء والنار. عندما كان يضرب النقود يحرس على أن لا ينقش عليها أي صورة لكائن حي حتى لا يثير حساسيات اليهود، وفي نفس الوقت يملأ حيطان قصره الشتوي في أريحا برسومات الحيوانات. ثعلب وبهلوان بقناعين.

لكي يجلب رضا الكهنة شارك في توسعة المعبد الذي شيده والده، وفي

المقابل كان يستغل الشعب في بلد مستنزف بالنفقات المجنونة لهيرودس الكبير. كان هذا التعامل يغذي مشاعر الرفض والتمرد لدى الشعب. ومازاد الطين بلة استفزاز أنتيباس للناس بألاعيب حميمية، فقد تزوج في أول الأمر بأميرة نبطية ابنة الملك الحارثة ثم بعد ذلك تزوج هيروداد المطلقة زوجة أخيه فيليب غير الشقيق. ففي نظر اليهود هذا قمة التجديف. وفي حالة أخرى شنيعة أمر رئيس جمع أن يعيد زوجته الأولى ويكتفي بها بينما القانون اليهودي لا يمنع الرجل من العيش مع عدة زوجات.

هيروداد يا لها من كائن! فاتنة لكن لديها طموح مهلك، فعاجلا أم آجلا ستأخذ هذه المرأة الحاكم إلى الخراب.

قرقعة الأسلحة والرماح وصوت الحاجب انتزعوا الحاكم من تأملاته.

يظهر هيروديس وهو برفقة شخص آخر. من هيأته البدينة وسرواله الفضفاض تعرَّف بيلات على خوزا متعهد النبطي ثم خلفهما تظهر فرقة من الحرس تقتفي أثرهما.

يتقدم الحاكم لاستقبالهما متخذا كامل وقته لملاحظة التفاصيل الدقيقة للأدومي بردائه الأبيض وحزامه المصنوع من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة. يضع في قدميه سويقيتين من جلد الضبع. ينظر بيلات خلسة إلى صندله ذي النعل السميك المسمر بشكل جيد، أقل أناقة لكنه أشد مقاومة. قال في نفسه.

أثار انتباهه أيضا التجاعيد المرسومة على وجه هيروديس. لم يتغير الرجل عن لقائهما السابق. مازال شعره طويلا وأسود، وسحنته زيتونية اللون، جلدة وجهه متهدلة ومتغضنة تمنحه سيماء العبوس.

ـ أهلا وسهلا. رحب بيلات محاولا أن يكون صادقا. هل كانت رحلتك جيدة؟

ـ مرهقة، الطريق طويلة من صفورية الى قيسارية. الذباب والحرارة وروائح الجمال كانت دائما عاملا معاكسا لراكب المحمل.

ـ هذا ما كنت أقوله دائما.

يشير هيروديس إلى مرافقه:

ـ تعرف خوزا، متعهدي، حرصت أن يرافقني لأنه طرف في القضية التي تهمنا.

حرك بيلات رأسه موافقا ودعا ضيفيه إلى الجلوس بجانب النافذة المطلة على البحر. تشكل المقاعد دائرة حول صينية من النحاس المنقوش حيث وضع إبريق وبعض الاكواب.

يجلس بيلات أولا متخذا لنفسه مقعدا معاكسا للضوء.

ـ عصير تمر هندي؟

يوافق الرجلان. يملأ لهما كوبين من الشراب ذي السمرة المذهبة. يمد الأول للأمير والثاني للمتعهد.

ـ ما رأيكما أن نتحدث عن سبب زيارتكما؟ رسالتك تشير إلى أمر مهم.

يشرب هيروديس كأسا من الشراب وهو مستغرق في التفكير.

ـ تتذكر الناصري الذي عارضك حول قتله غربان السنهدرين.

يقطب بيلات جبينه:

ـ منذ أيام تحدثت مع زوجتي حول هذا الموضوع. لماذا؟

عوض أن يجيب هيروديس يطلب من خوزا أخذ الكلمة:

ـ سيدي الحاكم. أشعر بحزن وأنا أعترف أن زوجتي جان أيضا تعتبر إحدى المعجبات بالناصري، بل إنها وقفت أمام الصليب حيث تم صلبه، بطبيعة الحال حاولت مرارا أن أردها إلى الصواب، لكن بلا نتيجة.

ينتظر بيلات صامتا ما سيلي:

ـ منذ أيام، يواصل خوزا، جاءتني زوجتي بخبر عجيب. كانت قد عادت من زيارة إحدى صويحباتها التي تدعى سلومي. . .

بمجرد أن نطق المتعهد اسم سلومي طافت ببال الحاكم أفكار عن سلومي إبنة هيروديس.

يضيف خوزا:

ـ اتفق أن سلومي هذه ليست سوى أم حواريين من أتباع الجليلي، اللذين يلقبان بالأخوين زبيدي، وحسب زعمها. . .

يأخذ خوزا نفسا عميقا قبل أن يوشوش:

ـ حسب زعمها، فيسوع قد انبعث من بين الموتى.

يهز بيلات كتفيه مستهزئا:

ـ مجرد ترهات.

ـ كيف؟ يتعجب هيروديس.

ـ نقل إلي رجالي مثل هذا الهذر. أتمنى أن لا تأخذ هذا الهراء مأخذ الجد.

يتملص هيروديس من الجواب.

ـ اسمح لخوزا أن يتمم حكيه.

ـ لم أمنع نفسي من أن أقول لزوجتي ما أعتقده حول هذا الهراء، غير أنها في اليوم التالي عادت مصحوبة بصديقتها. للتذكير فقط فزوجتي إذا سيطرت عليها فكرة لا أحد يمكنه أن يبعدها عنها. وبالتالي فقد أكدت لي سلومي أيضا ذلك. حسب زعمها فإن ابنيها يعقوب ويوحنا لم يرياه فقط، ولكنهما اقتسما معه وجبة طعام، وكان برفقته عشرات الأشخاص الذين شاركوا في الحدث وتم ذلك في بيت المدعو سمعان بكفر نعوم.

ـ خرافات.

ينحني خوزا في اتجاه الرجلين:

ـ ألا تريا إذاً ما يقع حولكما؟

هؤلاء الأشخاص...

ـ صبراً أرجوك. يعترض هيروديس. اترك متعهدي ينهي حكايته!

يواصل خوزا:

ـ كي أتغلب على شكوكي وأتيقن جيدا، أمرت رجلين من رجالي أن يذهبا إلى كفر نعوم لمراقبة هذا السمعان خلسة. وأول أمس لاحظا مجموعة صغيرة، تتكون من ستة صيادين تتجه صوب البحيرة. كانوا كلهم من أتباع الناصري. رجلاي اقتفيا أثرهم فرأوهم يستقلون قاربا، فبقيا يترصدانهم وعند الفجر استدار القارب عائدا إلى الضفة. عندما أصبح القارب قريبا جدا تمكنا من رؤيته.

ـ رؤية من؟

ـ الناصري.

خيل للحاكم أنه لم يسمع جيدا.

ـ كرر ما قلته.

ـ ظهر يسوع على ضفة البحيرة.

ـ هذا مستحيل!

ـ سيدي الحاكم. أثق في رجالي. ولا يمكن أن يخطئا أبدا.

ـ كيف عرفا أنه يسوع؟

ـ لأنهما سبق لهما أن شاهداه، هنا في قصرك ياسيدي.

ـ نعم سيدي. يؤكد هيروديس. تذكر أنك أرسلته إلي لأنظر في أمره. كنت أعتقد أنك لم تكن متأكدا من إدانته.

ـ نعم، حدث ذلك. غير أنني لم أكن مخيرا أمام كهنة المعبد الذين كانوا يملكون سلطة كبيرة على الدهماء. فضلا على ذلك أذكرك أن يسوع كان جليليا وبالتالي فهو تحت نفوذ سلطتك. على كل حال، فلنعد إلى قضيتنا. . . إذاً أكد لك رجلاك أن المعني هو يسوع.

ـ نعم، بالتأكيد.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ ويخ بعضَ الصيادين الذين عادوا بخفي حنين مقترحا عليهم أن يلقوا الشباك في الجانب الأيمن للقارب. وهذا ما فعلوه. بعد لحظات لم يتمكنا من رفع الشباك المليئة بالأسماك.

ومع وتيرة السرد، أخذت تقاسيم وجه بيلات تتوتر، وتتشمع.

ـ هل يمكنني الاستمرار؟ يسأل خوزا بقلق.

أومأ الحاكم برأسه موافقا:

ـ حينئذ صاح أحد الصيادين: «إنه السيد! إنه السيد! » وفورا ارتدى آخر ملابسه وألقى بنفسه في الماء مصابا بلا شك بالذعر. حاول رفاقه أن يعيدوه إلى القارب لكنه واصل السباحة إلى الضفة. وفي غضون ذلك أوقد الناصري النار وانتظر عودة الصيادين، وما نْ وصلوا حتى أمرهم أن يحضروا الشباك ثم دعاهم للطعام. جلسوا جميعهم شاخصين إليه ولا أحد نبس بكلمة واحدة.

وعند هذه المرحلة من السرد أخرج خوزا لفافة بردي من جيب سرواله.

ـ اسمح لي سيدي الحاكم، لكنني اضطررت إلى تدوين الأحداث التالية كما حملها إلي رجلاي.

يواصل بنبرة مرتلة تقريبا:

ـ وبعد أن تناولوا الطعام، استدعى الناصري الرجل الهمام، الذي ألقى بنفسه

في الماء ثم سأل أحد حوارييه: «يا سمعان بن جوناس هل تحبني أكثر مما يحبني هذا الرجل؟ » أجاب: «نعم سيدي، أنت تعلم أنني أحبك» عندها قال الناصري: «سدد ثمن الخرفان» ثم كرر السؤال: «يا سمعان بن جوناس، هل تحبني؟ » فتلقى نفس الجواب، فقال الناصري: «ادفع ثمن شياهي» ومرة أخرى سأله إن كان يحبه. آنذاك صاح المدعو سمعان: «سيدي، أنت تعلم كل شيء وتعرف أنني أحبك!» ـ «ادفع إذن ثمن شياهي» كرر الناصري. ثم أضاف: «الحقيقة أنك عندما كنت شابا كنت تقود نفسك بنفسك، فتذهب حيث تشاء. لكن عندما تصبح عجوزا، فستمد يدك ليقودك شخص آخر إلى حيث لا تشاء»

ها قد قلت كل شيء ياسيدي.

يطلب بيلات:

ـ أرني ورقة البردي.

يمتثل المتعهد.

ـ ماذا تعني الجملة الأخيرة؟ هذا يشبه الوصايا السرية.

ـ هكذا فكرت. يوافق هيروديس.

ـ هذا غير معقول... ! يريد أحد ما أن يخدعنا.

ـ لا يا سيدي كل ما سمعته يوافق الحقيقة. يجب أن نرضخ للأمر الواقع.

ـ الواقع؟

ـ يسوع حي، إنه حي والدليل أنه لم يمت أبدا.

تصاعد نفس الحاكم. تبادر إلى ذهنه مشهد يرى فيه جيدا الكاهنين وهما يحضران أمامه للمطالبة بنزع المذنب. حدث هذا بعد ثلاث ساعات من وضعه على الصليب. لقد مات ميتة نهائية وأكثر من هذا فقد عبر لهما عن دهشته من

هذه الميتة الخاطفة. لا. الجندي أيضا أكد له الوفاة. وإذا كان قد أغمي عليه فقط؟ في الحقيقة الأمر الأكثر بلبلة هو استعجال الكاهنين استلام جثة المعدوم. ولأي سبب عضوان من السنهدرين أحدهما كان مستشارا لكيفاس أن يهتما فجأة بعدوهما؟ هذه مؤامرة.

يجب أن يعترف أنه لغاية هذه اللحظة لم يسأل نفسه مثل هذا السؤال.

يحاول أن يتحكم في أعصابه معلنا:

حسنا، لنفترض أنه مازال حيا. ماذا سيتغير في الأمور؟

ـ ألا ترى إذاً الخطر الذي يمثله؟ الناصري ويوحنا قُدًّا من أديم واحد. هذا الأخير يلقبونه بالمعمداني. ملهم وهب حياته لإذكاء الحقد في صفوف الشعب ضدي وضد زوجتي. يتهمني بالفسوق مع زوجة أخي فليب. حتى وهو في سجنه استمر في الزعيق أن قصري منتن بالخطيئة والجور والفسوق والبهتان. ولولا إخراسي له لكانت البلاد في هذه الساعة بين النار والدم!

ـ وضربُ عنقِ شخصٍ يُعتبر الوسيلة الوحيدة الآمنة لإسكاته. يلاحظ بيلات بنبرة تأكيد كاذبة.

ـ لم أكن مخيرا لقد أجبرني على ذلك.

ـ قل إن السبب الأصح هي سلومي ابنة زوجتك.

يتنحنح خوزا خافضا عينيه المرتبكة. يململ هيروديس رأسه:

ـ لا دخل لابنة زوجتي في ما فعلته. ربما ساعدتني على اتخاذ قرار كنت أستبعده باستمرار لأني في الحقيقة لم أشأ موت المعمدان، والدليل على ذلك أنني اكتفيت فقط بحبسه في قلعة مكاريوس لكن حكمة سلومي تغلبت على ترددي.

يمنع بيلات ابتسامة:

حكمتها أم ردفاها؟ فتاة في السادسة عشرة تقريبا تتحرك امام نظرات عرابها

الشهوانية. هذه العفريتة سبق لها أن أشعلت نارا حقيقية خلال حفلة رقص واحدة. انتصر أسفل بطن انتيباس على عقله. فمجرد انتهاء حفل السربندة صاح هيروديس: «اطلبي ما تشائين وسأعطيك إياه حتى وإن كان نصف مملكتي»، وبإيعاز طبعا من والدتها قامت الطفلة الجميلة بتحديه قائلة: «أريد في الحال رأس المعمدان فوق طبق من فضة» فما كان على هيروديس إلا أن ينفذ الأمر.

ـ أيها الحاكم هل تسمعني؟

نداء الأدومي أعاد بيلات إلى أرض الواقع.

ـ نعم بالتأكيد. نعم بالتأكيد.

ـ صحيح الناصري من نفس طينة المعمدان، وقد عرفت ذلك من النظرة الأولى إليه عندما أحضروه إلى قصري، اعتقدت أني سأجد أمامي أحد الرسل المزيفين الذين غزوا مدننا. لكن وجدته مختلفا عنهم. كانت تنبعث من هذا الرجل قوة غريبة أعتقد أنها كفيلة بأن تزلزل أعظم أعلى الأسوار. سألته عن الهدف الذي يريده، فأجابني: «التمكين من قيام مملكة أبي» فاستفهمت منه: «هل تريد أن تطيح بي؟ » بقي صامتا، ألححت لكن بلا جدوى. ولم استطع بعد ذلك أن أنتزع منه كلمة واحدة. هل تلاحظ معي الآن الخطر؟

يقلل بيلات من الخطورة، وكأنه يحاول أن يقنع نفسه:

ـ إذا ما حدث تمرد، فإننا سنمحقه بسرعة.

ـ تنسى أحد التفاصيل: فحموي الحارثة لن يسامحني أبدا على الاهانة التي سببتها لابنته وينتظر الفرصة السانحة للانتقام. إنه هنا يربد في مدينته البتراء. إذا كنا صيدا للصراعات الداخلية، فسيكون قادرا على مساعدة المتمردين مساعدة قوية. «مهدوا طريق الرب» كان يعلن المعمدان. ولطالما تساءلت إن كان يقصد الطريق الممتدة بين أورشليم والبتراء.

ـ هل نسيت أنك تحت حماية روما؟

ـ هل تظن أن روما سترغب في أن تجد نفسها بين صراع يجابهها ليس فقط بالشعب بل أيضا بجيش أجنبي؟ كما يجب أن تضع في حسبانك أن يسوع إذا كان حيا ـ وكل المؤشرات تدل على ذلك ـ فإنه سيواصل حملته زارعا الفوضى. مع اختلاف أنه في هذه المرة لن يتحرك كمتمرد يخاطب الجماعات بل كبطل انتصر على الموت! فكر في التأثير الذي سيمارسه على المستمعين إليه. من سيجرؤ على وضع كلامه محل شك؟ من سيضع الحواجز أمامه؟ أنت؟ جيشي؟ حرس المعبد؟ كيفاس؟ حنان؟ لا أحد! ستكون نهاية العالم. . .

ثم يختم هيروديس بصوت حزين:

ـ ونهايتنا جميعا. . .

يرفع الحاكم الكوب الفارغ بانفعال، متلمسا بأصابعه خشونة نقوشه.

«مملكتي ليست في هذا العالم» أكد له يسوع ذات مرة. هل كان يكذب؟ يمتلك بيلات ما يكفي من التجارب التي تمكنه من كشف الصواب من الخطأ. كان يسوع صادقا. لكنه أيضا على وعي بالتقلبات القصوى التي تحدث للانسان أثناء مواجهته لدوار السلطة. لو كانت هناك فرصة واحدة لكي يكون هيروديس على صواب حينها ستكون القضية فعلا خطيرة وستسفر عن انقلابات جديدة. الاضطرابات سبق له أن حطمها في السابق. وكانت رغبته في فرض الهيمنة الرومانية سببا في اندلاع عدد كبير من المواجهات. لكن كيف يمكن القيام بسياسة وإدارة موضوعية بينما يجب ارضاء روما؟ قبل سنة ساورته فكرة مشؤومة ان يُدخِل الى اورشليم ليلا وخلسة تماثيل الامبراطور فانتهت بمأساة لا يستطيع نسيانها. كما أنه استعمل أموال خزينة المعبد لتمويل أشغال تشييد قناة

للمياه ونتج عن ذلك ثورة عارمة ولكي يقضي عليها أرسل جنوداً في زي مدني مؤكداً عليهم أن لا يستعملوا السيوف بل الهراوات فقط. لكن القضية انقلبت إلى ما هو أسوأ، فقد مات عدد كبير من اليهود بعضهم بفعل الضرب والبعض الآخر اندهسوا أثناء الهرب. اذا ما اندلعت ثورة أخرى فلن تغفر له لا تيبر ولا نائب الامبراطور في سوريا.

- حسنا ماذا تقترح؟

- أقترح أن نبذل قصارى جهودنا كي نعثر على الناصري قبل فوات الاوان.

- ليس سهلا بل مستحيلٌ. فلا يشبه يهودي غير اليهودي. ويمكن أن يكون في أي مكان. ربما هنا في قيصاريه أو في الجليل أو حتى في السامرة.

يحلق خوزا بعينيه بينما تستبد بهيردوس قهقهة:

- أنت تعيش هنا منذ أربع سنوات ومازلت لم تدرك بدقة مكونات هذا الشعب. لا يوجد يهودي يستحق هذه الصفة يمكنه أن يجد ملجأ لد ى السامريين!

- ما سبب ذلك؟

- لأنهم عرق غير نقي. حسب أحد الكتب المقدسة، كتاب الملوك يحكي أنه في الأزمنة البعيدة أغلب سكان مملكة السامرة تمَّ جلاؤهم إلى المملكة الآشورية كما أن أرضهم استوطنتها قبائل أجنبية التي أنتجت أجيالا مشبعة بالتأثيرات الوثنية. أضف إلى ذلك فالسامريون يعتبرون أن المكان المختار للرب لا يوجد على قمة جبل صهيون كما يشير سفر التثنية ولكن فوق قمة جبل جرزيم ليس بعيدا عن هنا. بل إنهم بنوا فيه معبدا لكي يسجلوا اختلافه مع معبد أورشليم. لا أيها الحاكم لا يوجد يهودي يمكنه أن يختبئ في السامرة.

لا يستمع بيلات إلى حديثه منذ مدة. تبدو له حكايات الكتاب المقدس، سفر التثنية، الجبل المختار من طرف الرب كلها مجرد سخافات.

يستمر هيرودس في الحديث:

ـ أخلص الى أن الأمر ليس سهلا لكننا لا يمكن أن نبقى مكتوفي الأيدي. سيكون ذلك خطأ جسيما.

يتنهد بيلات.

سأعطي الأوامر لكن بدون توهمات.

ينهض مشيرا إلى أن اللقاء يشرف على نهايته. هيروديس وخوزا يقلداه في حركته.

ـ عندما أفكر اننا من جديد سنواجه هذا المخادع. يلعن العاهل.

ـ يا صديقي كلنا مخادعون! في هذا العالم السفلي، ندَّعي جميعنا أننا شيءٌ بينما الحقيقة أننا عكسه.

أنت مخطئ أنا لم أعتبر نفسي كما تقول.

يحاول الحاكم أن يتحكم في نفسه كي تبقى الكلمات التالية حبيسة حنجرته.

ـ هيروديس ليس مخادعا؟ لو أن هيروديس الأكبر لم يلق الدعم من طرف أنطوان وأوكتاف اللذين أعلناه ملكا على يهودية أمام مجلس الشيوخ، كما أنه لولا دعم الجيش الذي حطم البارثيين الذين احتلوا مدينة الجليل لن يكون اليوم على ما هو عليه. أضف إلى ذلك فقد كاد ينحى من طرف أبيه الذي غيَّر وصيته عدة مرات.

يطمئنه بيلات بابتسامة.

ـ أنت استثناء.

وما إن وجد نفسه وحيدا حتى التفت الحاكم صوب النافذة مركزا رؤيته على المياه الزرقاء الممتدة إلى نهاية البصر.

قناع. يقول في نفسه، هذه السكينة ليست غير قناع. يسوع حي لسبب بسيط إنه لم يمت أبدا.

يحوِّل نظره صوب المدينة، يلحظ شبحا خفيا يمتد على طول حيطان المسرح المدرج. قد يكون الناصري؟

«هل مات فعلا؟»

تذكره للسؤال يصفعه بقوة. هل خدعوني حقا؟

يستدير بسرعة صارخا بأعلى صوته:

ـ مارسيليوس!

يظهر السنتيريون في الحال فوق عتبة الباب كما لو أنه طوال كل هذه المدة كان يترقب هذا النداء.

ـ نعم سيدي الحاكم.

ـ أريدك ان تذهب في الحال الى أورشليم مصحوبا بفرقة عسكرية. لتحضر لي يوسف الرامي ونيقوديموس مكتوفي الأيدي والأرجل إذا اقتضى الأمر ذلك.

الفصل السابع
في مكان ما من يهودية في نفس اليوم

يمرر يسوع كفه على جبهته المحمومة. تمور العاصفة في أعماقه. سيسيطر قريبا على زمام روحه. إذن ماذا حدث له؟ لم يسمع غير العاصفة، فقد صنع ذات يوم من أيام تيفيت سوطا وهاجم الباعة الذين لوثوا منزل أبيه، مطيحا بالمناضد، دافعا الصرافين، مشتتا النعاج والخرفان، ضاربا الأقفاص حيث يهدل الحمام، محمولا بغضبه يلكم أحد تجار البخور على صدره ملقيا إياه على ظهر بلا نفس. صراخ وشتائم وإهانات تتصاعد من كل الجنبات مصحوبة برنين أساور النساء.

على مبعدة خطوات كان النساخون والكهان الغارقون في أرديتهم الجنائزية كتماثيل لا تنبس بكلمة واحدة يراقبون المشهد.

في هذه اللحظة بالذات أدرك أنه أشعل كراهية رجال الدين اتجاهه، كراهية قاسية ستلاحقه إلى آخر يوم في حياته.

منذ ذلك اليوم فصاعدا أضحت أيامه معدودة.

كان قد هاجم قدس الأقداس، ليس الذي يوجد داخل الهيكل خلف الستارة المزدوجة التي بلا ضوء، ولكنه هاجم الروح الفظة للديانات. كانت مكاسبهم تأتيهم من الهيكل فلا يمكن أن تتم أي معاملة دون أن يحصلوا على ضريبة

عنها. وأي عملة نقدية تتبادل بين طرفين إلا ولهم قسط مهم منها. وأي خروف وأي نعجة وأي نقطة دم تسيل إلا وهي مصدر انتفاع.

ليس الكهنة وحدهم من يستفيد من الهيكل، هناك أيضا أصحاب الخانات الذين يؤوون الزوار في عيد «الفصح». باعة الأضاحي. الدباغون الذين يصنعون جلود الخرفان وكذلك الصرافون بطبيعة الحال وتجار البخور وعشرات آخرون من المستفيدين.

وإذا ما حدث واختفى عالم المال هذا بسببه أي يسوع فإن الكهنة والتجار ليس أمامهم غير التسول أو البحث عن مصادر أخرى. أجل ففي ذلك اليوم أدرك المصير المشؤوم الذي ينتظره. لو أنه شتم أمهاتهم وعائلاتهم ونعتهم بالكلاب، فإنهم سيكتفون بتحريك رؤوسهم واعتباره مجنونا. لكن أن يهددهم بالبؤس، فهنا حفر لنفسه قبرا واقترف ما لا يمكن إصلاحه.

ومع أنه لم يستعمل لحسابه الشخصي غير اللغة الملفوظة قبله من طرف الرسول أشعيا: «ماذا سأفعل بقرابينكم الكثيرة؟ لقد شبعت من محرقات الثيران وشحوم الأبقار. روحي تلعن أقماركم الجديدة وأعيادكم. لم أعد أتحملها حتى عندما تضاعفون صلواتكم، فأنا لا أصغي إليها لأن أياديكم ملطخة بالدماء.»

واجه يسوع الكهنة متحديا إياهم قائلا: «حطموا هذا الهيكل لأني سأقتلعه خلال ثلاثة أيام» هاج الحشد: «استغرق بناؤه ستة وأربعين عاما وأنت تريد أن تقتلعه في ثلاثة أيام؟»

كيف يمكنه ان يعرف ما كان يعرفه دائما؟

هذا الهيكل كما السابق سيهدم خلال ثلاثة أيام، أو ثلاث سنوات، أو ثلاثة آلاف سنة، كان يسوع يعلم ذلك. إن هيكل الرب هو الانسان وليس حيطان

الحجارة. ولأنه أيضا كان يعلم أنه بعد ثلاثة أيام سيقدَّم للموت ويشيد هيكل جسده المنبعث من جديد.

يجلس يسوع إلى الطاولة مستعيدا القراءة:

حسب الأعراف، تستغرق فترة الحداد ثلاثين يوما. تمنع خلالها الحلاقة، دراسة التوراة، العمل، الاستحمام، تبادل التحية أو ارتداء ألبسة جديدة.

يغمس رأس القصبة في المحبرة، ثم تستأنف يده ركضها فوق ورقة البردي.

ثلاثون يوما يليها ثلاثون شهرا، فستون، ثم مائة وعشرون. لم أكن خلال هذا الزمن سوى نجار يؤدي دور الأخ الاكبر بتفان ودور الابن بورع.

كان أبي قد مات وأهلي أصبحوا يحتاجون إلى مساعدتي. كما أن الصوت الذي كان يسكن رأسي انخرس أو أني لم أعد أصغي إليه.

خلال هذه السنوات، كنت شاهداً بالتعاقب على زفاف أختيّ ليزيبيا وليديا وثلاثة من إخوتي، خوسيه وسمعان ويهوذا. خلال زفاف ليديا رأيت إليورا لأول مرة، واسمها يعني «يهوه المستنير» كانت في الثامنة عشرة من العمر، أنف محدب، حاجبان مقوسان، وجه بيضوي الشكل. كان كل ما فيها ينشر النعومة والجمال. أمي أيضا لاحظتها. فقرأت في نظراتها رجاء فوريا بأن الفتاة تناسبني للزواج. كنت في الثلاثين ومع ذلك لم أتزوج بعدا على غرار المتدينين الذين يعتبرون الزواج هبة من الخالق للبشرية.

كانت تعتبر عزوبيتي مصدر دهشة وعاملا إضافيا لعزلتي عن عشيرتي. لأن موسى قال: «كل يهودي تقي لا بد له من الزواج» وكذلك كان يقول معلمي هليل.

بعض الناس يتهيأ لهم ان امتناعي عن الزواج مرده إلى الأيام التي قضيتها رفقة نساك البحر الميت. بالفعل، فإذا كان الاسينيون لا يدينون الزواج لانهم

يعتبرونه ضرورياً للتناسل، فإنهم مع ذلك ينظرون اليه نظرة اشمئزاز. وكان آخرون يشيعون بحقد أن لدي ميولات نحو الحب الافلاطوني، وبعض آخر يقولون إني أشبع رغباتي خلسة رفقة مرتكبات الخطيئة. هؤلاء وأولئك كلهم مخطئون، فالحقيقة اني عشت ليالي كان فيها دمي يغلي، ليالي قمرية وفي فصل الربيع في أغلب الأحيان عندما تزهر الأرض وتعود الحقول إلى الحياة وتتعطر السماء، وعرفت الدوار حينما كنت أصادف في أزقة الناصرة أو كفر نعوم فتيات حافيات قادمات نحوي. لا. كانت عزوبيتي مفروضة علي. فإذا كانت النار تخترق دمائي، فإن الماء يدفق فيها أيضا. ليس ماء هادئا بل سيلٌ يتدفق بغزارة نابعة منه كلمات مرغية. ودائما نفس الكلمات.

يا ولدي يشوع. أنت لن تستطيع أن تحب أو أن تحب من طرف شخص واحد. أنت هنا كي تحب الناس جميعا. أنت خلقت كي تبعث في الكون لتقبيل النجوم والاحتراق في حضنها. أنت الانسان الوحيد والأشد وحدة. افتح ذراعيك واحتضن الأرض، وامزج الطمي القديم واقتلع الليل من وريده وأعد لأبناء آدم الأمل المفقود. وإذا لم تكن هناك حياة بعد الموت، فالحياة لن توجد أصلا. امنحهم المرتجى الضائع.

في ذلك الحين كنت أذهب إلى الكنيس بعدما أجمع أجزاء طاولة أو نافذة. وأذهب أيضا يوم السبت لقراءة البراتشا الأسبوعية ومن أحد الأقسام الأربعة والخمسين التي تتألف منها التوراة، أو أحيانا التعليق على ما جاء فيها. وكنت على إثر ذلك أثير امتعاضاً ودمدمةً معارضةً لكثرة براهيني التي لا تتوافق مع أفكار رجال الناموس. وعشية بلوغي الثالثة والثلاثين تلوت مقطعا طويلا من كتاب أشعيا إلى حدود الآية ٦١: «روح الرب تحوم حولي لأنه خصني بسيماء المرضى ولكي أجلب الخبر السعيد للفقراء. أرسلني لأمنح المأسورين

الانعتاق وللعميان البصر. مبعوث بالحرية للمضطهدين، مناديا للرب بسنَّة للغفران»

عند هذا الحد كنت أقف على حائق الأمور. أرجع اللفافة إلى المكلف بالقداس وأعود إلى مكاني تحت نظرات المصلين المندهشين من توقفي المفاجئ عن القراءة، بالتأكيد كان بإمكاني مواصلة التلاوة غير أن الصوت الذي انكتم منذ مدة طويلة عاد من جديد. فتتمة الآية تقول: «لكي ننشر غفراناً للأزلي ويوما للانتقام» بينما أنا أرفض بداهة أن أتخيل لأي سبب كيفما كان صورة رب منتقم. وأمام وجوههم المضطربة نهضت وأعلنت بصوت صارم «اعلموا أن بسماعكم لهذا المقطع يكون ما هو مكتوب قد انتهى»

وفي صمت مصم انسحبت من الكنيس.

لم قلت هذه الكلمات؟ من أين أوتيتها؟

في ذلك اليوم وبعدما غادرت الكنيس لم أعد إلى البيت. بل سرت مباشرة إلى الأمام مخترقا كفرنعوم ملتجئا إلى ضفة البحيرة. هناك جلست على الرمل. كان الهواء منحبسا وفي البعيد تومض الفوانيس المعلقة فوق سواري قوارب الصيادين.

بقيت أرقبهم مأخوذا بصمت الماء وأوراق الشجر. في هذه اللحظة تهيأ لي سماع صوت صاعد مع الغروب. كان عبارة عن صراخ عميق وأصم. ليس صوتا واحدا بل آلاف الأصوات التي تصرخ يأسها. آه يا يهوه، آه يا أدوناي ماذا تنتظر لنجدتنا؟ إبنة صهيون فقدت كل أمجادها؟ أيها الأزلي انظر إلى شقائي! بم سأقارنك يا ابنة اورشليم؟ وهل يمكن العثور على مثيل لك؟ وما هو العزاء الذي سأقدمه لك، أيتها العذراء يا ابنة صهيون؟ ولأن جرحك كان دائما جرحا أعمق من البحر، أنبياؤك منحوك رؤى بلا جدوى ومزيفة، وأعطوك وحيا كاذبا ومضللا.

أشد رأسي بين كتفيَّ مندهشا من الدموع المترقرقة على خدي. قضيت تلك الليلة وعيني مشدودتان إلى السماء.

عند البشائر الأولى للفجر، ظهر قطيع ماعز يثغو متدحرجا على الحافة. هناك أيضا قارب يرسو وأربعة صيادين ينزلون متحدثين بصوت عال، يجرُّون الشباك ثم يوقدون النار. رائحة هلوق البحر وهي تشوى تهيمن على الهواء.

نهضت مستعدا للانصراف حينما شد انتباهي سؤال. هل كان من وحي خيالي أم أن أحد الصيادين نطق اسم يوحنا؟ أصغيت جيدا فسمعت اصغرهم سنا يقول:

ـ يجب أن تصدقوني لقد رأيناه أنا وابن زبدي. عندما كنا في بيت عنيا. كان يمارس شعيرة التعميد بالماء في النهر على مسافة يوم من قمران. كان يتبعه حشد كبير أتى من جميع انحاء يهودية وحتى من اورشليم.

ـ بالفعل، رد الذي يجلس قبالته بوجهه الصلب والعريض. هل تعتقد ان يوحنا هذا المرتدي لجلد الحيوان المتغذي على الجراد والعسل البري يمكنه ان يكون النبي Elie العائد بيننا؟ يا أخي أندريه حذرتك دائما أن تحتاط من ضربات الشمس لأن رأسك غض.

يستعين المدعو اندريه بشخص مرافق لهم كشاهد آخر:

ـ انت يا يوحنا قل له ما شاهدته!

ـ أخوك على صواب. يوحنا المعمدان رسول من الرب. وما عليك إلا أن تسمع كلامه حتى تصدقه. وإذا كان هذا سيطمئنك يا سمعان فاعلم أنه لم يعلن أبدا أنه Elie.

يهز سمعان رأسه وكتفيه:

ـ هل شخص ما طرح عليه نفس السؤال؟

ـ بالتأكيد، فعندما كان هناك سأله الكهنة والنساخون إن هو حقا الرسول Elie فاجاب بالنفي: «هل أنت المخلص؟ فنفى ذلك. وآخرون ألحوا: «من أنت لكي نخبر من أرسلونا. ماذا تقول عن نفسك؟» فأجاب أمام دهشة الجميع: «انا صوت مناد في الصحراء مطالبا: «مهدوا الطريق لأدوناي»

شخص رابع كان لحد الان صامتا، علّق قائلا:

ـ رد غريب. ماذا يقصد؟

ـ لا أدري هناك ما هو أغرب. عندما ألقى الكهنة باللوم عليه قائلين: «لِمَ تعمد نفسك، مادمت لست المخلص ولا Elie؟ » عندها هاجمهم يوحنا بشراسة وقبضته مرفوعة صارخا في وجوههم: «يا عرق الأفاعي، من علمكم الهروب من الغضب القادم؟ كفوا عن القول إن أباكم ابراهيم! لأني أعلن لكم أن الرب قادر أن يخلق من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم».

صرخ المدعو سمحون:

ـ من هذه الحجارة يمكن للرب أن يخلق أطفالا لإبراهيم؟ هل تدرك جسامة هذه العبارة؟

هذا يعني أنه ابتداءً من غد يمكن للأزلي ان يضم الجنتليز إليه ونحن ـ الشعب اليهودي ـ لن نعود الوحيدين الشعب المختار ليهوه. جلود الحيوان التي يرتديها ناسكك قد لحست عقله!

يتناول هلوقا بحريا بانفعال ويلتهمه بقشرته.

ـ ليس هذا كل شيء، يواصل أندريه ابن زبدي. لقد أضاف أيضا: «بين ظهرانيكم سيظهر شخص لا تعرفونه، سيأتي بعدي ولست أهلا حتى لأن أفك حزام نعليه!»

يهمهم سمعان بشيء مبهم.

ـ لقد صنع أيضا عدة معجزات. يضيف ابن زبدي. أعاد البصر للعميان، وطرد الأرواح الشريرة. غدا سنذهب إلى بيت عنيا، رافقنا وسترى بنفسك، كيف يدهش المعمدان الجمهور.

ـ يا ابن زبدي لا غدا ولا بعد غد، لا حاجة لي بالانبياء، فمنذ زمان ارتدُّوا عن اسرائيل، أما الاخرون. . . نسمعهم يعلنون أن النهار قادم حينما المخلص الموعود من طرف إلوهيم سينهي جميع أشكال الظلم والكفر. الكفر! أنظروا حولكم، ماذا ترون؟ مسارح لعرض مسرحيات يونانية فاحشة وتراجيديات تحتفل بانتصارات آلهة وثنية! تماثيل مشيدة لتخليد أمجاد اليونان والرومان. كهان طفيليون وانتهازيون. ماذا سيفعل هؤلاء المبعوثون من طرف الآلهة المزعومة؟ لا شيء. يبشرون بنهاية هذا الزمان. هذا إذا لم يعوا أنهم المخلص نفسه.

يحرك رأسه بحسم.

ـ احتفظ بيوحناك لنفسك لكن أبعده عن طريقي.

ابتعدت عنهم مضطربا. .

هكذا فقد غادر يوحنا مغارته في البحر الميت. لماذا؟ ماذا حدث لكي يترك الأسينيين بعدما كان مقتنعا بتعاليمهم؟

يوحنا يعمد. . . ويطهر بواسطة الماء كنساك قمران، فسكانها كان يطلق عليهم: «مستحمو الصباح» وكباقي أشخاص آخرين. كتابنا المقدس يوصي دائما بالاغتسال لتطهير الأشخاص أو الأشياء المدنسة. ما هو شكل التطهير الذي يقترحه يوحنا؟ وفجأة تذكرت كلماته: «أنا صوت مناد في الصحراء: مهدوا الطرق لأدوناي»

عدت إلى كفرنعوم تضطرم في عقلي الأفكار.

وجدت البيت فارغا، فمنذ زواج إخوتي، لم يعودوا للعيش في البيت. بقي يعقوب وحده رفقة أمي. لكن لا أحد منهما كان بالبيت.

خرجت قلقا أناديهما، فأجابني صوت امرأة، كانت جارتنا ميرا؟.

ـ أنت قد عدت أخيرا، يا يسوع.

ـ أين تظنين قد ذهبا؟

بدا من صوتها أنها تلومني:

ـ لقد ذهبا للبحث عنك. كانت مريم قلقة جدا، انتظرتك طوال الليل. كانت. . .

لم أعد أسمع صوتها، هرولت طائفا المدينة. عندما وصلت إلى الكنيس رأيتها جالسة على الدرج رأسها ملفوف في خمار بنفسجي رديء. كانت تشبه امرأة متخلى عنها.

ركعت أمامها وأردت أن أشد كفيها، لكنها تملصت وسألت:

ـ Ebni ،Ebni، كم من الوقت ستحول حياتي إلى قلق دائم؟ تعض حاشية خمارها ثم تجهش بالبكاء.

هل ستسعفني الكلمات؟ همهمات المارة تستنكر من حولنا. تتدارك امي نفسها:

ـ حملتك في احشائي مدة طويلة. فمتى ستنفصل عنها؟ بالأمس كانت بطني منتفخة وكنت ترقد في الدفء، حينما هامسني صوت: «كوني سعيدة يا مريم، أنت مباركة دون باقي النساء، فما تحملينه في بطنك مبارك أيضا».

لكنك يا بني لم تولد بعد.

كنت أتفحصها دون أن أفهم كلمة مما تقوله. ثم واصلت:

ـ ألم تحن الساعة لتختار؟ أنت لست واحدا يا بني، أنت مائة، ألف. وهذا

يفوق طاقة بطن أم. لم لا تذهب؟ ما الذي يمنعك؟ الا ترى أن حياتك كلها رؤيا؟ متى ستحولها إلى حقيقة؟

همهمت:

ـ ترغبين إذن أن أرحل؟

ـ نعم، غيابك سيؤلمني اقل من حضورك المتردد. خلال كل هذه السنين وعند كل خروج لك من البيت كان ألم القلق الحاد يفترسني. هل سيعود؟ لم سريره خال؟ حينئذ نجلس مترقبين صوت خطواتك المعتادة، ولا أحد. عندما غادرتنا إلى قمران كنت مرتاحة لأني كنت أعرف أنك في مكان بعيد وكنا نعيش على أمل عودة المسافر دون هواجس. انت دائما على أهبة الرحيل، فارحل يا بني. حلّق وافعل ما يجب عليك فعله.

تحبس نحيبها قبل أن تتابع:

ـ أو ابق هنا وبلا أسف وبشكل نهائي.

وضعت رأسي بين ركبتيها، فأحاطتني بحضنها، فسمعت صوتها هامسا:

ـ آه يارب. آه يا رب إسرائيل. لم انا؟ لماذا أنا بالذات؟

قيسارية. إقامة بيلات في الرابع من شهر أيار

يراقب نيقوديموس ويوسف الأريماتي بيلات بدقة وفي نفس الآن يتساءلان إن كانا سيعيشان كابوسا جديدا. منذ وقت والحاكم يقطع القاعة ذهابا وإيابا. يرغي ويزبد ويشتم ويداه متشابكتان خلف ظهره. يتوقف أخيرا تاركا جسده يسقط ككتلة واحدة على المقعد العاجي.

ـ انتظر تفسيركما؟

قبل أن يرد نيقديموس يبتلع نفسا قويا:

ـ سيدي الحاكم، رغم التقدير الكبير الذي أكنه لممثل روما. اسمح لي أن

أقول إن هذه الاتهامات ليس فقط لا اساس لها من الصحة بل انها تمس بنزاهتنا في العمل.

صرامة النبرة التي تحدث بها نيقديموس فاجأته بدوره.

- احترس يا نيقديموس! كفى احتيالاً لقد اعترفت بالوقائع ولا يمكنك أن تنكر. هل تتذكر تلك الجمعة حينما أتيت لتطالبني بجثة الناصري؟ أنت شخصيا من أنزله الصليب. وأنت أيضا من وضعه في قبره المعد له سلفا. وأنت كذلك من وضع ميليشيات الهيكل لتحرسه.

- بالفعل. يرد نيقديموس. هذا صحيح. بالنسبة لنا كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لكي نسيطر على الوضع ونتأكد من أن لا أحد يمكنه سرقة جثته.

- ومع ذلك، فبعد ثلاثة أيام اختفت الجثة، وانبعث الناصري حيا مثلي ومثلك. فإذن؟

يرد الكاهن بلا تردد:

- بطبيعة الحال، فمريدوه من سرق الجثة لكي يوهموا الناس أن. . .

- هل أنت أطرش؟ يقول بيلات بشدة. لا يتعلق الأمر بمريديه بل برجال التيتراك. هل تعتقد أني ساذج إلى درجة ألا أفكر تلقائيا في أنها مؤامرة؟ الأمر لا يتعلق بمريديه بل برجال هيروديس الذين أكدوا لي الخبر اليقين، لقد شاهدوه على ضفة الناصرة وسمعوه ايضا يتحدث.

يتحكم الروماني في نفسه:

- لست غرا. لقد اكتشفت مؤامرتكم، فباستغلالكم للناصري تأملون ان تزعزعوا الوجود الروماني في هذا البلد. اعلموا أن تآمركم آل إلى الفشل. سأحطم وسيلتكم.

نظر شزرا إلى الكاهن وصاح:

- أين هو؟ تكلم!

ابيضّ وجهاهما مثل الثلج. ويقيا صامتين. ليس الاتهام ما يرعبهما لكن حكاية الانبعاث التي أتى بها رجال التيتراك. بعد ثلاثة أيام من نزع يسوع من الصليب سمعوا بارتياح كبير أن المخلصين للناصري بدؤوا يشاهدونه هنا وهناك. ومن هنا استنتجوا أن مخططهم بدأ ينجح. لكن ماذا يحدث الآن؟ فلا يمكن أن ننعت جواسيس هيروديس بالحمية ليسوع. وإذن بأي سحر استطاع أن يتواجد في مكانين في نفس الوقت؟ بالتأكيد فالرجل يدّعي السحر وأكثر مهارة من منجم دوسيتيوس او سمعان المبشر في السامرة القادر على تحويل الماء إلى نبيذ أو السير فوق الماء. لكن رغم كل شيء...

ينفذ صبر بيلات:

ـ إذن؟ هذا جوابكما.

يقرر يوسف الرامي أن يتدخل:

ـ سيدي الحاكم. أنت حر أن تصدقنا أم لا. فلا دخل لنا بهذه القضية، ولا بد أن الأمر يتعلق بمؤامرة.

ـ لنفترض أن لا علاقة لكما بالأمر، فكيف تفسران أن جنودكم ينكرون رؤية أي شيء. وهذا ما تدعيانه أيضا. في حين أنه لا يمكن أن يسرق أحد جثة في حضورهم. أليس كذلك؟

وهذا لا يمكن تصديقه. المؤامرة إذن من تدبيركما.

ـ أبداً، أبداً فكّر لحظة أرجوك. ما هي الدوافع التي ستدفعنا إلى إنقاذ حياة يسوع في حين كنا دائما نطالب بموته!! هل نسيت أنه كان عدونا؟ العدو الملعون للسنهدرين. كان يعتدي على مؤسستنا ويثير الفضائح في كل مكان مهددا سلطتنا. كيف يمكنك أن تتصور أننا نريد الاحتفاظ به حيا؟ ألا ترى أن هذا غير منطقي؟

ـ ليس بالقدر الذي يبدو عليه، فبجعلكما له مبعثاً فأنتما ترفعانه إلى درجة القدسية. ومن بمقدوره أن يقاوم نداء الرب؟ فبإشارة منه كل الشعب سينتفض ضد من؟ ضد أي سلطة؟ ليست سلطتكما طبعا. لا لا! ضد السلطة الحقيقية التي هي سلطة روما.

يتبادل الكاهنان نظرات مختلسة. استدلالات الحاكم صائبة، وإذا لم يتمكنا من التصدي لها، فإن حياتهما لن تساوي روث جمل.

يحك يوسف حنجرته.

ـ سيدي الحاكم. هل تتذكر العبارات التي قالها الناصري ضدنا؟

ـ نعم.

ـ ألا ترى أن الرجل يبحث عن تدميرنا؟ هل يجب أن أذكرك بالتجديف الذي قاله في حقنا؟

ـ إلى ماذا تريد أن تصل؟

متملصا من الاجابة، يحصي يوسف:

مراؤون، بغاة، مرشدون عميان، ماكرون، سلالة الأفاعي، قتلة الانبياء، أضرحة بيضاء مليئة بعظام الموتى والقذارة، رجال قدوا من النهب والأذى.

يرفع بيلات يده الامبراطورية:

ـ هذا يكفي!

ـ هل يمكنك أن تتصور، أيها الحاكم، أن هذا الشخص الذي يكرهنا إلى هذا الحد يمكنه أن يشترك أو يشارك في مؤامرة كيفما كانت؟ هل يمكنك أن تفكر في أننا نحن أعضاء السنهدرين يمكننا أن نتعاون مع شخص لا يفكر سوى في تحطيمنا؟ ينبغي أن تفهم أن طرقنا وأهدافنا تختلف معه. هل يمكن أن يصبح الذئب صديق الخروف؟

ظهر بعض التغير في ملامح بيلات وكأن أدلة الكاهن قد أثرت فيه. يسند يديه إلى المقعد العاجي متهيئا للوقوف.

ـ لنسلم بما تقوله. لكن أدلتكما لا تفسر ظهور الناصري من جديد.

يؤكد قائلا:

ـ لقد رأوه رؤية مؤكدة.

يرفع الكاهنان معا أيديهما إلى السماء تعبيرا عن عجزهما.

ـ لا نملك اجابة، أيها الحاكم، هذا أمر غريب.

ثم يضيف نيقوديموس:

ـ أو أن شخصا آخر من قام بهذه العملية الجهنمية.

ـ ماذا تقصد؟

يخيم الصمت، ينسدل قناع على تقاسيم وجه بيلات المنقبضة.

الفصل الثامن
نفس اليوم، في مكان ما من يهودية

استأنفت الريشة ركضها فوق ورق البردي.

أخذتُ الطريق إلى يهودية عند الشعاع الأول للنهار. سرت بجانب النهر، وليس بعيدا عن أريحا رأيت يوحنا.

كان يقف داخل المياه، بين القصب، مغمور القامة، يرتدي لباسا من جلد الجمل، أشعث الرأس واللحية، عيناه مشعتين، يمكن القول إنه في حالة انبعاث جديد.

على الضفة حشد غفير يراقبه. وقفت بعيدا.

كان يصرخ: منذ الآن بدأ الفأس يضرب جذور الشجر: كل الأشجار التي لا تؤتي ثمارا طيبة فستقطع وتلقى في النار. اقتربت منه امرأة تستعطفه:

ـ إذاً ما العمل؟

ـ من يملك قميصين فليمنح واحدا للذي لا يملك شيئا، ومن يملك طعاما فليفعل المثل.

يقترب منه جابيا ضرائب ويسألانه نفس السؤال:

ـ لا تأمر بأي شيء يفوق ما أنت مأمور به.

ثم جاء دور بعض الجنود ليسألوا بدورهم:

ـ لا ترتكب ابتزازا ولا تزويرا اتجاه أي أحد واكتف بنفسك.

لم يكن يوحنا يتكلم بل كان يزمجر. لم يكن يعمّد بل كان يفرغ النهر والصحراء والسماء.

عندما انصبغت قبة السماء باللون البنفسجي والقرمزي قررت أن أتقدم نحوه.

أخذ الحشد يتفرق أثناء مروري.

سرب من الخطاطيف يزرد الأفق أمامي.

دخلت الماء. تفحصني يوحنا دون أن يتذكرني، أو أنه اعتقدني شخصا آخر.

سرب آخر من الخطاطيف، لكن هذه المرة فبدل أن تعبر السماء تجمدت فوق رأسينا.

ـ كنت أنتظرك. كانت الكلمات الاولى للمعمدان.

أومأت موافقاً.

ـ حانت الساعة يا يسوع.

ـ أعلم ذلك.

كانت الحشود تراقبنا بصمت وبلبلة. على أقدامنا كانت طبطبات النهر تتحول إلى حجارة.

ـ هل تتذكر الكلمات التي قلتها لك يوم مغادرتي قمران؟ سأل يوحنا.

كنت حينها أمهد لك الطريق.

ـ لقد وفيت بوعدي والآن يمكنني الرحيل.

ـ ليس بعد يا يوحنا عمّدني أولا.

لمحت وجهه يتشنج.

ـ أعمّدك؟!

في نفس اللحظة كان يمسك في كفه قوقعة حاول جاهدا أن يدسها في كفي بقوة.

ـ أنت... أنت...

ـ لا، دع الأمور كما هي. هذا دور المنادي بالحق، عمّدني أنت.

رفع عينيه اتجاه الحشود. كانت شفتاه ترتعشان ثم أرعد بصوته:

ـ انظروا، فهذا من كنت أقول عنه: «من قبلي سيأتي رجل ومن بعدي سيأتي أيضا لأنه كان موجوداً أصلا من قبلي. يقود مصيره بيديه، سيحصد الزرع وسيخزن القمح في السندرة، وسيحرق القش بنار لن تنطفئ أبدا».

تواصل الخطاطيف حومانها حول رؤوسنا.

يملأ القوقعة بالماء ثم يسكبه فوق رأسي.

فجأة يسدل الليل ظلمته على النهر وقضبان القصب.

ثم يحتل القمر مكان الشمس.

تتراجع الحشود القهقرى وأبقى وحيدا رفقة يوحنا.

سرنا تحت البريق البارد طويلا دون أن نتبادل كلمة واحدة. أين كنا وإلى أين نسير؟ كلانا كان لا يعرف.

أخيرا ترك نفسه تنهار فوق صخرة. جلست بجانبه محيطا بيدي كتفيه ثم بدأنا نتحدث عن حياتنا الماضية، وتلك الآتية. عن رب إسرائيل، عن الأمم الأخرى، وعند لحظة محددة سألته:

ـ لم تركت قمران؟

ـ إكراهات كثيرة، طوباوية كثيرة ومغالاة في كل شيء. لم أعد راضيا على ذلك، فهؤلاء الأشخاص هم موتى أحياء. ثم كانت لدي مهمة علي القيام بها.

دون أن ينظر إلي وضح كلامه:

ـ طريق يجب أن أذللها. وأنت ماذا فعلت طيلة هذه السنوات؟

ـ كنت أسبر الزمن وأطهر روحي. كنتَ دائما على علم بهذا، أليس كذلك يا يوحنا؟ حتى قبلي أنا.

ـ نعم حتى قبل ولادتك بوقت. كنت أعلم. كانت أمي حبلى بأكثر من ستة شهور حينما جاءت مريم لزيارتها. قيل لي إنني ارتعشت في الاحشاء ابتهاجا بمقدمها.

بعد صمت قصير واصلت.

ـ لمحتك وأنت تقوم بشعيرة الماء. بم تختلف عن الميكفيه الذي أقرته التوراة؟ ألم يكتب «فليقم الطاهر منكم برش المدنس منكم بالماء. فليغسل ملابسه وليغتسل في الماء».

ـ بالضبط، لكن انتهينا من هذه الافعال الموروثة التي تتكرر غالبا حتى أضحت عقيمة، فاغتسال واحد يكفي وهنا الاختلاف. الغطسة التي أقترحها هي ميثاق مبرم لمرة واحدة بين الخالق والمخلوق. إنه التزام مقدس وفتحة أبدية منحوتة على حيطاننا المدنسة وقبول يهوه ربا. هل فهمت؟

ـ فهمت يا يوحنا.

ثم أضفت:

ـ لقد سمعتك تجهر: «منذ الآن بدأ الضرب على جذوع الشجر. » لأجل من؟

ـ لأجلك يا يسوع. أنت تعرف ذلك جيدا.

ـ ليس بمقدوري، يا يوحنا.

ـ بلى لديك القدرة، لديك القوة.

ـ أنا قلب ولست فأسا.

خمنت أن كفيه بدأتا تتشنجان.

ـ قلب لا يمكنه أن يستعمل الأسلحة قلب منهار. منقذ اسرائيل يجب أن يكون صلبا كشجرة زيتون. إقض عليهم، حطمهم قبل فوات الأوان.

ـ لم آت لأحطم، ولا أن أحرر الناموس يا يوحنا. بل أتيت لاستكمال وإنهاء ما أنجز منذ ألفي عام. في الحقيقة فما دامت السماء والارض لم يتغيرا قيد أنملة فإن التوراة لن تزول أيضا، ولو آية واحدة أو خط واحد وإلى يوم الحساب.

ـ وكيف ستفعل ذلك بلا عنف.

ـ قلت لك أنا قلب.

ـ سيمزقونك إربا إربا، وسيفرضون عليك الظلم، عدم الفهم، والاحتقار والبصاق.

ـ سأرد عليهم بالمحبة، والصبر والتسامح والعفو والعطاء والموت من أجلهم في النهاية. ومع ذلك فلتطمئن فإن كنت قلبا فأنا أعرف متى أصير سيفا.

لاحظ يوحنا:

ـ تحدثت عن الموت، موتي أنا هين أما موتك أنت؟ فبم سيفيد؟ وعلى من سيمكنك من الانتصار؟

ـ على الأنانية والعمى، على القيم القديمة، على العنف والقبح. بهذا سأكشف للعالم الوجه الحقيقي للرب.

ـ إلى حد التضحية؟

ـ وحدها التضحية تبرر الوجود وبدونها لسنا بشرا. حانت الساعة يا يوحنا. هل أتت من قبل حينما سمع الأموات صوت ابن الرب. ومن سمعها سيحيا. فكما الرب ملك الحياة لنفسه كذلك منح ابنه ملك الحياة لنفسه.

ـ هل حدثتك الآن؟

ـ نعم يا صديقي، نعم يا أخي، وما سمعته ينبغي أن أنقله، وها أنا منذ الآن ليس لتنفيذ إرادتي بل لتنفيذ إرادة الرب. وإرادته هي أن لا أضيع شيئا مما أعطاني، إلى أن أبعث في اليوم الأخير.

ـ ستصير الحمل إذاً؟

وافقت قائلا:

ـ في هذه الحالة سأستمر في أن أكون صوتك المنادي.

وقف يوحنا، فتح ذراعيه تحت الضوء البنفسجي فاغرا فمه. كان فمه هائلا مستنشقا كومة من النجوم.

نمنا على الأرض، وعند الفجر أخذنا طريق نهر الأردن. في اللحظة التي صعدنا فيها النهر اقترب رجلان كانا من أتباع يوحنا. أحدهما استعلم مشيرا إلي بأصبعه:

ـ من يكون؟

رد يوحنا بلا تردد:

ـ إنه حمل الرب الأبدي.

وقال لي:

ـ هذا أندريه ابن جوناس، أخو سمعان، وهذا جاك بن حلفي.

استدار ثم عانقني بقوة.

ـ إلى هنا تفترق طريقانا، لكننا سنلتقي، عندما تصل الأرواح إلى المستحيل ويصبح المستحيل مطواعا لها.

لم ألتق يوحنا بعد ذلك أبدا. سيتذكر العالم أن من بين من ولدتهم أمهاتهم لم يظهر أبدا رجل عظيم كيوحنا. وبينما أنا أواصل المسير أحسست بأن أحدا

يتعقبني، وعندما التفتت تعرفت على تابعَي يوحنا اللذين سألاه عني. توقفت وسألتهما: ماذا تريدان؟ فأجابني المدعو أندريه:

ـ رابي، أين تقيم؟

أجبتهما:

ـ أقبلا وستريان.

اقتفيا أثري فشاهدا حيث أقيم. في ذلك اليوم بقيا إلى جانبي.

كانت الساعة قد وصلت إلى حوالي العاشرة.

*

قصر بيلات في قيسارية، السادس من شهر أيار

يتمدد بيلات على أحد الأسرة التي تؤثث التركينيوم ويشير بنشوة لصينية وضعها عبد بينه وبين كلوديا.

ـ هذا طعامي المفضل، الحجل المحشي.

تمدد زوجته نصف جسدها أمامه مقطبة وجهها:

ـ لست جوعانة.

ـ إذاً هاك قليلا من النبيذ لا يمكن أن يقارن بالأشيني لكنه مع ذلك ممتاز لقد طلبت تعطيره بأجود حبات القرنفل.

ـ نعم أحب ذلك.

وما إن لمس المشروب شفتيها حتى أبدت استياءها

ـ ثقيل جدا.

تستدير في اتجاه الخادم وأمرته:

ـ فلتمزجه بالماء.

ـ كنت سأقترح عليك ذلك. يؤكد الحاكم.

ثم يعض حجلاً كاملاً بأسنانه.

ـ نأكل كثيرا. تلاحظ كلوديا.

تلامس ثنايا رداء سطولا[1]

ـ أصبحت أشبه عجائز روما، صديقاتي لن يتعرفن علي عند رؤيتي.

ـ لا لا أنت في حالة جيدة... بالمناسبة لقد توصلت برسالة من روما.

ـ آه!

ـ رسالة من ماكرون، أتدرين حول أي موضوع؟

ـ حول قائد الحراس.

ـ بالفعل لقد أخبرني أنه قلق المتزايدة من طموحات سيجانوس، يبدو أن صديقنا يفكر في الوصول إلى منصب الامبراطور.

ـ حسب علمي المنصب غير شاغر، مازال تيبر ملكا. ماذا يريد؟ هل يريد انقلابا؟

ـ ليس مستبعدا. منذ وفاة دريسييس ابن تيبر، أصبح سيجانوس أكثر قوة من مجلس الشيوخ وبذلك أضحى مهيمنا على الحرس الحاكمي. ربما يحس انه لن يقهر؟

تدس كلوديا اصابعها بين حبات عنقود عنب.

ـ هل صحيح ما يقولونه إن سيجانوس عشيق «الافيلا» زوجة دروسوس وانها هي من سممت هذا الأخير.

يهز بيلات كتفيه.

ـ لا أعرف. لكنني لن أستغرب هذا الأمر. الشيء الوحيد الذي يقلقني في هذه القضية هو مستقبل سيجانوس. إذا كان ما يقوله ماكرون صحيحا، فإما

---

(١) رداء روماني يتكون من ثوب يلف حول الخصر ويطلق فوق الكتف مصحوب بشال من نفس اللون.

ينجح صديقنا في مناورته ويطيح بتيبر أو يفشل فيقطع رأسه وفي هذه الحالة سيجرني معه نحو هلاكه.

تسري القشعريرة في ظهر المرأة.

ـ هل تظن أن سيجانوس لا يعي خطورة ما سيقدم عليه؟

علامات التهكم تحرك ملامح زوجة بيلات:

ـ عزيزتي، إعلمي أن مأساتنا وأن رغباتنا تفوق قدراتنا.

ـ سيدي الحاكم.

رفع بيلات رأسه في اتجاه السنتريون، قائد مائة جندي عند الرومان، الذي يسأله.

ـ اسمعك يا مرسيليوس.

ـ جمعت الرجال وهم مستعدون للتحرك.

ـ جيد. تعرف الأوامر، فلينطلقوا الآن، لكن لابد أن تتذكر أنني لا أريد إراقة الدماء وبأي ثمن. هل فهمتني جيدا؟

ـ نعم سيدي الحاكم.

يصرفه بيلات بحركة من يده.

ـ اذهب!

غير أن السنتريون بقي جامدا.

ـ اذهب إذاً. يكرر بيلات أمره.

ـ إذا سمحت لي، أريد أن أنقل لكم ملاحظة. نحن اليوم جمعة وبعد ساعات سيبدأ يوم السبت عندهم. ويبدو لي أنه من الحكمة أن ننتظر إلى الغد مساء وإلا سنستثير ـ مرة أخرى ـ غضب الشعب، أضف إلى ذلك كل المشاكل التي قد تنتج عن ذلك.

يتنهد بيلات:

ـ حسنا جدا. يا مرسيليوس. اعتن بالامر، اعتن بالأمر... غدا مساء.

بيده اليسرى يضرب السنتريون واقي الصدر وينصرف.

ـ ماذا يحدث؟ تسأل كلوديا بقلق. تمرد آخر؟

ـ لا، مجرد عملية وقائية.

ـ حتما لن ينتهي هذا أبدا.

ـ هذه المرة لا يتعلق الأمر بالشعب بل بمناصري من تحمين.

تنظر إليه كلوديا نظرة دهشة.

ـ أجل. يؤكد بيلات. تصوري أن الناصري مازال على قيد الحياة. وهذا يعني أنه لم يمت أثناء صلبه.

تهبُّ كلوديا واقفة:

ـ هذا غير معقول؟!

ـ كنت ضحية مؤامرة.

ـ مؤامرة؟ ومن يكون صاحبها؟

ـ في لحظة اعتقدت أن الكهنة هم السبب. لكن بعد تفكير وجدت أن تورطهم بعيد الاحتمال. كانوا يكرهون يسوع كرها شديدا. ومعنى هذا أنه لم يتبق غير مناصريه.

ـ هذا غير منطقي.

رشقها بيلات بنظرة مستفهمة.

ـ أجل. تلح كلوديا. غير معقول. هذا يعني أنهم كانوا على علم أن يسوع كان على قيد الحياة عندما حرروه من القبر. كيف يمكنهم أن يكونوا متأكدين.

فحسب جميع الشهود، فيسوع كان يحتضر وعندما طعنه الجندي برمحه عجل بموته.

تكرر بقوة:

ـ هذا سخيف!

يصرخ الحاكم صرخة غيظ:

ـ ستظهر الحقيقة بجلاء. لقد أعطيت أوامري لإلقاء القبض على هؤلاء الاشخاص، وسأحقق معهم بنفسي.

ـ لا أفهم سر عنادك. إذا أسعفتني الذاكرة فأنت لم تصدق أبدا جرم الناصري. كما أنك لاحظت أن يسوع لم تكن له هيئة المتآمر، بل كان مجرداً من كل مظاهر العنف. فهو يعلم الناس: «إذا صفعك أحد على الخد الأيمن، فيجب أن تمنحه الخد الأيسر» من يؤمن بهذه المبادئ لا يمكن أن يكون مصدر خطر.

ـ بل على العكس، يا عزيزتي فغياب العدوانية هو بالتحديد ما يخيفني.

ينهض بيلات يذرع القاعة مهرولا.

ـ اسمعي جيدا ما سأقوله لك. بعد تنصيبي بقليل. أنت كنت حينها في روما، حدثت معي مشكلة، تعلمت منها أشياء كثيرة. أدخلت إلى أورشليم خلسة وليلا صور الامبراطور وما إن طلع النهار حتى وجدتني أمام مظاهرة اتهمني اليهود يومها بالكفر وخرق ناموسهم، هذا الناموس الذي يحرّم نصب الصور والتماثيل في المدينة. رأيت مئات الأشخاص الذين جاؤوا إلى قيصارية يناشدونني أن أبعد الصور عن المدينة. رفضت بطبيعة الحال. إذاك ماذا تظنينهم فعلوا؟ تجمعوا حول القصر ثم انبطحوا على الأرض. في البداية ابتسمت لأن هذا التصرف بدا لي صبيانيا. كنت مقتنعا أنهم سينصرفون بمجرد

حلول الليل. لكن أبدا، فقد مكثوا خمسة أيام بلياليها ونهاراتها وبلا تذمر.

يتوقف بيلات ويرجع إلى سريره:

ـ في النهاية، وفي اليوم السادس أمرت الجنود ساخطا أن يحاصروهم ويهددوهم بالقتل ولكي أثبت لهم حزمي، طلبت من العساكر أن يخرجوا سيوفهم. ماذا تعتقدين أنهم فعلوا، هربوا أم هاجموا الجنود؟ لا أبدا. رفعوا رؤوسهم واشرأبوا بأعناقهم وصاحوا أنهم مستعدون للموت. في نفس اليوم سحبت صور الامبراطور.

يستريح قليلا شاربا من كأس النبيذ ثم يواصل:

ـ هكذا بدأت هنا خدمتي بخسارة. خسارة لم تتسبب فيها جماعة عسكرية ولكن أعداء بلا أسلحة. كنت قبل قليل ترددين عبارات الناصري. هؤلاء الاشخاص لم يكتفوا بمد الخد بل قدموا رقابهم ولم يطلبوا صفعها وإنما قطعها.

يصمت من جديد متأملا ما تبقى من النبيذ العنبري في قعر الكأس، ثم يضيف:

ـ صدقيني، يا كلوديا. أي دولة يمكن أن تصبح بلا قوة أمام متمردين بلا أسلحة أكثر مما ستكون أمام جيش جبار. وإذا كان الناصري على قيد الحياة، فليس الكهنة من سيجبرونني على مواجهته بل إنني سأصفيه بلا رحمة.

إن الناصري مازال على قيد الحياة.

الفصل التاسع
صفورية قصر هيروديس في السادس من أيار

يتمدد هيروديس بكسل، يغلفه أريج الصندل.

ليس بعيدا عن سيده يجلس خوزا الذي يبدو من تبرمه أنه بدون شهية.

الرجلان معا كانا أشد انشغالا بالتفسيرات التي يقدمها لهما المنجم الملكي توبشار. هذا الاخير يجلس على الارضية الفسيفسائية واضعا بين رجليه خارطة السماء. يبلل حنجرته ثم يواصل:

ـ كما قلت سابقا، يا سيدي كلمة «زودياك» تنحدر من الكلمة اليونانية زوديكوس وزودييون المشتقة من «زون» وهي تعني «حيوان» والمقصود دائرة من حيوانات صغيرة.

ـ حيوانات في السماء. يهب هيروديس

يشهد متعهده خوزا:

ـ ما سمعنا من قبل بمثل هذه الحماقة.

يرد خوزا بهزة من كتفيه ثم يشير بأصبعه نحو النافذة.

ـ ها قد بدأت تمطر...

يستعطفه المنجم:

ـ اتركني يا سيدي أكمل وستفهم. إن الاشارة إلى الحيوانات أتت من أن

بروج الافلاك تمثل بواسطة حيوانات حية. يتشكل المجموع من اثني عشر شكلا، وهذا المجموع يحوم حول الأرض. هل اتضحت الأمور الآن؟

يقف هيروديس معتمدا على مرفقيه. يشرب جرعة مرة أخرى من نبيذ العنب ذي الرائحة المسكية. ثم يأذن للمنجم بإتمام حديثه.

ـ في الحقيقة، أهم ما يمكن فهمه أن كل مجموعة من اثني عشر يطابق نجوما معينة، وأن كل نجمة على حدة تدير مصير البشرية. كما أنها تخضع لمشيئة الـ. . . (كادت تخونه أصوله السوريفنيقية) وأن يقول الآلهة لكنه تدارك الأمر وصحح: الرب، وهكذا فـ. . .

يقاطعه هيروديس مرة أخرى:

ـ يا توبشار علمك لانهائي، لكنني عندما استدعيتك فلأجل سبب محدد. اذكر الوقائع. . .

يضع الحاكم فوق صينية فخذ الخروف لم يؤكل منه إلا القليل ثم يجلس على المقعد الوثير.

ـ في زمن الملك هيروديس الكبير، والدي، وقعت حادثة غريبة. كان عمري حينها اثني عشر عاما، غير أنني أتذكر بوضوح لأن ذلك خلَّف دويا في القصر. ست سنوات قبل وفاة الملك، أخبرنا جواسيسنا أن ثلاثة غرباء حاملي تبرعات يعلنون في كل مكان أنهم جاؤوا من بابل لتقديم التشريف لملك جديد ولد مؤخرا. كانوا متأكدين أن الطفل يوجد في إسرائيل. استبد القلق بوالدي، فأراد أن يعرف أكثر، فقام باستحضار الغرباء الثلاثة لاستفسارهم. فعرفنا أنهم منجمون وحسب اعتقادهم فإن إشارة عجيبة ونادرة قد حدثت في السماء ظهر خلالها نجم كان له بريق وضوء مدهش. إذا صدقنا زعمهم، فإن هذا الظهور إشارة إلى ميلاد ملك قوي سيحكم بلادنا. قلقة طلب والدي من المنجمين أن يحددوا له هوية المولود الجديد في حالة عثورهم عليه. أسابيع مضت لكن

البابليين لم يظهر لهم أبدا أي أثر. وبهذا استنتج والدي أن هؤلاء الأشخاص مجرد مزاحين وأن قضية الولادة والنجوم لا تستحق أي اهتمام، هل سمعتني جيدا؟

يهز المنجم رأسه موافقا ومجاملا:

ـ إذاً سؤالي بسيط: هل ظهر هذا النجم الوضاء وهذه الظاهرة الغريبة قبل وفاة هيروديس الكبير بست سنوات. نعم أم لا؟

يرد تويشار بدون تردد:

ـ بالفعل.

يرتعش خوزا، بينما هيروديس يحافظ على برودة أعصابه.

ـ أسمعك.

ـ في الواقع فقد حدثت واقعتان عظيمتان بينهما فاصل سنة. في العام السابع قبل الميلاد عرف الكوكبان المشتري وزحل تقارنا ثلاثيا.

وقبل أن يقاطعه هيروديس يبادر تويشار إلى مواصلة شرحه:

ـ صادف أن الكوكبين تعامدا في نفس الخط بينما كانا من قبل في «برج الحوت»

ـ وما هو المدهش في الأمر؟ يسأل خوزا.

يقفز المنجم مفزوعا بالسؤال.

ـ صبرا سيدي، لقد وقع حدثان عظيمان. الثاني وقع قبل سنة وهي السنة التي تهمك. وهي نفس الفترة التي زار فيها الغريبان أورشليم. في منتصف شهر نيسان حدث كسوف للقمر أظهر المشتري ملك الكواكب شرقا وهذه المرة في برج الحمل. في تلك الليلة أخذ المشتري يضيء آلاف الأنوار حتى أصبح مرئيا لجميع الشعوب. وفي بابل أيضا.

بدأ هيروديس يفقد برودة أعصابه.

ـ وهذه الظاهرة هل كانت كافية ليقطع ثلاثة رجال آلاف الاميال متحدين كل المخاطر المترتبة عن ذلك؟ زد على ذلك لم أورشليم بالتحديد؟

ـ بكل بساطة، فكما أشرت قبل قليل فالمشتري كان قد دخل برج الحمل، ولأن الحمل. . .

ـ هو رمز إسرائيل. يتدخل خوزا.

ـ بالتأكيد، وبناء عليه، فها نحن أمام معلومتين أساسيتين: المشتري هو الكوكب الملكي بامتياز وبرج الحمل يرمز إلى إسرائيل. أما بالنسبة للغرباء فهذا الظهور يعلن ولادة ملك عظيم في يهودية وهذا الملك المحارب مذكور في كتاب ميخا.

يستظهر بنبرة مفخمة:

«من يفتح ثغرة يتقدم أمامهم، ليصنعوا ثغرة فيعبروا الباب ويخرجوا من خلاله. عندها سيسير أمامهم ملكهم وعلى رأسهم الرب الأبدي»

يخفض هيروديس بصره نحو صدره، يتظاهر بأنه يعد الحجر الكريم الذي يرصع رداءه الأرجواني.

ـ خوزا. . .

ـ نعم، يا سيدي.

ـ كم كان عمر الجليلي عندما ألقينا عليه القبض؟

يتردد المتعهد.

ـ أقل من أربعين سنة.

ـ كن اكثر دقة.

ـ لا لا اعرف. . يا سيدي، فلنقل ما بين الخامسة والثلاثين والاربعين.

ـ حسنا.

يرفع الحاكم رأسه شاخصا في توبشار.

ـ كم سنة مرت على حدث الكسوف؟

ـ بالضبط منذ ستة وثلاثين سنة.

*

صفورية، في نفس اللحظة، على مبعدة من قصر هيروديس حيث إقامة خوزا

توقفت الأمطار وبدأ الغروب يعتم الحديقة. يظهر تحت الظل خيال امرأتين، تحيطهما رائحة الصنوبر والتراب المبلل.

مستجيبة لدافع خفي تشد جان كف كلوديا وهي تتساءل:

ـ قولي لي ماذا بمقدورنا أن نفعل؟

ـ ينبغي إخبارهم، أسرعي عند أم الأخوين زبيدي، لابد أنها تعرف جيدا أين يوجد حواريوه، وأين عادة يجتمعون.

ـ تقطن سلومي على مبعدة فراسخ كثيرة من هنا. بالتأكيد سأصل بعد فوات الأوان.

أصبح صوت كلوديا أكثر استعطافا.

ـ ومع ذلك حاولي، جنود مارسيليوس يحترمون هدنة السبت. لن يتدخلوا إلا مساء الغد. لو كان بمقدوري لذهبت بنفسي للقاء سلومي، للأسف، لا أستطيع فقد غامرت كثيرا بمجيئي إلى هنا، فإذا علم زوجي بذلك فستكون الكارثة.

صوت خطوات أفزع المرأتين.

ـ إنه خوزا لقد عاد من القصر. تقول جان بذعر.

تتجمدان مذهولتين.

يمضي الوقت ببطء كأنه الأبدية. تبتعد الخطوات.

ـ من الأفضل أن أعود إلى قيسارية. تلاحظ زوجة الحاكم. . إذا بقيت معك، فسأعرضك للخطر.

صحيح، هذا تصرف آمن. إذهبي بسلام. أعدك أنني سأفعل كل ما بوسعي لأخبر سلومي، وإلا سأذهب عند المجدلية وهي ستعرف كيف تحذر الحواريين. انتظري سأرافقك.

حينما اقتربا من البوابة الحديدية المشبكة. تعلق جان:

ـ مازلت غير مقتنعة بهذه القصة. أنزلوه إذاً حيا من الصليب. هل هذا ممكن؟

ـ في كل الأحوال، فزوجانا مقتنعان بها، غير أن هناك قصة أخرى. . .

تتفحص زوجة خوزا وجه رفيقتها بقلق:

ـ ماذا تقولين؟

ـ قصة أخرى يرفضان تصديقها.

في مكان ما من يهودية. ليلا وفي نفس اليوم.

كان الصيف في ذروته. في أعالي السماء كانت الشمس ترسل أشعة تشبه الحجارة.

في اللحظة التي اجتذبتني فيها الصحراء، سمعت الرمال تصر خلفي. كان في الموعد، حبذا الأمر، كنت اخشى أن يتقاعس عن المجيء.

قريبا وفي ماوراء جبال موآب وقممها المنعزلة ستستيقظ الإشاعات في عالم الأحياء.

ومع ذلك سأواصل المسير. قدماي تؤلماني رغم نعلي. عقبان تحوم حول نقطة لامرئية. بلا شك يفترسون جيفة. أفكر في آلام أبناء كيني حمو موسى

الذين قدموا من مدينة النخيل قاطعين هذه الأصقاع. أفكر أيضا في داود الذي فرَّ من جبروت شاول، أفكر في أحزان موسى.

إنه يتعقبني دائما.

كنت قد اخترت المكان وهو اختار اليوم والساعة.

ألم يخلق حرا كباقي البشر؟

عند انصراف النهار اخترت كهفا منحوتا داخل جرف. هناك تمددت للاستراحة.

ففعل الشيء ذاته، لم يكن بمقدوري رؤيته لكنني كنت أخمن أدنى حركاته.

وفجأة ارتفع نواح ملعون من الأعماق متبوعا بعويل ابن آوى شارد، ثم بدأ هذا العويل يرتفع وينخفض تماما كصراخ طفل. بعد ذلك ساد الصمت. راقبت السماء حيث القمر يشع بضوئه الرمادي. بدت ظلال الصخور والصخور نفسها كأنها غير حقيقية.

ـ ألن تنام يا يسوع؟

ـ أنتظر ساهرا.

قهقهة ساخرة ترددت في الأرجاء.

ـ ها أنت تنتظر منذ زمن. ماذا تأمل سماعه؟ هذه قرون لم يتفوه بكلمة واحدة. لن يكلمك أبدا. إنه يسخر من مصير مخلوقاته. أنت لم تعد تهمه ولا حتى الشعب الاسرائيلي أو الشعوب الأخرى. انتهى الأمر. أنا البديل من ورث الأرض، وهو احتفظ بالسماء.

ـ أنت تكذب...

ـ أكذب؟

أحسست أني انتزعت من مكاني بقوة جبارة وسحبت إلى الأعالي حيث تمكنت من رؤية كل الممالك وانتصاراتها.

ـ انظر! يصرخ. أنظر! سأمنحك كل هذه الأشياء إذا سجدت لي وأحببتني. كل هذه الأشياء ملكي وأعطيه لمن أشاء.

رغم خوفي الشديد فقد أجبت:

ـ ممالك الأرض تتلاشى. الانتصارات نيران من قش. مقابل ما هو زائل أفضل الخلود.

ثم أضفت:

ـ جاء في الكتاب: «ستحب مولاك، ربك، وستعبده وحده.»

ـ الخلود... الحياة الأبدية. «رابي» أنت ساذج كثيرا. في نهاية الطريق لا يوجد غير الموت، الخواء والهباء. هل نسيت أنه محكوم عليك أن تصير ترابا لتعود إلى التراب؟!.

ـ كان ذلك في الماضي، فمن الآن فصاعدا، كل من يؤمن بالابن سينال الحياة الأبدية.

ـ ومن هو إذاً هذا الابن؟ هل هو اللقيط؟

ـ أنا ابن من بعثني.

يعم صمت المكان.

شعرت بشيء يشبه هبة ريح. سكت لكنني أعرف أنه سيعود.

عند الفجر، استأنفت المسير.

كان هناك مساء آخر. وصباحات أخر.

وأنا أمخر الصحراء. الرمال مازالت تصر. الجوع والعطش يثقبان أمعائي.

يلاحظ قريني ذلك فيقول ساخرا:

ـ في اعتقادك كم من الوقت ستقاوم؟

ـ الوقت الذي يكفي، سأنتظر أن يكلمني.

ـ ستموت قبل ذلك وأنا سأدخل كفي في أحشائك وأنزع قلبك.

في تلك الأثناء لاحت في الأفق واحة، فحثثت الخطى. في اللحظة التي هممت فيها بإدخال رأسي في بركة الماء رأيت دابة هائلة أشد علوا من النخيل. عيناها محقونتان بالدم، ثم بدأت تصرخ:

ـ مد أذنك ماذا تسمع؟

ـ لا شيء.

ـ لا شيء. ألا تسمع أنين هذا العالم عند بوابة السماء؟ ألا تر أورشليم؟ أين الهيكل؟ أين عمده المتغطرسة التي ترفعه مدعية: «الأبدية. الأبدية. الأبدية. ها هو قد أصبح رمادا. والكهان والنساخ والفريسيون أصبحوا رمادا بتعاويذهم المقدسة وحللهم الشماسية وخواتمهم. كل شيء تحول إلى رماد».

أضغط بيدي صدغي لكي لا أسمعه يصرخ وينوح.

أصرخ بدوري:

ـ أبي... أبي...

تخترق الحرارة جمجمتي، تنشف حنجرتي، يحترق جلدي ويتمزق إلى مزق.

ـ مادمت ابن الرب، فَلْتَأْمُر الحجارة أن تتحول إلى خبز.

أجيب:

ـ لقد كتب أن «الانسان لا يمكنه أن يعيش بالخبز وحده ولكن من كلمة تخرج من فيه الرب»

عندها وللمرة الثانية رفعني عن الأرض عاليا فوق الهيكل بالحي المقدس.

ـ يا ابن الرب، ألقِ بنفسك. لأنه قال: «سيأمر الرب الملائكة أن تحملك خوفا من أن تصطدم قدماك بحجر»

وقد كتب أيضا: «لن تغوي مطلقا سيدك وربك»

فجأة لم أعد أرى غير شدق هائل، فكه من الأسفل كالأرض ومن الأعلى كالأرض.

كان يتقدم زاحفا.

ـ أبي. . . أبي. . . كلمني!

ـ اصمت، هل أنت أبله؟ لقد قلت لك سابقا: إنه لا يهتم بمصيرك. ضجر وتقزز واشمأز منك. لقد تقيأك. أنت لم تعد سوى لعاب يقطر من شفتيه.

نهار آخر، ليل آخر. عما قريب سيصبحان مجرد برق أبيض وأسود.

ـ زد على ذلك. ماذا تنتظر منه؟ أن يرق قلبه لنواحه؟

أريده أن يكلمني بكلمات انسانية. أن يقول لي بصراحة ماذا ينتظر مني، حينذاك فقط سأعود عند البشر.

ابتدأ يقهقه عاليا:

ـ البشر؟ عن أي بشر تتحدث؟ انظر إليهم! الأكثر نزاهة يشتهي خادمته، يتلمظ ويغريها. أعطني بطنك! في القصر يضع الملك فوق ركبتيه زوجة اخيه ويداعب جسدها العاري. معه أنه قال: «لا يجب ان تكشف ابدا عورة زوجة أخيك لأنها بمثابة عورة أخيك. أنا مرتكب المحارم. أنا الأخ والأخت والزوجة والزوج. أنا الحجر الذي يرجم العاهرات. أنا الثور الذهبي. أملك الكون سجينا بين مخالبي. فات الأوان يا يسوع. فات الأوان».

هناك مساء آخر وهناك صباحات أخر.

وفي أحد الأيام، وبينما غروب جديد يقتحم الأفق. سمعت صوتا في البداية كان وشوشة، همسا ثم أصبح أكثر فأكثر وضوحا وشيئا فشيئا عرفته. لأنني تذكرت أني سمعته في أحلامي. ركعت ورفعت وجهي إلى السماء. فبدأت الكلمات تتدفق كالحليب والعسل:

ـ قبل أن أكوِّنك داخل أحشاء أمك. كنت أعرفك، وقبل أن أخرجك منها كنت قد اخترتك وجعلتك نبيا على الأمم. كن صلبا. انهض واجهر بما سآمرك به. لا تخف وأنت بينهم.

أمتي مجنونة وهي لا تعرفني. إنهم صبية بلهاء وبلا ذكاء. بارعة بإلحاق الأذى بالآخرين لأنهم لا يعرفون فعل الخير. . انظر إلى الأرض ها هي بلا شكل فارغة. انظر إلى السماء ها هي أنوارها قد اختفت. انظر إلى الجبال ها هي تهتز وكل التلال تتمايل. انظر ها هو الانسان يختفي كليا وكل طيور السموات تهرب بعيدة.

منذ اليوم الذي خرج فيه أجدادك من مصر إلى يومنا هذا أرسلت لهم رسلا وأنبياء عند مطلع كل يوم. لكنهم لم يصغوا إلي، ولم يسمعوا. لكنهم عاندوا وكانوا أشد ارتكابا للشرور من أسلافهم.

تلعثمت:

ـ آه يا ربي الأبدي، لا أستطيع الكلام، لأني مجرد طفل.

ـ لا، لا تنح: «أنا طفل» لأنك ستذهب عند كل الذين سأبعث لهم، وستقول كل ما سآمرك به. لا تخف منهم، لأني دائما بجانبك لأخلصك.

ثم مد كفه ولمس شفتي.

ـ ها هي كلماتي أضعها في فيك. أنظر ها أنا أنصبك اليوم على كل الأمم والممالك، كي تقتلع وتحطم، كي تخرب وتدمر، من أجل أن تشيد وتغرس.

سكت الصوت، فبقيت جامدا، محاطا بنفس آت من ضفاف مجهولة.

عندما نهضت أخيرا، كان الفجر قد انبلج من الأرض.

كنت مستعدا.

وبينما أستأنف المسير على طريق الأحياء، ظهر الشيطان لآخر مرة:

ـ سأعود، يا يسوع، قبل النهاية، سأعود عندما ستأتي الظلمات، حينها ستتوسل إلي. . .

كفر نعوم في السابع من أيار

يحيط الجنود ببيت سمعان بيير.

يعطي مارسيليوس آخر تعليماته:

ـ أمر الحاكم بعدم سفك الدماء. هل كلامي واضح؟

يرفع يده. يعطي الاشارة، ثم يبدأ عشرة رجال في التحرك. أما باقي الفرقة فبقيت تترقب. وفي لمح البصر تطاير باب المنزل. يقتحم مارسيليوس العتبة ووراءه يندفع الجنود بدورهم. الغرفة مضاءة بشموع السبت المحتضرة. رجل يستند إلى مخدة مستسلما لغفوة. بدا غير متفاجئ بمجيء الجنود.

ـ فتشوا الغرف. يأمر مارسيليوس.

ينحني في اتجاه الرجل، تتراقص انعكاسات ضوء أصفر فوق خوذته الامبراطورية.

ـ ما اسمك؟

ـ سمعان بيير ابن جوناس، وأنت؟

ـ أين هم الأخرون؟

تضيء بسمة طمأنينة وجه الحواري.

ـ عمن تتحدث؟ عن زوجتي وحماتي أم عن أبنائي؟

ـ يا بن جوناس، أين هم الآخرون؟

يعود أحد الجنود معلنا:

ـ لا أحد. البيت فارغ.

يسل مارسيليوس سيفه من غمده.

ـ هل ستعترف؟

ـ يمكنني أن أعترف لو كنت أعرف الاجابة.

ـ خذوه. يأمر الستوريون.

في الخارج يهب نسيم دافئ، ويخيم الليل.

بعض المارة يلاحظون المشهد باستنكار.

ـ كفار، ملاحدة. أطلقوا سراحه. يحتج أحدهم.

ـ صه. يصرخ مارسيليوس.

يبصق عجوز عليه باشمئزاز.

يشدون وثاق سمعان واضعين يديه خلف ظهره، رافعينه فوق عربة. ثم امتطوا صهوة جيادهم. أثناء مرورهم واصل المارة احتجاجاتهم بأيديهم إلى أن غادرت الفرقة. خلال ذلك كانت امرأتان تراقبان المشهد بين الحشد. كانتا تخفيان جزئيا معالم وجهيهما خلف نقاب. تسأل الصغرى بصوت خافت:

ـ هل سيقتلونه؟

ـ لا أستطيع تخيل ذلك يا مريم. لا أعتقد أن بيلات مجنون إلى هذه الدرجة.

ـ إنه غاضب والغضب أحيانا جنون قصير مؤقت.

ـ أنت على صواب. توافق زوجة متعهد هيروديس.

إذاً فلنصلي للرب كي يسترجع الحاكم صوابه.

تشد المجدلية كف رفيقتها.

ـ هيا بنا لنلحق بالآخرين.

تصعد المرأتان الزقاق. عمال منشغلون حول معصرة زيتون. في البعيد نلمح

تقاطع الطريق الامبراطوري المفضي إلى دمشق. عند بلوغهما قمة الثكنة العسكرية حيث تعسكر الفرقة العسكرية الرومانية أسرعا في المشي ولم يخففا سيرهما حتى أصبحت البناية العسكرية بعيدة عن الأنظار.

أورشليم. قصر الكاهن الكبير. في الثامن من أيار.

ـ ماذا الذي وقعنا فيه؟ يصرخ كيفاس.

يقترب بحزم من نيقديموس ويوسف الاريماتي. جسده كله يرتعد غضبا.

ـ أنتظر تفسيركم.

ينطق نيقديموس بصعوبة:

ـ شيء ما انفلت منا.

ـ هذا اقل ما يمكن ان يقال.

يسأل كيفاس:

ـ هل انت متأكد أن الناصري لم يغادر حبسه؟

ـ بالتأكيد. لقد سألت الحراس والخادمة ياكيرا. كلهم أكدوا لي ذلك. كان الباب مغلقا وبقي كذلك. كما أن الغرفة لا نافذة لها. زد على ذلك، فلنفترض أنه غادر حبسه بلعبة سحرية وتمكن من الخروج. ما هو الدافع الذي سيجعله يعود إلى السجن؟ متى رأينا سجينا يفر ويعود بمحض إرادته؟

ـ في هذه الحالة. قل لي يا نيقديموس، كيف تفسر رؤيته من طرف جاسوسي هيروديس على ضفة البحيرة؟

ـ طرح علي بيلات نفس السؤال. وتحت هول المفاجأة لم أجد أي إجابة، فاكتفيت بإثارة احتمال المؤامرة. وبعد تفكير، قلت لنفسي ربما كنت على صواب.

يتوقف عن الكلام لكي يعطي قيمة لما سيقوله فيما بعد.

ـ من الممكن أن يكون رجلا هيروديس قد صادفا توأماً للناصري، أو على الأقل شبيها مطابقا له.

ـ توأم! يتعجب كيفاس وهو يخفق جفنيه.

ـ أخشى أن أصدمك، فاعلم أن الفكرة ليست خرقاء كما قد يبدو. تصور أن في محيط يسوع كان هناك شخص يدعى توماس. هل تعلم بما كانوا يلقبونه؟ «ديديم» ويعني «التوأم» توأم من؟

ـ الناصري.

ـ لم لا، ففي كل الأحوال. هذا يزيح الستارة عن غرابة ظهوره المتكرر.

يزفر كيفاس ويقول مستغربا:

ـ هذا غير معقول. إذا علم حموي بهذا الأمر، فسيزداد قلقا. توأم!؟

يثير انتباهه يوسف الأريماتي:

ـ وما هو التفسير المقبول في نظرك؟

ـ هذا الـ«توماس»، هل رآه احد منكما؟

يأرجح نيقديموس ورفيقه رأسيهما.

ـ لكن إذا أردنا العثور عليه، فالأمر لن يكون معقدا.

ـ في هذه الحال جده بسرعة!

في مكان ما من يهودية، في نفس اليوم.

أعاد يسوع قلم القصب المبلل إلى غشائه الخشبي، واضعا إياه بجانب دواة الحبر.

ثم انصرف إلى تأمل وجه الخادمة المثقب الواقفة أمامه، متحدثا إلى نفسه أن وجهها مغربل بالتجاعيد إلى درجة أنه لن يشيخ أبدا بعد الآن.

انتهت الخادمة من وضع صحن الفول والبصل وحفنة تين وجرة ماء فوق المائدة واستعدت للانصراف:

ـ هل تريد شيئا آخر؟

ـ يمكنك الانصراف.

توافق لكنها تبقى مع ذلك جامدة في مكانها كالركيزة. تستدير تلقي نظرة في اتجاه الباب. تستند إلى الحائط. يبدو أن أحد الحراس يغفو. حينها خاطرت بالسؤال وبصوت خافتٍ:

ـ من أنت؟ وجهك مألوف. منذ أن أتيت إلى هنا وأنا لا أتوقف عن السؤال. هل أنت من أروشليم؟

ـ من الناصرة. انت أيضا لا تبدين غريبة عني.

ـ من أنت؟ ساعدني لأتذكر.

يصدر يسوع حركة عجز.

ـ لا أتذكر أبدا.

تخطو المرأة خطوة إلى الوراء. وجهها كئيب لكنه تدريجيا انتقل من الدهشة إلى الشك إلى الفرح ثم تهلل مشرقا:

ـ ألست يسوع؟ سيدي الرَبّاني.

ـ إذا كنت هو فلا أحب أن أدعى هكذا. لأن الرب هو السيد.

ـ أجل أنت الرباني الذي أنقذ «أڤا»

ـ «أڤا»؟

صوت الخادمة تحول إلى همس:

ـ ابنتي... ابنتي «أڤا»... ألا تتذكرها؟

ـ يا امرأة لا أعرف عما تتحدثين؟

بدأت كفا المرأة ترتعشان وجسدها يزداد ارتعاشا.

ـ أجل أنت. أجل أنت. حدث ذلك في أورشليم عندما غادرت الهيكل. كنا

في شهر كسيكيف[1]، لن أنسى هذا التاريخ لأنه جاء بعد أيام من حانوخة. وقتها ألقى الكهنة القبض على ابنتي وألقوها طعاما للحشود. هل تتذكر؟ هل تتذكر؟

الآن بدأ يسوع يتذكر.

في ذلك الصباح تحاول سلطة الكهنوتية مرة أخرى أن تتحدى يسوع، فسأله «لاوي» بلهجة عنيفة من أعلى الدرج: أيها الرباني. ناموس موسى يأمر إذا ارتكبت رجل الفاحشة مع زوجة جاره. فالرجل والمرأة الزانيان يعاقبان بالموت. وأنت ماذا تقول؟

ـ هذه المرأة الزانية. كانت ابنتي. ابنتي...

ظل يسوع هادئا. فقالت أيضا:

ـ في البداية لم تردَّ. ركعت ثم كتبت شيئا بإصبعك على الأرض كما لو أن مصير «أفا» لا يهمك. كان قلبي وقتها ينزف دما. فألحوا عليك لكي تجيب. أحد الكهنة صاح:

«هل تسمع يا رباني؟ ناموس موسى يأمر أيضا إذا تم اكتشاف ليلة زفاف امرأة أنها غير بكر، فستلقى أمام بيتها وترجم من طرف جميع الناس حتى الموت» حينذاك نهضت ونظرت إليهم بازدراء وصمت ثم أعلنت: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر أولا»

بعد ذلك ركعت مرة أخرى واستأنفت الكتابة ودائما بنفس اللامبالاة.

ـ لا مبالاة!

ـ وشيئا فشيئا انصرف الجمهور ولم يتبق احد، فقط الكهنة وأنا وابنتي.

---

(١) ما بين ٣٠ نوفمبر و٢٩ ديسمبر.

بعدها سرت في اتجاه «أ؟ ـ ا» وقلت لها: «يا امرأة، أين هم الذين اتهموك؟ لا أحد أدانك». وردت: «لا أحد ياسيدي» ابتسمت وقلت لها: «أنا أيضا لا أدينك أبدا. إذهبي ولا تذنبي مرة أخرى. »

ترقرقت الدموع على خدي المرقق.

ـ كنت على صواب، أليس كذلك؟

ـ بلى، هي محقة. فكر يسوع وحالما انصرفت الفتاة والأم، تقدم صوب الكهنة وقال لهم: «يا رعاع الثعابين ألا ترون نور العالمين، ومن يسير إلى جنبي لن يرى الظلمات ولكنه سيحصل على نور الحياة»

أخذ الكهنة يزمجرون: «ها قدمت الدليل ودليلك خاطئ» رفع جبهته وقال: «مهما قدمت من أدلة فهي صحيحة لأنني أعرف من أين أتيت وإلى أين أسير. أما أنتم فتجهلون من أين أتيت وإلى أين أسير. »

لأني أعرف من أين أتيت وإلى أين أسير. . .

واليوم؟ إلى أين أسير؟ هل ستنقص صفحة من الكتاب الذي أوحي إليه؟

في نفس اليوم حاول إخوته باستثناء جاك أن يلقوا القبض عليه. جوسيه وسمعان ويهوذا حضروا الواقعة وكانوا غاضبين غضبا شديدا، فجاؤوا مهرولين في اتجاهه بحقد حيوانات مفترسة، منددين: «أنت تفهم ما تفعله! ستهلكنا جميعا»

استعطف جوزيه الأخ الأوسط الكهنة أن يسجنوه. فكشر الكهنة عن أنيابهم وقالوا: «أخوكم مسلوب بـ«بلزبول» وبواسطة هذا الشيطان يطرد الأرواح الشريرة».

رد عليهم ساخرا:

ـ كيف سيطرد الشيطان الأرواح الشريرة؟

ربما كانت الفتاة سترجم لولا تدخل أنصاره وبهذا تحققت نبوءته: «سيسلمك أبوك وأخوانك وعائلتك وأصدقاؤك لأن الجميع سيكرهك بسبب اسم الرب»

عند ملامسة المرأة لكف يسوع قفز من مكانه.

تدار الكلمات تلو الكلمات كربطة خيط مسحوب.

ـ يا رباني كيف جئت إلى هنا؟ ألم يصلبوك؟ يحكون في كل مكان من أورشليم أنك مت. هل تعرف أن ابنتي كانت متأكدة تلك الجمعة أنك مت فوق جبل الجمجمة!!

ـ اتركي هذه الأشياء فهي لا تعنينا

ـ لم سجنوك هنا؟ ماذا فعلت؟

يكرر:

ـ يا امرأة، دعي هذا الأمر.

تتأمله بحزن شديد.

ـ تبدو هزيلا جدا، أحب أن أساعدك. ماذا يمكنني أن أفعله من أجلك؟ هل تريدني أن أخبر صديقا؟

تظهر بارقة إشراق في حدقتي ابن الرب. شفتاه تتمتمان كأنهما ستقولان «أخبري أمي مريم» لكنه قال:

ـ لا أحد. وأعيد مرة أخرى، لست الرباني.

تشير العجوز إلى الفول والبصل.

ـ يا لبؤس هذا الطعام! غدا سأحضر لك سمكة وثمرا جيدة.

تتوقف فجأة ثم تسأل:

ـ هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالا؟ هل تسمح لي بالكلام؟

لا يجيب.

ـ في ذلك اليوم. ماذا كنت تكتب فوق الرمل؟

تشرق شفتا يسوع بابتسامة ملغزة. يتملص مرة أخرى من الاجابة ويسأل:

ـ ما اسمك؟

ـ اسمي ياكيرا.

ـ ياكيرا أين نحن؟

ـ على مبعدة أميال من بئر سبع.

هكذا اذاً يتضح كلام نيقديموس: قارب ينتظرك في يافا... وبئر سبع يبعد حوالي خمسة عشر ميلا عن الميناء.

فجأة يمسك قلم القصب الموضوع أمامه ثم يدون بسرعة بضع جمل.

ـ اسمعيني يا ياكيرا، هل يمكنك أن تعديني.

ـ كل ما تريده؟

حدقتاه تتفحصان عيني المرأة.

أنت لم تريني أبدا. أبدا. من أجل ذكرى ابنتك، عديني بذلك، فهذا مهم جدا.

ـ باسم ذهب الرب، أعدك بذلك.

في بيت عنيا يقطن عازر وأختاه. مارثا ومريم. ، يمكنك تسليمهم هذه الكلمة.

تتخذ مظهرا مؤسفا.

ـ انظر إلي، أنا عجوز كما أن الرجال هنا يترصدون كل تحركاتي، لكن في اليوم الذي سأذهب للتسوق في بئر سبع يمكنني أن أسلمها إلى ابني «يالون».

لفّ يسوع ورقة البردي ثم دسها خلسة في كف الخادمة.

ـ اعملي ما في وسعك يا ياكيرا.

ـ هه، أنت؟

قصف صوت الحارس وراء ظهر المرأة.

ـ ماذا يحدث هنا؟

تدور حول نفسها مضطربة.

ـ لا شيء. . لاشيء. . لقد أنتهيت.

يقف الحارس على العتبة. يوزع نظرته المرتابة بين العجوز ويسوع.

تنصرف الخادمة بخطى وئيدة.

يصطفق الباب.

يزيح يسوع بتقزز صحن الفول.

أعرف من اين أتيت، وأعرف إلى اين اسير. . .

الفصل العاشر
قيسارية إقامة بيلات في التاسع من أيار

جندیان یحرسان سمعان بيير الذي ينظر إلى بيلات بازدراء

نحسُّ ان الحاكم يشرف على الانفجار سخطا.

ـ أنت تكذب يا ابن جوناس وكذبك لن يفيدك. ألا ترى أن الوقت ليس في صالحك، لأننا سنعثر عليه وما هي إلا مسألة أيام أو ساعات؟

يرد سمعان بنبرة رصينة:

ـ لن تجده، أيها الحاكم، لأن المكان الذي ذهب إليه لا حي يمكنه أن يصل إليه.

ـ يجب أن تعرف أنه لا وجود لمكان في العالم المعروف لا يمكن أن تصله قوة روما.

ـ قلتها: «لا مكان في العالم المعروف»

وميض قلق يخترق نظرة بيلات.

ـ أين هو؟

ـ اعترف لنا ذات يوم: «ستبحثون عني ولن تعثروا علي ولا يمكنكم أن تأتوا حيث أوجد»

ـ تكلم بوضوح! ما هذه الرطانة؟

ـ انت تسألني وأنا أجيبك.

ـ هل تدرك الخطر الذي يحدق بك يا ابن جوناس؟ يبدو أنك نسيت أن حاكم روما يملك سلطة إماتة أو إحياء رعيته في هذا البلد.

يصدر سمعان تنهيدة:

ـ لو كنت أعرف، على الأقل، بماذا تتهمني؟

ـ أتهمك أنت وعصابتك بالتآمر على روما، وتعريض أمن الإمبراطورية للخطر والتحريض على الفتنة وإنكار ألوهية الإمبراطور معلنين واليهود أنه لا وجود لرب غير ربكم! ماذا تهيئون؟ وكم عددكم؟

ـ نهيِّئ عرش ملكوت السموات. ولسنا سوى حفنة لكننا غدا. . .

ـ كم عددكم؟ وأين تختبئون؟

ـ ما همك في ذلك، مادام في يوم من الأيام سنصبح بعدد رمال يهودية. أما بخصوص اتهاماتك التي تحاصرنا بها، فأنا أتحمل مسؤولية واحدة منها أنه فعلا لا وجود لرب غير رب إبراهيم، أما الباقي فخرافات، يسوع انبعث من جديد، رأيته وكلمته ولمسته.

ـ لست وحدك من حظي بهذا الامتياز فجاسوسَي هيرودس أيضا رأياه، غير أن الحقيقة فهو لم يمت أبدا. لقد رأيت في حياتي المصلوبين وقطاع الطرق والثوار والقراصنة وأسرى الحرب. لا أحد منهم عاد من الموت بعد ثلاث ساعات من الصلب. أنت من انتزعه من الصليب وأنت من خبأه!

يعبر سمعان بيير عن سيماء تسامح.

أيها الحاكم، أشفق عليك. ألا تبصر ان قلقك مصدره رفضك قبول الحقيقة؟

ـ الحقيقة؟

ـ حقيقة انبعاث يسوع من بين الأموات.

ـ بناء عليه فلا مجال للشك أنه هو المُخَلّص؟

يغمض سمعان بيير عينيه. حدث هذا قبل عدة شهور. كان السيد قد أرجع البصر لشخص أعمى من بيت السيدة، وقد طلب منه بوضوح تام أن لا يشيع الخبر وأن يعود فورا إلى بيته. بعدها بقليل كانت المجموعة تسير في طريقها إلى قيسارية، سأل يسوع: «من يقول إنني أنا ابن الانسان؟ »، فأجبناه أن البعض يدعي أنك يوحنا المعمدان وآخرين يقولون إنك«إلي» وآخرين أيضا يقولون إنك جريمي أو أحد الرسل. «وأنتم ماذا تقولون؟ » يبادر بيير مؤكداً: «أنت المخلص» وضد كل التوقعات انطفأ وجه يسوع ورد: «أمنعك من أن تكرر هذا. يصيح يسوع. مطلقا هل فهمت جيدا؟ » ثم يضيف ينبغي لابن الإنسان أن يتعذب كثيرا وأن ينبذ من طرف الأسلاف ومن قبل المكلفين بالقرابين والنسّاخين وأن يتعرض للموت وأن ينبعث في اليوم الثالث. رغم أن بيير صدمته هذه التصريحات إلا أنه وضعها على جنب. كيف يرتكب الخطأ الفادح بانتقادهم؟ كيف سيموت سيدهم؟ كيف سيتحول كل ما بدؤوه إلى لا شيء؟ آمالهم، الملكوت الموعودة، سقوط الكافرين خلاص إسرائيل. حينئذ التفت يسوع معينا الأربعة عشر حواريا كشهود مبلغا إياهم بحزم: «ورائي أيها الشيطان، لأنك لا تخلق أشياء الرب، فليس لديك سوى تفكير البشر».

بئر السبع في العاشر من أيار

يتكوم على المناضد رمان مصري وبطيخ وربطات الكزبرة والأنيسون بل حتى البهار الأبيسيني المستورد بواسطة القوافل.

الباعة يزعقون و يومئون. المشترون يحيدون عن الممرات مضغوطين بحرارة الشمس. فصل ربيع لا شبيه له في السنوات الماضية.

تحت فيء شجرة لوز تقف ياكيرا متفحصة الحشود تنتظر يالون الذي يكون

عادة في هذا المكان في مثل هذه الساعة. هنا يبيع الجرار التي يصنعها في ورشته. تنظر العجوز إلى السماء. بعد قليل ستحل الظهيرة.

ـ إيما! أمي!

ها هو الشاب اخيرا يجرجر العربة بكلتا يديه شاقا لنفسه بصعوبة طريقا بين الحشود.

ـ إيما! IMA ماذا تفعلين هنا؟

ـ أنتظرك يا بني، تأخرت كثيرا.

ـ كنت أتسلم جرارا لأوفيد صاحب النزل. كيف وصلت إلى بئر السبع؟

ـ كان يجب أن أحدثك.

ـ لم لم تذهبي مباشرة إلى البيت، تشتاق إليك حفيدتك، تعرفين، أدينا ستكون سعيدة برؤيتك. أنت. . .

تقاطعه العجوز:

ـ اصغ إلي، اسمعني يا يالون. الأمر في غاية الأهمية.

ـ أنت تخيفينني، ماذا حدث؟

ـ اصمت واسمعني. . . أنا. . .

لم تستطع ياكيرا مواصلة جملتها. اتكأت وبدت وكأنها ستنقلب إلى الخلف، استقامت ثم هوت بين ذراعي ابنها.

ـ إيما! إيما!

صوت يهيمن على نواحه.

ـ انظروا!

يعاين رجل هالة مدماة تشكلت بين ظهر العجوز وفي وسطها خنجر مغروس إلى مقبضه.

تطلق فتاة صرخة مدوية.

ـ لن يكون الفاعل بعيدا! يقول بائع عنب، فلنعثر عليه.

بدأت النداءات والأيدي تمتد بينما استمرت الفتاة تصرخ.

يالون بقي في مكانه يحضن جثة أمه. شفتا العجوز بدأتا تتحركان. كانت العجوز تحاول أن تقول شيئا. قرّب يالون أذنه.

ـ عازار... بيت عنيا... مريم... بيثاني

أخمدت حشرجة الموت نهائيا صوتها.

ـ إنها تقبض شيئا في كفها. تلاحظ الفتاة.

يبدو أن يالون لم يسمعها. حينئذ كررت:

ـ إنها تقبض شيئا.

يقرر الشاب أن يهتم بموضع إشارة الفتاة. قطعة من ورق البردي يظهر من بين الأصابع المعقودة للقتيلة.

في اليوم التالي: قيسارية. إقامة بيلات

ـ سيدي الحاكم. يحدث شيء ما.

يجلس بيلات في كرسيِّه. يصدر نخيرا أثناء الكلام:

ماذا هناك يا مارسيليوس؟

ـ في الخارج، تعالَ وانظر!

ينهض بيلات مرغما. يزيح الستارة القرمزية التي تغطي جزئيا النافذة المفتوحة على البحر.

عشرة أشخاص يقفون متجمعين أسفل السور. أمام مدخل الإقامة يوجه جنود رماحهم في اتجاه الأشخاص مانعين إياهم من الدخول.

ـ من هؤلاء؟!

ـ مناصروه.

ـ مناصرو من؟

ـ الناصري.

ـ من نبحث عنهم؟

ـ هم أنفسهم، سيدي الحاكم.

ـ هل هم مسلحون؟

يرد مارسيليوس بالنفي.

يطالبون بسجنهم لكي يعرفوا نفس مصير رفيقهم سمعان بيير.

يرفع بيلات رأسه إلى السماء.

ـ إذن هؤلاء الأشخاص كلهم مجانين. فلتحضروهم حالا. يستدعي كاتب المحكمة.

في نفس الوقت الذي أصدر فيه أوامره انبثقت من ذاكرته مشاهد المواجهة التي عاشها منذ سنوات خلت نتيجة قضية صور الامبراطور: يمكن للقوة أن تصبح ضعيفة أمام متمردين بلا أسلحة أكثر منها أمام جنود أقوياء.

يذهب للجلوس مقتنعا أن قضية يسوع لن تنتهيَ أبدا.

يظهر مارسيليوس على صوت صليل الأسلحة مرفوقا بكاتب المحكمة. يضيء شعاع الشمس الوجوه ويتسلل إلى اللحى والشعر.

ـ كايفوس ـ يأمر كاتب المحكمة ـ سجل الملاحظات. رجل قصير ونحيف يهرول في اتجاه ركن الغرفة، يخرج أدوات الكتابة.

ـ أسماؤكم، يأمر بيلات.

ـ أندريه ابن جوناس.

ـ يوحنا، ابن زبدي

ـ يعقوب ابن زبدي

ـ فليب

ـ بارتلومي

ـ توماس الملقب بالتوأم.

ـ ماثيوس ليفي

ـ يعقوب بن حلفي

ـ ثاديوس.

ـ سمحون القاني.

ـ يهوذا ابن يعقوب.

ـ نثنائيل.

ـ من هو زعيمكم؟

يأخذ بارتلومي مبادرة الكلام.

ـ من سجنته ظلما.

ـ هل تعترفون بأنكم من مناصري الناصري؟

ـ نحن، فقط، شهداء المخلص يسوع. يرد سمحون من قانا.

يرى مارسيلوس أن من الضروري أن يتدخل:

ـ سيدي الحاكم، هذا أحد المتعصبين. عرفته للتو. منذ سنتين كان يزرع الفوضى بين تجار المعبد رفقة أصحابه، فاضطررنا إلى التدخل لكي. . .

يقاطع مارسيلوسَ بيده متوجها بالحديث إلى سمحون.

ـ ما هو عملك؟

ـ دباغ.

ـ وفوضوي.

ـ غير صحيح. أنا ضد استعمال العنف.

ـ هكذا إذاً. يوم اعتقال يسوع. ألم يقطع المدعو سمعان بيير أذن مالشوس رئيس حراس المعبد؟ أم أن هذا الفعل يعتبر أيضا ضمن لائحة معجزات مخلصكم؟

ـ كان فعلا في غير محله وبشكل منفرد. بالاضافة إلى أن سيادتكم تخلطون بين متعصب وكنعاني وأنا كنعاني.

ـ وأين وجه الاختلاف؟

ـ كنعاني يهودي يناضل بسلام من أجل أن يتأمل إخوته الناموس بواسطة هذه الوسيلة وليس بالسلاح وبالتالي فالقصد هو إبعاد شعب الرب عن عبادة الأصنام وفساد الأخلاق المرتكبة من طرف باقي الأمم.

ـ بسلام؟ بلا شك كما فعل يهوذا جمالا الذي ثار بالشعب واجتاح الثكنات الملكية!!

يبتسم سمحون بسخرية:

ـ لم أشارك أبدا في هذه الانتفاضة لأنني وقتها كنت صغير السن. هذه القضية تعود إلى عشرين سنة خلت وأنا عمري الآن ثلاثون عاما.

يقطب بيلات وجهه خيبة ثم يلتفت صوب ماثيوس ليفي.

ـ وأنت ما هو عملك؟

ـ جابي.

ـ جامع ضرائب اذاً، هل هذا معقول؟ موظف يحشر نفسه مع المتمردين.

يتصاعد صوت الحاكم درجة:

ـ لكن ماذا تريدون إذاً؟! ما هو الهدف الذي تسعون إليه؟ أن تزعزعوا الإمبراطورية وحيازة السلطة.

ـ لا شيء من هذا، أيها الحاكم، نحن مخلصون لوصايا سيدنا

يحدجه بيلات بقرنة عينه:

ـ من أنت؟

ـ أخو من ألقيت عليه القبض. أندريه ابن جوناس.

ـ هكذا إذاً. ماذا لو حدثتني عن هذه الوصايا... «يضغط حروف الكلمة عن عمد» وصايا سيدكم.

«إذهب إلى كل مكان وأعلن الخبر السعيد إلى كل المخلوقات. إجعل كل الشعوب مناصريك، وعلّمهم أن يروا كل ما أمرتك به»

ـ بالفعل هذا أمر بسيط. ألن يكون هذا الخبر السعيد، بالصدفة، نهاية الاحتلال الروماني؟

يعم صمت جسيم عقب سؤاله ثم يستعير الكلمات الأخيرة لأندريه:

ـ «كل ما أمرتك به» ما هي هذه الأوامر؟

ـ ان نحب بعضنا البعض.

ـ وماذا أيضا؟

ـ كما أحبنا نحن.

يتمتم ماثيوس:

ـ إذا أرغمك أحد بالقوة أن تقطع ميلا، فاقطعا معا ميلين» وهناك أيضا تلك العبارة التي تتحدث عن ابن حلفي:

ـ إذا حاول أحدهم أن يترافع ضدك ليأخذ قميصك، فاترك له معطفك»

ـ اصمت! يصرخ الحاكم بشدة.

يكسر نثنائيل الأمر تاركا الصف ماشيا إلى أن حاذى وجه بيلات، ثم ينبر بصوت عال رافعا جبهته:

ـ أحبَّ أعداءك!

شحوب تام يجتاح وجه الروماني.

ـ فليلحقوا بشريكهم، وليكبلوا بالحديد.

يلاحقهم بيلات بنظراته وهم يعبرون المدخل بجفاء ولامبالاة. يحصيهم بدون تفكير. احد عشر. يشكلون دون شك الحلقة الأولى. أين يختفي الاخرون؟ وفي أي وقت سيتحركون؟

من حادس أو من السموات؟

كان حدس الحاكم مبنياً على أسس صحيحة لأن هناك آخرين مجهولين متناثرون بين الجليل ويهودية والسامرة ومن بين هؤلاء هناك شخص غير موجود هو توماس التوأم.

بيت عنيا في نفس الليلة

تحت نظرات الشك لأخيها لعازر وأختها مارثا تقرأ مريم بصوت عال الكلمة التي قدمها لها الشاب.

الضوء المنتشر يمحو قسمات وجه مريم البراق مانحا إياه وميضا أخّاذا، أما وجه مارثا الكبرى بخمس سنوات فيبدو قاتما.

لم تبلغ مريم بعد الثلاثين وهي الآن في قمة جمالها معتزة به ومتحملة مسؤوليته كما تتحمل الغموض الذي يمنحه الكحل لعينيها والإحساس الذي تجلبه لها شفتاها القرمزيتان وجسدها الممتلئ والمثير. بخلاف مارثا اللامبالية التي تلف رأسها بعناية بشال، كانت مريم تطلق شعرها المتموج كنهر فوق كتفيها. هي غير متزوجة وتستمتع بهذا الامتياز الذي حرمت منه النساء المتزوجات المضطرات إلى حلق رؤوسهن ووضع الباروكة كي لا يثرن شبق الرجال.

كانت النساء كائنات بئيسة يمنعن من الدراسة أو لمس اللفافات المقدسة بدعوى أنهن غير طاهرات بسبب الطمث. في أي مكان من العالم كتب أن لا حق للمرأة في المعرفة؟ وأن الواجب الوحيد الذي يجب أن يقمن به هو الإنجاب ورعاية البيت؟ هذا اختراع كهنة أو تأويل شرير للنصوص الدينية.

اتهموا مريم أنها مذنبة وعاهرة لأنها عكس أخواتها التعيسات، تعلمت الكتابة والقراءة لكي تتغذى بالشيء الأكثر أهمية في العالم: الكلمة المقدسة. عاهرة لأنها لم تتزوج. لأنها تحب الحياة والمتعة والعنف العذب للحظة التحام جسدين. ولِمَ ستكون عاهرة محتقرة وابراهام نفسه وافق على تسليم زوجته إلى الفرعون مدعيا أنها أخته؟! رحاب التي ساعدت شعبها على احتلال أريحا، هل كانت هي أيضا عاهرة؟ وجوديث أم يفتاح جلعاد التي سمحت لهولوفرن أن يستمتع بها كي تتمكن من اغتياله. إذن؟ هل أولئك النسوة لا يساوين شيئا أم هن بطلات؟

وعلى خلاف إخوتها اليهود الذين يشكرون الرب في صلاتهم لأنهم لم يولدوا كفارا أو نساء. فإن مريم تشكر الرب لأنها لم تخلق رجلا.

«سأضاعف، سأضاعف آلامك وحملك وبالألم ستلدين الأبناء وستمنحين زوجك شهوتك: أما هو فسيهيمن عليك»

يجب إذاً أن يهيمن الرجل على المرأة إلى نهاية الزمان. بما أنه خلق من تراب ولديه قوة التحمل، أأما المرأة فلم تخلق إلا من عظمة ضلعه؟ ومن هو هذا الرب القادر على معاقبة المرأة بأن تنجب بالعذاب وتكلف بالطاعة الأبدية لزوجها؟ من هو هذا الرب الذي يسمح للزوج بالتخلي عن زوجته بمجرد أن تصبح غير قادرة على الانجاب؟ هل الرب أم الرجال من يصدرون هذه التعليمات؟ لو لم تلتق في طريقها الناصري، لبقيت مريم طوال حياتها مدفونة

بين ثوراتها وفريسة لأسئلتها. حدث ذلك في شهر كيسيف أياما قبل عيد حنوكة، كان وقتها غربان المعبد قد ألقوا فتاة إلى الجمهور بتهمة ارتكاب الفاحشة. كان يسوع شاهدا على ذلك لأول مرة تراه مريم وتسمعه يقول: «من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر» بالنسبة لها كانت هذه الكلمات ترن في مسامعها كما الوحي. ولم تعد الفتاة تحس بأنها وحيدة في العالم بل يوجد شخص آخر ينشر التسامح ويحرر الروح من الانتقام ويحول التجديف إلى عدالة شعبية. منذ الآن هناك شخص يرى أن الجسد الضعيف وان الانسان مزاجي ومتقلب وأن أي كائن كيفما كان ليس معصوما من الخطأ. مذاك وكلما سنحت الفرصة كانت مريم تمشي جنبا إلى جنب الناصري.

في أحد الأيام وجدت نفسها بين حشود متجمعة أسفل تلة تطل على بحر الجليل للاستماع إلى السيد. جاء الناس نساء ورجالا وأطفالا من أورشليم ويهودية وما وراء الأردن.

كان صوت الناصري يدوي شاكرا فقراء الروح والمكلومين والجياع والعطاش للعدالة، معلنا الرحمة للمرحومين ويؤكد الطهارة للطاهرين وأنهم سيقابلون إلوهيم. ممجدا الذين حقروا واضطهدوا لأنهم آمنوا به. كان صوته أيضا يدين المنافقين الذين يصلُّون في المعابد وفي أركان الشوارع يتباهون بذلك، ويمدح الذين يعبدون سرا ربهم الأبدي في غرفهم. اختتم يسوع خطابه مرتلا أيات من الكديش، إحدى الصلوات الأكثر أهمية في اليهودية المرتبطة بطقوس عيد الغفران.

«فليمجَّد ويعظَّم اسم الرب في العالم الذي خلقه بقدرته وليسمُ عرشه أبدا على من يقيمون في إسرائيل. فليغفر لنا خطايانا كما نغفرها للذين أساؤوا إلينا.

وأن لا يسلط علينا الخطيئة والمعصية والزلة والغواية والمذلة. وأن لا يتركنا فريسة للشر. وأن ينظر إلينا بعين الرحمة ويسدد كفاحنا. وأن يمنحنا الخلاص باسمه، لأنه محررنا العظيم».

عادت مريم إلى بيت عنيا بروح مشتعلة، وبعد أيام علمت بواسطة مارثا أن يسوع سيكون قريبا من بيت جارهم سمعان. مستسلمة لهتاف قلبها تناولت قنينة طيب النردين الذي كان يمثل ثروة، وهبّت إلى بيت الجابي. أمام احتجاج الناصريين واعتراض الضيوف، وكلهم رجال، ارتمت على قدمي السيد. كانت مضطربة لتواجدها قريبة جدا منه. لم تستطع منع عبراتها وكلما ترقرقت الدموع فوق قدمي يسوع باشرت إلى مسحها بشعرها وفي نفس الوقت تعطرهما بالطيب. عندما رأى سمعان هذا المشهد صدم وقال مدمدما: «إذا كان هذا الرجل نبيا، فسيعلم أي نوع من النساء يلمسه، سيعرف أنها مذنبة»

كادت مريم تهاجم سمعان مستعدة لعضه، لكن يسوع رد قائلا:

«يا سمعان، لدي شيء لأقوله لك. كان لدائن مدينين. احدهما استدان خمسمائة دينار وآخر خمسين. ولأنهما لم يستطيعا الدفع، أجّل لهما الدائن ذلك. فأيهما سيحب ذلك أكثر؟ »

اجاب سمعان: «من أعطاه أكثر. فقال يسوع: أحسنت الحكم. »

ثم أضاف: «هل ترى هذه المرأة؟ دخلت بيتك ولم تقدم لي قطرة ماء لكي أغسل قدمي. لكن هذه المرأة بللتهما بدموعها ونشفتهما بشعرها. لم تمنحني قبلة واحدة بينما هي منذ دخولي لم تتوقف أبدا عن تقبيل قدمي. لهذا السبب أقولها صراحة إن خطاياها الكثيرة قد جبّت، لأنها أحبت كثيرا. اعلم أن من يغفر قليلا يحب قليلا»

ينحني يسوع صوب مريم مدغدغا جبهتها برفق هامسا: «غفرت خطاياك. أنقذك إيمانك. اذهبي بسلام»

كيف يمكنها أن تنسى؟

ـ هل يمكنني الانصراف؟ يسأل يالون بخجل.

ـ أرجوك. ليس الآن. يرد لعازر. هل أنت متأكد من عدم إغفال أي عنصر؟ ألم تقل لك أمك أي شيء؟

يململ الشاب رأسه.

ـ لم يكن لديها الوقت لذلك. قالت اسمكما واسم القرية فقط. فاستنتجت أن الرسالة التي عثرت عليها في يدها كانت موجهة إليكما.

ـ قبل قليل قلت إنها كانت مضطربة. هل تعلم لماذا؟

ـ لا.

مارثا تسأل بدورها:

ـ هل تعرف أين كانت تشتغل؟ ولدى من؟

ـ لا. في المقابل. فهمت أنها كانت تأخذ راتبا مهما.

ـ كيف عثرت على هذا العمل؟ ومنذ متى؟

ـ منذ خمسة عشر يوما تقريبا. جاء رجل إلى البيت واقترح عليها العمل لديه.

ـ هل اعترف بهويته؟

ـ لست متأكدا، لأنني لم أكن متواجدا في البيت حينها، فلم أفكر حتى في سؤال أمي.

قال لعازر متنهدا:

ـ يا للأسف، فمن المفترض أن يكون هو المجرم أو شخصاً آخر من محيطه. هل لأفراد عائلتك علم بالأمر؟

ـ لا أظن، لكني سأطلب منهم المساعدة.

يخيم الصمت على فضاء الغرفة. تراود أذهان كل من مارثا ومريم وأخيهما أفكار مشوشة وتساؤلات مبهمة «ترى من هو كاتب الرسالة؟ وما هو سبب هذه الجريمة؟ »

ـ هل أستطيع الذهاب؟ كرر يالون سؤاله مرة أخرى.

ـ بالطبع، أجاب لعازر، تذكر لا تبخل علينا بأي معلومة تتلقاها صغيرة كانت أو كبيرة.

وافق الشاب وانصرف يائسا. بدا وكأنه شاخ في بضع ساعات.

في حين التفت لعازر صوب مريم:

ـ من فضلك، أعيدي قراءة الرسالة؟

تشرع المرأة في القراءة:

«إذا قال لكم أحد أن يسوع يوجد هنا أو هناك، فلا تصدقوه لأنه سيظهر يسوعيون مزيفون وأنبياء مزيفون. طوبى لمن لم يره وصدقه»

ـ ليس هناك توقيع.

ـ لا يوجد.

حقا هذا غريب.

يكرر القولة باحثا عن معنى صائب.

ـ «إذا قال لكم أحد أن يسوع يوجد هنا أو هناك، فلا تصدقوه»

سألت مارثا:

ـ هل سبق للمعلم أن نطق مثل هذه العبارة من قبل؟

تنظر إليها مريم باستهزاء.

ـ ولكن كيف سنعرف؟ لن يساعدنا أحد بخصوص هذا الأمر غير حوارييه.

ـ علينا ان نعثر عليهم، اقترحت مارثا، لابد أنهم في كفر نعوم.

ـ أو ربما في مكان آخر.

يمد لعازر يده طالبا الرسالة. أعطته إياها مريم، فأخذ يتفحصها ويقرأها ويعيد قراءتها باحثا عن دليل أو سر غامض. وفي الأخير أعادها إلى أخته يائسا.

ـ نستطيع القول إن كاتبها يريد تضليلنا ويهدف إلى نصب فخ لاتهام المعلم.

ـ كيف؟ سألت مريم.

ـ «إذا قال لكم أحد أن يسوع يوجد هنا أو هناك، فلا تصدقوه» بينما يسوع قد ظهر لمريم المجدلية ولمريم كلوباس على طريق عمّاوس وللحواريين. يبدو لي أن الكاتب يريد أن يبين أن هاته القرائن غير صحيحة وأن الشهود ما هم إلا كذابون، هل أنا محقة؟

ـ شخص معين يريد أن يزرع الشك بيننا.

ـ بماذا سأجيبك يا أختي؟ كما لدينا هذه المرأة المقتولة. لم أعد أفهم شيئا. لا أستطيع ان أتخيل لحظة أن الشك سيتسرب إلينا، كما أن كل شيء أصبح متذبذبا. من كان يصدق أنني أنا لعازر العائد بفضل السيد من الموت أن الشك سيساورني يوما؟

عند استرجاعه هذه الذكرى، ظهر الانفعال على مريم ومارثا.

ـ رابي! رابي! لعازر يموت، لعازر يحتضر.

أرسلت الفتاتان بيأس شديد خادمتهما للتوسل إلى يسوع كي يحضر إلى بيت عنيا لأنه الوحيد القادر على إخراج أخيهما من سكرات الموت. لكنهما تفاجآ بعدم اكتراثه بدعواتهما كما أنه رفض التنقل إلى عين المكان. واكتفى بالقول إن المرض الذي يعاني منه لعازر ظهر لأجل مجد الرب ولكي يمجد بها ابنه أيضا.

كانت إجابته صادمة لهما. ألم يكن لعازر صديقا له؟! بل أعز أصدقائه؟!

يومان. . . انقضى يومان قبل أن يقرر يسوع السفر. ربما كان خائفا من الذهاب إلى يهودية وواعيا بالخطر الجسيم المحدق به. كان الاحتمال معقولا لأنهما علما عن طريق حوارييه أن يسوع أمر: «حان الوقت للعودة إلى يهودية» حاول الحواريون الاعتراض: «رابي، حاول أعداؤك مؤخرا أن يصفوك وتعود إلى يهودية»؟! لكنه وضع حدا للنقاش معلنا: «صديقنا لعازر ينام، سأذهب لإيقاظه» وأمام فزع المجموعة تدخل توماس التوأم لتشجيعهم: «لا يمكن أن نتركه، فلنذهب أيضا أو نموت معه»

عندما وصل يسوع إلى مشارف بيت عنيا، كان لعازر قد مات منذ أربعة أيام. جاءت مارثا لملاقاته بينما بقيت مريم المرهقة قابعة في البيت. «سيدي لو كنت معنا هنا لما مات» ولكي يحد من أي تعليق آخر قال المعلم: «أخوك سيبعث». «أعلم، ترد مارثا، سيبعث في اليوم الأخير». حينئذ صرح المعلم بنبرة هادئة ومفاجئة: «أنا الانبعاث والحياة، وكل من يعش ويصدقني لن يموت أبدا. هل تصدقين هذا؟ »

لم تستطع غير الغمغمة: «نعم سيدي أصدق أنك المسيح، ابن الرب، الذي يجب أن يأتي إلى العالم»

تحت شمس حمراء، وأمام رهط من الفضوليين استأنفوا المسير إلى بيت عنيا. وما إن اشرفوا على القرية حتى أرسل يسوع في طلب مريم. وعندما رأته ألقت بنفسها على قدميه موجهة له نفس اللوم الذي قالته مارثا: «سيدي، لو كنت معنا هنا لما مات أخي»

لم يجب لكنه طلب أن يدلوه على مكان لعازر. وعندما وصل إلى مدفنه أجهش بالبكاء.

يسوع يبكي.

لا أحد شاهده منفعلا بهذه الطريقة.

بكى كما لو أن أحزان العالم تضطرم في أعماقه. حزن الرجال والنساء والأزهار والأحجار والأنهار. عمن يبكي؟ يتساءل الذين يحيطونه: «انظروا كم كان يحبه!»

تجرأ البعض على الهمس: «هو من فتح عيني الأعمى، لا يستطيع أن يجعل هذا الرجل لا يموت أبدا». بعد ساعة وصل إلى مدفنه. كان منحوتا في منحدر صخري ومقفل بصخرة.

بين محيط جسيم أمر يسوع: «ارفعوا الصخرة!» تفزع مارثا: «سيدي لقد صعدت رائحته، فهو هنا منذ أربعة أيام»

يتفحصها بتسامح: «ألم أقل لك إنك إذا آمنت فإنك سترين مجد الرب؟ »

رفع رجال الصخرة بعجلة. تقدم يسوع خطوة. رفع عينيه نحو السماء: «بالنسبة لي أعلم أنك تستجيب لي، لكن بالنسبة لهؤلاء كي يؤمنوا أنك أنت من بعثني»

حينئذ أمر بصوت شامخ: «اخرج يا لعازر! »

مرت اللحظات وكأنها قرون. ثم ظهر لعازر.

شبح انتزع من مخالب الظلمات، اليدان ملفوفتان بأشرطة والوجه مغلف بالقماش.

«خلّصوه واتركوه ينطلق» أمر يسوع.

الفصل الحادي عشر
في مكان ما من يهودية[1]

يلقي ابن الانسان نظرة على وعاء الحبر، فيجده شبه فارغ.

يجب أن يطالب الكهنة بمزيد من الحبر. لكن أين هم؟ لم لم يظهروا منذ أكثر من أسبوع؟ وأين هي الخادمة؟ هي اختفت أيضا. هل نجحت في إيصال الرسالة إلى لعازر[2] وأخواته؟ شريطة أن تعي أميتها لأنه أصبح من المؤكد أن

---

(١) كان أول ملوكها رحبعام بن سليمان عليه السلام وعاصمتها القدس وقد عاشت أكثر من اختها إسرائيل وتعرضت لغزوات من الشمال والجنوب وكان آخرها على يد نبوخذ نصر ملك بابل الذي غزاها سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، وتغلب عليها ودفعت له الجزية، ثم ثارت مرة أُخرى فغزاها سنة ٥٩٣ فسبى من شعبها عشرة آلاف من بينها أعيانها وأشرافها وكنوز الهيكل، وثارت عليه سنة ٥٩٣ قبل الميلاد فأتاها هذه المرة سنة ٥٨٦ قبل الميلاد وهدم أسوارها وأحرق الهيكل وسبى اليهود إلى بابل.

ويصف أحد الكتاب الغربيين نهاية دولتين فيقول: «هي قصة نكبات، وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية وهي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ قبل الميلاد محت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ قبل الميلاد» المترجم. يمكن التوسع من خلال http: //www. universalis. fr/encyclopedie.

(٢) نقرأ في إنجيل القديس يوحنا: . «فقال لهم يسوع عندئذ صراحة: قد مات لعازر، فلما وصل يسوع وجد أنه في القبر منذ أربعة أيام. فلما سمعت مرتا بقدوم يسوع خرجت لاستقباله، في حين أن مريم ظلت جالسة في البيت. فقالت مرتا ليسوع: يا رب، لو كنت ههنا لما مات أخي. ولكني ما زلت أعلم أن كل ما تسأل الله، فالله يعطيك إياه. فقال لها يسوع: سيقوم أخوك. =

شخصا آخر ينتحل شخصيته، وإلا بم سنفسر تجليه في أمكنة مختلفة؟

فجأة ينجلي حجاب عن بصيرته مستعيدا سؤالا طالما لازمة وأقلقه: هل من الممكن ان يتواجد نفس المرء في مكانين مختلفين، في وقت واحد؟

قد لا تكون مؤامرة من طرف الكهنة؟

وقد يكون هو يسوع من يملك هذه القدرة الخارقة؟ على كل حال ألم تكن له القدرة على شفاء المرضى، وإعادة البصر للعميان، وطرد الأرواح الشريرة، وتحريك المعاقين. . . ؟

لا، هذا غير ممكن، كان سيعلم ذلك!

مارتا، مريم، لعازر. . .

في ذلك اليوم، حينما كان يدنو من القبر. انهار مجهشا بالبكاء. آه من هذه الدموع! لا دخل لفقدان لعازر بهذه الحالة. كان احساسه بموته الوشيك ما استحوذ عليه وهو يقف أمام القبر المقفل. أدرك اللحظة الملعونة حين تتحول الحياة إلى حشرجة، وقتها ستكون الساعة التاسعة قد حلت، ستظلم الشمس وينشق غطاء المعبد إلى نصفين، سيصرخ برجفة أخيرة. ستكون الصرخة الأخيرة: أبتي أضع بين يديك روحي. . .

ارفعوا الحجر!

من أي بئر سحيقة استطاع أن يخرج القوة للنطق بهذه الكلمات؟

اخرج يا لعازر!

= قال: أين وضعتموه؟ قالوا له: يا رب، تعال فانظر. فجاش صدر يسوع ثانية وذهب إلى القبر، وكان مغارة وضع على مدخلها حجر. فقال يسوع: إرفعوا الحجر! قالت له مرتا، أخت الميت: يا رب، لقد أنتن، فهذا يومه الرابع. فرفعوا الحجر. . . قال هذا ثم صاح بأعلى صوته: يا لعازر، هلم فاخرج. فخرج الميت مشدود اليدين والرجلين بالعصائب، ملفوف الوجه في منديل. فقال لهم يسوع: حلوه ودعوه يذهب. » المترجم.

كانت قوة الروح هائلة، فمن يستطيع أن يأمر الجبال: تعالي! فتأتي الجبال طائعة. قوة الروح مرعبة. من يستطيع أن يحرك الكواكب ويعيد البصر للعميان ويشفي المعاقين ويمرغ القمر بين أحضان الأنهار المذهلة؟ قدرته في الاشجار، في السنابل المترعة بالشمس، في حقول الزيتون ذات الأوراق الفضية، في المتسول، في كف الأبرص، في الأمل الميؤوس منه.

أومن. أومن. أومن.

أخرج يا لعازر!

ولكي يصدقوا أنك أنت من بعثني.

خرج لعازر من سباته، فأطلقت الأرض أنينا مرعبا، لأنها لم تكن تعلم أنه كان راقدا فقط، مثل ابنه جيروس.

لم يكن لعازر سوى نائم.

عندما تذكر يسوع هذه الساعات بدأت كفه ترتعش وقلبه يخفق بقوة كادت تحطم صدره.

يأخذ يسوع نفسا عميقا. يستعيد صفاء ذهنه، فيعكف على ورق البردي:

وصلت إلى ضفة نهر الأردن حوالي الساعة الخامسة. وبينما انا أتجه صوب طريق بيت عنيا لمحت الرجلين اللذين سألاني عندما كنت رفقة يوحنا: أندريه ابن جوناس وجاك بن حلفي. يبدو أنهما طيلة الأيام التي خضت فيها معركتي في الصحراء، لم يفعلا أي شيء غير ترقب عودتي. حيياني دون أن يسألا عن المكان الذي كنت فيه، ولا عن سبب غيابي. وضع أندريه ركبة على الأرض وقال:

ـ معلمي، هل سترافقنا إلى الجليل؟ هناك عدد كبير من الأشخاص يريدون رؤيتك. وهناك أيضا أخي سمعان.

ابتسمت وأجبت:

ـ بالفعل، إلى هناك ستقودني قدماي.

مرت ثلاثة أقمار قبل أن نشرف على بحيرة طبريا.

كان الصيادون يعملون حول مراكبهم. وكان النسيم دافئا يداعب أوراق الشجر. الماء بالكاد يرتعش والفجر يتهيأ للبزوغ فوق كل شيء يدب. يستعجل أندريه لأصل صوب شخص يجلس على الأرض يرقع شبكة صيد. يبلغ من العمر ثلاثين سنة. مربوع القامة، بلحية كبيرة تحيط وجها متغضنا مخططا بحاجبين كثيفين. عرفت الرجل كنت قد رأيته رفقة أندريه وآخرين. كان قد عبَّر عن اشمئزازه من الكهنة ومن وجود المسارح والنصب المخصصة لانتصار الوثنيين.

ـ ها هو أخي سمعان. أعلن أندريه.

مخاطبا سمعان:

ـ ها هو يسوع.

لم يعبر عن أي ردة فعل. يشد أندريه ذراع أخيه وهو يهزه:

ـ انظر إنه السيد الذي قال عنه يوحنا: «بين ظهرانيكم سيوجد شخص لن تتعرفوا عليه، لكنه سيأتي بعدي ولن أكون جديرا حتى بربط حزام نعله»

حينئذ قرر أن يرفع عينيه لينظر صوبي. عينان صغيرتان متقدتان مضطرمتان وسوداوان.

ـ سلام عليك.

ـ سلام عليك يا سمعان.

ثم أضفت:

ـ هل كان الصيد وفيرا؟

تمتم مطأطئا رأسه في اتجاه الشبكة.

ـ عرفت أياما أفضل.

ـ لهذا أنت قلق.

رشقني بنظرة ثاقبة.

ـ اليس هذا شعور طبيعي؟ لدي ولدان وزوجة وحماة. يجب أن أطعمهم. إذن كيف لا أكون قلقا؟

ـ هل هذه الحياة أكثر من الطعام والجسد أكثر من الملابس؟

تأملني حائرا.

ـ انظر حولك، الطيور في السماء لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن شيئا في المستودعات ومع ذلك فأبونا في السماء يطعمها. ألست أحسن منها بكثير؟ ألا ترى زنابق الحقول، فهي لا تعمل ولا تخيط. سليمان نفسه وفي قمة مجده ألم يكن يرتدي نفس ملابس الآخرين؟

ـ كلمات، والكلمات لم تشبع يوما بطن جائع.

ـ أكل وشرب ولبس. إعلم أن أبانا يعرف ما نحتاج إليه، أنت رجل قوي يا سمعان وإذا سخرت هذه القوة للبحث عن المملكة وعدالة الرب الأزلي، فكن واثقا أن كل هذه الأشياء ستقدم لك بفائض عن الحاجة.

ـ مجرد كلمات...

يا سمعان هل تعتقد أنك بقلقك هذا تضيف شيئا لحياتك؟

سألني بضجر:

ـ ماذا تريد مني؟

ـ أن تكون صائدا للبشر.

ـ صائدا للبشر!؟

ـ مناديا ومعلنا عن مملكة السموات، لأن أوانها قد حان.

ضحك باستهزاء:

ـ مملكة السموات؟ ونحن في هذه الأرض نعيش وسط الطوفان.

ـ عندما سيتغير كل شيء، ويجلس ابن الانسان على عرش الامجاد، سيتبوّأ الذين اتبعوه على اثني عشر عرشاً متمكنين من زمام حكم القبائل الاسرائيلية الاثنتي عشرة. وكل من فقد بسببي إخوة، أو أخوات، أو أبا، أو أما، أو زوجة أو أبناء أو أرضا أو بيتا، سينال أضعافا مضاعفة ويرث الحياة الأبدية.

ـ وماذا ستفعل بالكهنة والنساخين والاحبار؟ وهذا القانون الجاثم على قلوبنا؟ وهؤلاء المخالفين لواجباتهم ومناصبهم؟ وهؤلاء اليونانيون والرومانيون الذين يهينوننا؟ هل تظن أنك ستحطمهم بدعوتك لوحدة القلوب والسلام؟

ـ هذا غير صحيح.

ـ إذن؟

ـ لم آت بالسلام إلى الأرض فقط بل بالسيف أيضا!

ـ السيف...

ـ أتيت لأحدث الشقاق بين الأب وابنه، بين البنت وأمها، بين الزوجة وحماتها. أتيت أحمل الانبعاث للقلوب والهدم لأيام سفك الدماء. أتيت بالعاصفة والنار. لا أحد سيحتاج المعبد كي يرضى عنه إلوهيم. سيستبعدوننا من صلواتهم لكن الرب سيصلي من أجلنا. سنكون منبوذي إسرائيل لكن منا سينبعث عالم جديد.

وفجأة رأيت بصيص اهتمام يلمع من حدقتيه، فسأل بنبرة أرادها مختلفة عن سابقاتها:

ـ قيل لي إن سلفك يوحنا تجرأ على الكهنة قائلا: «من هذه الحجارة إذا أراد الرب سيبعث منها أطفالا لإبراهيم» هل تشاطره الرأي؟ هل تعلم بما توحي هذه الكلمات؟

ـ يقصد أن يهوه هو العالم وأنه الرياح الشرقية. روح متمنعة تسير حيث تشاء. ليست مقيدة بأي قوانين ولا أي أفضلية ولا أي نظام ولا أي أرض. سآخذ كلمات يوحنا لأجهلها كلماتي. سأنزع قلب الحجر الذي توقف عن النبض في فؤاد البشر وأضع مكانها قلبا من لحم. سأمنح كلمة الرب مناصفة بين جميع الناس وجميع الشعوب. سأشرع الأبواب الأربعة للشرق والغرب والجنوب والشمال حيث سيعم الحب والحرية.

واصلت كلامي وأنا أحس أن حضورا لامرئيا يهمس لي هذه الكلمات.

ـ من سيسمع كلماتي ويعمل بها سيكون شبيها برجل حذر شيد بيته فوق صخرة. لا المطر ولا السيل الجارف ولا الرياح العاصفة ستسقطه ولن يتزعزع قيد أنملة. من يسمع كلماتي ولا يعمل بها سيكون كرجل أخرق شيد بيته فوق الرمل. يا سمعان أريد مساعدتك في كل شيء.

وقف ونظر إلي مليا ثم قال:

ـ هيا بنا.

وضعت يدي على كتفه وقلت:

ـ يا سمعان بن جوناس منذ اليوم ستلقب كيفاس (الصخرة).

في اليوم التالي جاء دور فليب الذي انضم إلينا في كفر نعوم التي ينتمي إليها أندريه وكيفاس.

وبينما نحن نسير بمحاذاة النهر رأى فليب صديقه نثانييل الذي كان صيادا أيضا. هرول في اتجاهنا فبادره فليب:

ـ لقد وجدنا من تحدث عنه الأنبياء. يسوع! يسوع الناصري.

فبدأ نثانييل يضحك:

ـ هل يمكن أن يأتي من الناصرة شيء حسن؟

جذبه فليب من ذراعه وقاده صوبي.

فقلت له:

ـ ها هو يهودي حقيقي لا يغش أبدا.

تفحصني نثانييل بدهشة:

ـ من أين تعرفني؟

أجبته:

ـ قبل أن يناديك فليب، رأيتك فوق شجرة التين.

قرأت في عينيه الترقب والانتظار كباقي الشعب الاسرائيلي.

شيئا فشيئا بدأ عددنا يتضاعف.

في أحد الأيام ونحن نسير بجوار مكتب الجبايات رأيت الجابي ماثيو ليفي، فدعوته للالتحاق بنا وهنا تعرضت من رفاقي إلى انتقادات لاذعة استمرت أيضا حينما شاركت في أريحا زكريا الطعام وهو جامع ضرائب آخر. سأُلام على مصاحبتي للأشخاص الفاسدين. وأيضا سأنعت بالشره والسكير لأنني أحببت الخبز والنبيذ. أين كتب أن محبة الرب الأزلي تعني الزهد في الحياة؟ أليست لذة الشرب والأكل غريزة زرعها الرب في الانسان؟ عندما خلق يهوه العالم ألم يخلق أيضا الأسماك والطيور وباقي الحيوانات التي تتحرك؟ من سينتفع إذاً بهذه الخيرات غير الانسان؟

اما الأشخاص الفاسدون، الكفار، المدنسون الذين يتهمونني بمخالطتهم فقد كانوا في نظري غير منفصلين عن باقي مخلوقات الرب. ليس الأصحاء من يحتاج الطبيب بل المرضى. أجد المتعة في الرحمة لا في التضحية لأني لم آت لأدعو المستقيمين بل المذنبين. أنا هنا لأجل الخرفان الضائعة.

الأخوان زبيدي. جان وجاك. طوماس. يهوذا. سمعان الكنعاني. يهوذا تداوس. وأخيرا يهوذا الأسخريوطي الطفل الصغير وكغيره من الأطفال كان

يحلم مستيقظا بعوالم أرضية، وأحلامه هذه ضيعته. هؤلاء الأربعة عشر من سيشكلون عصب حواريّ، وإذا التحق آخرون فسيشكلون حجر زاوية البيت الذي كنت أعمل على تشييده. كانوا بالأساس رجالا لكن منهم أيضا نساء كثيرات. بعضهن لم يستطعن مغادرة بيوتهن، لكنهن منحننا المأوى والمال واللباس والطعام، وبدون دعمهن فمن المحتمل أن تكون أشد صعوبة. لكن حواريَّ سيزدرونني بسبب المكانة التي منحتها للنساء المناصرات لي.

شيئا فشيئا ذاع صيتي في كل مكان. كنت أعرف أن المعبد يوجد أسفل الجبال وفوق الهضاب وفي البيوت التي تضعها النساء رهن إشارتنا. مثل شوشانا زوجة زكريا الجابي ومريم كلوباس ومريم المجدلية ومارثا ومريم أختا لعازر. كنت أكن تعاطفا خاصا لهاتين المرأتين. أحببتهما لعذوبتهما وروحهما السخية وجمالهما الأخاذ. كنت لا أمل من رفقتهما خاصة مريم التي كانت تلقب بالمذنبة. كم سمعت من الاتهامات عن علاقتي بها. اتهموني بمعاشرتها وعشقها سرا بل بتفضيلها عن الحواريين. هذا كذب وافتراء. كم كتبت أنني لا أستطيع محبة فرد واحد. لقد خلقت لمحبة الجميع. خلقت لتقبيل الكواكب والاحتراق في حضنها. كان معظم حواريَّ متزوجين ولم أكن أتحرج من أن لا أكون كذلك. في الحقيقة إن كنت أحب هاتين المرأتين لأنهما قبل كل شيء امرأتان وبالتالي فهما أختا الرجل. لم تخلق حواء بعد آدم بل خلقا معا وفي وقت واحد. خلقهما يهوه على صورته. ثم حدد بعد ذلك الذكر من الأنثى. فهما إذاً كائن واحد وفيما بعد أقصى ما يكون في البعد انتزع الواحد من الآخر.

وذات يوم علاقتي بالعالم ستتغير. كنت أقف أسفل الجبل متبوعا بحشد كبير من الناس وفجأة سمعت صراخا مرعبا يتعالى. كان الحشد يتفرق كما لو أن الرعد ضرب تحت أقدامهم. ثم ظهر شخص مجذوم قادم بلا شك من أحد منعطفات المدينة حيث يجلس منبوذا ملعونا من طرف الجميع. كان هذا

المرض أشد فظاعة بحيث يفرض القانون معرفة كيفية تشخيصه حتى على الكهنة. اخترق المسكين الجميع محدثا الفراغ من حوله وجاء راكعا أمامي. كانت جلدته متورمة ومكسوة بالتشققات. عيناه مجوفتان وأذناه ضخمتان بشحمتين تتدليان. كان مظهره مرعبا وهو يستعطفني:

ـ سيدي. إذا أردت يمكنك أن تطهرني.

ـ أنا...

ينفتح مصراع الباب مصدرا قرقعة.

حارسا المعبد يتقدمان نحو يسوع. مالشوس صاحب الأذن المقطوعة يقيد يديه بواسطة حبل ويضع على عينيه عصابة. يقاوم يسوع بلا جدوى:

ـ أطلقا سراحي!

يقودانه إلى الخارج. يصفعه هواء المساء.

الخيول تصهل مرعوبة.

يرفعان جسده ويطرحانه بخشونة فوق سطح خشبي. يغطيانه بقماش. يدخل الليل في الليل.

تنطلق العربة، وعند كل رجة فجائية يحس يسوع بالاعتداء. إلى أين يأخذونه؟

أين هم الكهنة؟ ماذا حدث لياكيرا؟

ELI ELI LAMA SABACTANI[1]

يعلو صراخ يسوع إلى القمر المرعوب من إهانة ابن الانسان.

تمر ساعة، تمر ساعتان وربما ثلاث بينما العربة تهبط أزقة يهودية، تتوقف

---

(١) هذه هي الكلمات التي نطق بها يسوع قبل صلبه وهي تعني بالآرامية: ربي، ربي لم تخليت عني؟. المترجم.

أخيرا ثابتة داخل غمامة من الغبار. تشد أيد يسوع تدفعه وترغمه بضربة على الكليتين. يتعثر، وينهار ثم يرفع واقفا.

هل هذا معقول؟ كالأمس يسمع من جديد صياح الحشود، لكن هذه المرة جاءت مصحوبة بشتائم العرجان الذين لم يشفهم. كانوا يعنفونه بضربات عكاكيزهم. أما المجذومون الذين لم ينقذهم فكانوا يغرسون أظافرهم في ذراعيه. كذلك المتلبسون بالأرواح الشريرة كانوا يقذفون لعابهم على وجهه ناثرين روائحهم الكريهة والشيطانية حوله. كل بئيس في الأرض ألقى لعناته: لماذا لم تشفنا نحن أيضا؟ لم الآخرين فقط؟

سمع يسوع صوت الباب وهو يفتح.

يخمن أكثر مما يرى. هل هو وميض الشمعدان أم المصباح؟ لا إنه ضوء النهار.

تفك قيوده وتزاح العصابة عن عينيه.

يدفع إلى زاوية من الغرفة.

يقفل المزلاج.

الصمت.

داخل النور المعتم يلمح شبح شخص يمسك شيئا. هل هو سوط؟ هل سيعاد كل شيء مرة أخرى؟

ـ معلمي السلام عليك.

يسوع يتمالك نفسه.

ـ اقترب لم تختبئ؟

يتحرك الشبح ليصبح تحت بقعة الضوء.

ـ من أنت؟

الفصل الثاني عشر
بيت عنيا في ١٢ أيار

تحت قبة غرفة الطعام كانت مريم تقدم لضيوفها طبقا به خبز العسل.

نتعرف على الذين يجلسون حول المائدة الكبيرة: جان زوجة متعهد هيرودس ومريم المجدلية ولعازر وأخته مرتا، مريم كلوباس وأخيرا سلومي زبيدي.

ـ لم لم تحضر كلوديا؟ يسأل لعازر

ـ لقد خاطرت كثيرا. ترد جان.

كانت محظوظة لأن بيلات لم يكتشف غيابها ليلة قدومها لتحذيري من المداهمة الوشيكة للجنود.

ـ نعم، لكن للأسف، تدخُّلها لم يفد في أي شيء.

رفض بيير أن يهرب وسلم الآخرون أنفسهم طوعا في قيسارية وهذا سيعرضهم لعقوبة الحاكم.

يتوقف لعازر هنيهة قبل أن يواصل:

ـ إذا كنا اليوم نعقد هذا الاجتماع فرغبة منا لإيجاد تفسير لهذه الرسالة الغريبة التي وصلتنا. والآن سأعيد قراءتها: «إذا قال لكم أحد الأشخاص إنه يوجد يسوع هنا أو هناك، فلا تصدقوه. لأنه سيتبين لكم ان هناك يسوع مزيفاً بل أنبياء

مزيفين. طوبى لمن لم يره وصدقه». في الحال فكرت أن شخصا ما يحاول أن يزرع الفتنة بيننا. لأننا إذا صدقنا هذه الكلمات فسيدنا لم يبعث وأن الأمر يتعلق بخدعة.

ترفع سلومي كفها إلى فيها لكي تمنع صراخها:

ـ يا للفضيحة! إذن كنا نكذب. وماذا سنقول عن أختنا مريم التي كانت أول من شاهده؟

ـ وماذا نقول عن زوجتي عوفاديا التي زايدت على مريم كلوباس، فإذن كانت هي أيضا تكذب؟ هذا غير معقول. لقد أكدت لي أنها كلمت السيد في تلك الليلة حينما كانت تسير رفقة إحدى صديقاتها على طريق عمواس. بالاضافة إلى ذلك فعوفاديا ورفيقتها لم يتمكنا من التعرف عليه في الحال، فقد سألهما عما يتحدثان عنه ويجعلهما حزينتين، ففاجأهما أنه لا يعرف شيئا عما حدث خلال الأيام الثلاثة الأخيرة في أورشليم. فسردتا له ما حدث واعترفتا له ايضا أنهما يشكان في صدق انبعاثه عندها لامهما عن عدم ايمانهما بالسيد.

تواصل جان:

ـ ثم توقفوا في نزل. أليس كذلك؟

ـ لم يكن يسوع يرغب في ذلك، لكن عوفاديا ألحت عليه مثيرة انتباهه إلى أن الغروب وشيك. وحول مائدة الطعام تناول يسوع الخبز وتلا صلاة الشكر ثم غمسه وقدمه لهما.

ـ مع أن اليوم لم يكن يوم سبت. شدد لعازر على ملاحظته.

ـ نعم هذا صحيح. تتدخل مارتا. لكن حسب سمعان بيير والذين شاركوه العشاء الأخير. فإن يسوع تمنى عليهم أن يفعلوا ذلك كذكرى له، حتى خارج أيام السبت.

ـ كفى! تتعجب سلومي ماطّة شفتيها باشمئزاز. أيا كان من كتب هذه الرسالة، فنرى أنه يجهل الحقيقة كليا. إذا أردت رأيي فلنلق بهذه الورقة إلى النار ولا نفكر أبدا في الأمر.

ـ صعب، يلاحظ لعازر، يبدو أنك نسيت عنصرا مهما: هذه الرسالة كانت سببا في حادثة قتل. لماذا؟

يتبادلون النظرات، وكأن على رؤوسهم الطير.

تفرك مريم فروة شعرها بانفعال. مارتا تنقر فوق خبز العسل. ترفع مريم رأسها مخترقة لعازر بنظرة ثاقبة وكأنها لا تبصره، وإنما تنظر إلى شيء بعيد، بعيد جدا.

ـ ماذا دهاك يا مريم؟

ـ أفكر في مريم أم سيدنا. كم ستحس بالوحدة والحزن.

ـ ابنها الآخر يعقوب، أخبرني أنه ذهب للعيش في قانا عند أحد أقاربه. بلا شك كان محتاجا للابتعاد عن كل هذا الضجيج وهذه الحمى.

ـ يزعجني شيء ما في هذه القضية. يقول لعازر فجأة. ألا تنتهي الرسالة بـ «طوبى لمن لم يره وصدقه.»؟

يوافق الجميع على ذلك.

ـ إذن، فاستنتاجاتنا خاطئة.

تسري قشعريرة جسد الجميع.

ـ خاطئة، تكرر مريم كلوباس.

ـ فكروا معي، فقد استنتجنا سلفا ومن خلال هذه الكلمات أن المرسل حاول برعونة أن يزرع الشك بيننا. ومع ذلك فإن كان قد شكك في مصداقية شهاداتنا عن الآخر، فإنه في المقابل شكر الذين لم يروه وصدقوا أنه عاد من

بين الأموات. هل هذه فعلا رسالة شخص كافر؟

ـ معك حق. توافق سلومي بعد برهة من التفكير. هذا تناقض مفاجئ.

ـ خصوصا وأن الرسالة، يوضح لعازر، كانت سببا في جريمة قتل. هل يمكن أن تبرر رسالة حاولت زرع البلبلة في نفوسنا أن نقتل من أجلها؟ لا بكل تأكيد. كان لقاتل الخادمة غاية مهمة كي ينفذ جريمته.

ـ لقد لاحظت عنصرا غاية في الغرابة. تلاحظ سلومي. يتعلق ببيلات. تعلمون جميعكم أن الحاكم كان يتبرم من محاكمة السيد. تحدثت مع كلوديا وأكدت لي أن زوجها لم يخضع للأمر الواقع إلا بعد تهديدات الكهنة وخوفا أن يؤججوا ضده حقد الشعب مما قد يؤدي إلى انتفاضات عارمة. ووفقا لهذه الشروط، قل لِمَ اليوم إذن وكل شيء قد انتهى؟ يهاجم الحواريين. لماذا غيَّر موقفه؟

ـ حسب كلوديا. تجيب جان. فإن بيلات كان ضحية مؤامرة. وحسب قوله فإن يسوع نجا من الموت ويستعد للقيام بثورة.

يحرك لعازر رأسه:

ـ إذا كان بيلات على حق.

تنظر إليه النساء الست نظرة دهشة.

ـ أوضح قولك، تحثه مارتا على مواصلة الحديث.

ـ على كل حال، فلا أحد منا يستطيع أن يتأكد من المصير الذي آل إليه السيد. لكن هل مستحيل أن يكون مازال بيننا على قيد الحياة؟

تعابير حيرة تغطي الوجوه.

ـ ألم ينجز كل شيء؟ تذكر مريم كلوباس. ألم يؤكد أن ابن الانسان يجب أن يسلِّم نفسه إلى أيدي الذين سيميتونه. وفي اليوم الثالث سيبعث حيا؟

ـ هذا صحيح. توافق جان. ونقل وصاياه إلى سمعان بيير والآخرين. بالاضافة إلى أننا إذا فكرنا جيدا فقد يكون السيد قد قال هذه الكلمات الموجودة في الرسالة التي بين أيدينا.

ـ ممكن. يوافق لعازر. لكن كان شاهدا عليها؟

ـ حواريوه، يكفي أن نسألهم.

ـ صعب، أليسوا الآن في سجن بيلات؟

ارتفعت رياح قوية. يسمع في البعيد هدير بحيرة طبريا.

ـ أظن أنه توجد إمكانية للتحقق من هذا الأمر. تعلق سلومي فجأة.

يلتفت الحاضرون صوبها بانتباه، تنحني هي في اتجاه زوجة متعهد هيرودس.

ـ جان، أنت تعرفين كلوديا جيدا. سأحتاج مساعدتك.

أريحا في نفس اليوم

يبدو طوماس التوأم كطفل ضائع وهو يتناول كف زوجته ويضعها على خده.

ـ ماذا سأفعل يا ميراف؟ لقد تخليت عنهم. أنا خائن.

توبخه ميراف بحدة:

ـ توقف عن انتقاد نفسك بهذه القسوة. منذ يومين وأنت تنوح على مصيرك. ما الفائدة من ذلك؟ لأن لا شيء يمكن أن تؤاخذ عليه. هل ذنبك أنك لم تكن إلى جانب سمعان حينما اعتقلوه؟ وما هو جرمك إذا كان رفاقك قد قرروا تسليم أنفسهم إلى بيلات؟

ـ ألا تفهمين؟ كان من المفروض أن أكون إلى جانبهم!

ـ لا يمكنك أن تكون إلى جانبهم، لأنك كنت في أورشليم منصرفا إلى بيع الجلود للمعلم إسحاق. يجب أن نعيش. أرجوك توقف عن تعذيب نفسك وفكر في أطفالك.

يرفع طوماس عينيه الحزينتين في اتجاه جرشوم ومشولام. كان الطفلان يجلسان فوق كنبة على بعد خطوة من أبيهما، ينظران إله بصمت. .

ـ ميخيلا. سامحاني، أرجو أن تسامحاني يا صغيريَّ؟.

يواصل كلامه لكن صوب ميراف:

ـ ما الذي يبرر اعتقال سمعان؟

كان سيكمل كلامه، لكن منعه صوت قادم من النافذة.

ـ أبي، أشخاص يبحثون عنك.

ظهرت فتاة بشعر منفوش وراء إطار النافذة، وفي نفس الوقت سمع طرقاً على الباب.

قبل أن يتصرف طوماس وزوجته هرول غيرشوم لفتح الباب.

ـ هنا يسكن المدعو طوماس؟

وقف طوماس، وما أن ألقى نظرة واحدة حتى تعرف على حراس المعبد بأرديتهم المعروفة. حارسان يقفان أمامه وثالث يقف في الخلف.

ـ ماذا تريدون مني؟

ـ لدينا أمر بأن نأخذك إلى أورشليم.

ـ أمر مِن مَن؟

ـ من السنهدرين.

ـ لأي سبب؟

ـ لا أعرف ولا أريد أن أعرف.

يشير الحارس إلى طوماس بأن يتقدم إلى الأمام.

ـ لا، تصرخ ميراف، لا تذهب!

ـ هدئي من روعك يا امرأة، يزمجر الحارس. لا تحدثي البلبلة.

ـ دع الأمر، سأعود. قال طوماس بصوت خفيض.

راوغت الطفلة الواقفين، فاصطدمت بأمها. يلتفت طوماس نحوها يرفعها إلى حضنه ويقبلها، ثم ينحني ليقبل أيضا جبهة غيرشوم وميشولام.

ـ كونوا لطفاء، يا أبنائي. سأعود بسرعة.

ترتمي ميراف على زوجها محاولة إعاقته بكل ما أوتيت من قوة.

ـ لا تذهب، يا طوماس، لدي شعور سيٌء. لا تذهب!

يزيحها طوماس عن طريقه بلطف ثم يعبر عتبة البيت.

في مكان ما من يهودية. نفس اليوم

يدخل الشبح في دائرة الضوء. نيران القنديل المشعة تصبغ شعره بلون نحاسي ذي لمعان معدني. يكرر يسوع:

ـ من أنت؟

ـ ألا تعرفني إذاً؟

يرد ابن الانسان بالنفي مومئا برأسه.

ـ أحب أن تسامح قسوة الحراس. هؤلاء الكلاب السيٌئو الترويض. النباح والعض. هذا كل ما يعرفون فعله. يطلب منهم أمر، فيعضون.

يمد الرجل كفه ليسوع لمساعدته على الوقوف. يتجاهل ابن الانسان حركته.

ـ هكذا إذاً، أنت لم تتعرف علي؟؟

يتفحص يسوع بعناية قسمات وجه الرجل. هذا الوجه الثخين والقاسي، وهاتان الشفتان المختفيتان وراء اللحية العريضة. وهاتان الوجنتان الصلبتان، وهاتان العينان الخاليتان من كل تعبير.

ـ كيفاس!

ـ نعم يا بن مريم. أنا كيفاس.

يواصل الكاهن الكبير بنبرة محايدة مشيرا بإصبعه في اتجاه صندوق مصبوغ.

- ستجد فيه ملابس نظيفة. أظن أنك في حاجة إليها. يمكنك أن تستحم أيضا. هناك بئر قريبة من هنا.

يجلس فوق مقعد باسترخاء وهو يكرر:

- كلاب هؤلاء الحراس. صالحون فقط للنباح...

يتصاعد نفس يسوع:

- غالبا ما تنبح الكلاب إذا سمعت في البعيد كلابا أخرى تنبحها.

- هذا صحيح.

ترتسم ابتسامة مبهمة على شفتي الكاهن الكبير.

- أرى جيدا إلى ما تلمح إليه.

- كيفاس...

- أعرف أنك تتساءل إن كنت روحا أم بشرا. لا أنا كيفاس بعينه، سيد السنهدرين، أتيت إليك ماداً إليك يدي وبقلب صاف. أنا هنا لأنه أصبح من الضروري أن نتحدث.

- ألم نقل كل شيء؟

- ظاهريا نعم، لكن بقي الأهم معقدا. اسمح لي أن أذكرك ببعض التفاصيل. في البداية وهذه نقطة غاية في الأهمية. اعلم أني لم آمر باعتقالك في ذلك المساء. رغم أن هذه مهمة الكاهن الكبير لكن السلطة الكهنوتية كانت توجد دائما بيد حماي حنان. والأمر صدر منه. الدليل على ذلك أنهم حملوك إلى بيته أولا. كما حنان من استجوبك ثم نقلوا لي أنك رفضت بكبرياء أن تجيب، فاقترحت عليه أن يسأل الذين سمعوك سابقا. وفي نظري هذا تصرف مشروع جدا، لكن الاحترام المبالغ فيه الذي يحاط به حنان جعله يرى ان ما فعلته كان فضيحة. أحد الشهود أخبرني بما حصل. هل هذا صحيح؟

يوافق يسوع بحركة خفيفة من رأسه.

ـ رغم التعذيب الذي لاقيته، فحنان ليست له الشرعية لإصدار أحكام. لهذا أرسلك إلي. كنت على وعي أنه يضعني أمام الحائط وبلا منفذ غير إدانتك. في العمق فأنا لست سوى أداة في يد حماي. هذا ما قدر لي أن «يشيد حولي ويحيطني بالسم والآلام» وهكذا استدعيت إلى الغرفة المنحوتة في الصخر أعضاء السنهدرين، أو على الأقل من كان متواجدا آنذاك في أورشليم. وأنت تعرف البقية. كانت العقوبة قد توقفت لكننا نبحث عن ذرائع، ربما لهذا لم تحاول الدفاع عن نفسك، فأدانك المجمع بالإجماع بارتكاب الجريمة العظمى. غير أنه إذا كان حنان يملك سلطة الإدانة، فإن محكمتنا تخضع للقانون الروماني. ولم يكن لديها الحق باصدار حكم الاعدام، فكان من الضروري أن يصادق بيلات على قرارنا لكنه كره الامر وحاول أن يجد مهربا من احتجاجاتنا مرسلا إياك إلى هيرودس آمرا أن تجلد فقط أملا في أن يحد هذا من احتجاجنا. وفي محاولة أخيرة اقترح استبدال حياتك بتلك للمجرم بار ـ أباس

ثم. . .

ـ إلى ماذا تريد أن تصل يا كيفاس؟ لقد عشت هذه القصة وأعرفها جيدا.

يأخذ كيفاس متسعا من الوقت قبل أن يعلن بصوت أجش:

ـ أنا مثل نيقديموس ويوسف الرامي، لم أرغب أبدا في موتك. لم أرد ذلك. كنا نعرف أنك بريء.

يغمض ابن الانسان عينيه. يحس بدوخة. هل هذا ممكن؟ الرجل ندمان. هذا الرجل لن يكون كيفاس. ذلك الذي مزق ملابسه لاعنا بغضب «لقد كفر» الذي حسم ذات يوم قائلا: «من مصلحتكم أن يموت شخص واحد من أجل

الشعب أفضل من أن تموت أمة بكاملها من أجل شخص». ذاك الرجل لن يكون هذا الرجل الواقف أمامي. رأسه مطأطأ ووجهه يدل على الخسارة.

كما لو أن الكاهن الكبير سبر تساؤلات يسوع، فأضاف:

ـ مع ذلك، يا بن مريم. هذه هي الحقيقة المطلقة. وأكرر ذلك: أنا لم أرغب أبدا موتك وعلى غرار الروماني، وجدت نفسي محاصرا مرغما ومسيجا بفخ نصبه لي حموي.

يواصل بصوت منكسر:

ـ أتوسل عفوك، أنت المعروف دائما برحمتك. أنت الذي علمت الناس: «من يضربك على خدك الأيمن، أدر له أيضا الخد الأيسر» أنت الذي. . .

ـ هل تعرف على الأقل ما تعنيه هذه العبارة؟

يتردد الكاهن.

ـ واجب الاحترام. يا كيفاس. لا الاستسلام. هل أدركت يوما أنه عندما نضرب عبدا، فإننا نضربه دوما بظاهر اليد تعبريا عن الازدراء. إذا كنا مضطرين للضرب وهذه المرة على الوجنة اليسرى فيجب أن نفعل ذلك بباطن اليد. أردت فقط أن أقول: «اضربني ندا للند، لا كعبدك» إن المقصود الاحتقار الذي يعبر عنه من يتعرض للاهانة.

ـ أفهم. . .

ثم حدث ما هو غير معقول، كيفاس يجثو على ركبتيه متناولا كف يسوع واضعا فوقها شفتيه بخنوع.

ـ سامحني. . .

استغرق ذهول ابن الانسان بضع لحظات قبل أن يتحرر منه:

ـ لا، كيفاس!

ـ لا تخش شيئا، ألا ترى الإذلال في جلستي؟ ألا ترى، أرجوك، إحساسي بالألم؟

ـ هناك يا كيفاس آلام عندما تكون شديدة الحريق تجعلنا بلا إحساس تجاه كل شيء حتى بآلامنا الشخصية.

يتوتر الكاهن:

ـ هل أستنتج أنك ترفض العفو عني؟ هل تأبى خلاصي؟

ـ أنت حر في اعترافاتك. كما أنك لست في حاجة لعفوي. لقد نلته سلفا عندما التمسته من أبينا، فاستعطفته قائلا: «ربي اغفر لهم، فهم لا يعرفون ما يفعلون»

ينهض كيفاس ببطء:

ـ لم أكن أعلم.

ـ بطبيعة الحال. فشكوى الشعب لا تستطيع أن تخترق جدران غرفة المعبد المنحوتة في الصخر. حسنا ماذا تريد الآن؟ فحضورك يعني أن نيقديموس ويوسف الرامي قد باحا لك بما حدث: أنا حي.

ـ نعم، بفضل الرب. لم أكن أصدق كثيرا. وكم داعبت هذا الأمل. عندما طلبت من صديقينا أن يطالبا بجثتك من عند الحاكم. . .

يقطب يسوع جبينه.

ـ أنت طالبتهما بذلك؟ أنت؟

ـ نعم يا بن مريم. لم أحتج إلى جهد كبير لإقناعهما. كانا مقتنعين بقضيتك. خاصة نيقديموس.

ـ إذن فالفضل يرجع لك في أنني مازلت على قيد الحياة.

ـ نعم، لليهودي الذي طالما كرهته كرها شديدا.

ـ الكراهية. . . الكراهية. . . هذه هي الكلمة التي استنكرتها منذ زمن بعيد. يا كيفاس أنت لحد الآن لم تفهم شيئا.

ـ هل كان يجب أن أوافق؟ فأنت تريد أن تزيل نواميسنا الجارية وهي لآبائنا وأجدادنا. تريد أن تشكك في تعاليم التوراة. شعائرنا في التطهير. شرعيتنا. تريد أن تحطم مؤسساتنا، إلى درجة أنك كفرت مطالبا بتهديم المكان الأكثر قداسة: المعبد. لقد عبَّرت عن رأيي. وأنت لم يكن بإمكانك سوى كراهيتي.

يكرر يسوع:

أنت لم تفهم شيئا. لم أكن أبدا أريد إلغاء حرف واحد من كتابنا المقدس. لقد أعلنتها صراحة: «إن من يزيل أصغر الوصايا ويعلم الناس ذلك، فإنه سيدعى إلى أصغر مملكة في السموات، أما من يتقيد بها ويعلِّم الناس فعل ذلك، فإنه سيدعى إلى أكبر مملكة في السموات»

ـ لكن أليس تناقضاً أن نراك في نفس الوقت تخالط جامعي الضرائب مرتزقة روما المحتقرين. والعاهرات والسامريين والمجذومين والمعاقين؟ كنت تخترق تعاليمنا المقدسة على مرأى ومسمع من الجميع. ومن يتحدى الناموس، ألا يريد إلغاءه؟

لا يا كيفاس. هناك فرق بين الإلغاء والاستكمال. لا يمكن للشرائع أن تبقى على حالها لأنها لم تعد صالحة للانسان وهي القادمة من مكان بعيد وزمان سحيق مثقلة بآلاف الأوامر. لقد أصبحت عبئا جسيما على الانسان أثقل من حمل الجبال وأشبه بغبار بيت متروك للإهمال. ساعة إسرائيل قد حانت لتحتل مكانتها في العالم. حان الأوان لكي ندمج حيواتنا مع حيوات من يحيط بنا. وحان الأوان لنكتب منجزنا ضمن المنجزات اللامنتهية للزمان.

ـ حتى بالنسبة لعبدة الأوثان؟

ـ حتى لعبدة الأوثان. لكل شعوب العالم بلا أي تمييز. يجب أن ينتهي الليل الأعزل الذي شوهد فيه يعقوب يحارب الملاك. يا كيفاس، نحن شعب المساءلة ومن خلالها يدرك المرء كرم الرب العظيم. لا تنس، إسرائيل هي ملح الأرض. وإذا فقد الملح نكهته، فكيف يمكننا أن نعيدها إليه؟ ولن نحتاجها في أي شيء سوى أن ترمى إلى الخارج وتداس بالأقدام. أقولها لك. لم آت لإلغاء الناموس، أتيت لاستكماله وتحرير التوراة وتخليصها من المعتقدات العتيقة ومن بعض الالتزامات في بعض الشعائر البدائية.

بريق يشع من حدقتي الكاهن الكبير.

ـ من منحك هذا الحق؟ وممن استمددته؟

ـ استمددته ممن بعثني.

صمت. يحدق الكاهن في عيني يسوع.

ـ هل يمكنني أن أسألك نفس السؤال الذي طرحته عليك يوم الجمعة في الغرفة المنحوتة في الصخرة:

ـ هل تظن نفسك المسيح حقا؟

صمت.

ـ المهم يا كيفاس، ليس ما أعتقده أنا.

ـ لكن ماذا؟

ـ المهم ما سيعتقده الآخرون. هل ما سيعتقدونه كاف لزلزلة الجبال؟

يهز الكاهن رأسه عدة مرات وكأنه يوافق:

ـ إجابتك تناسبني ومن أجل هذا أنا هنا. لقد أعلنت أنه حان الأوان لأن تتخذ إسرائيل مكانتها في العالم. هل يمكنك أن تساهم في ذلك؟

ـ ألم أساهم سابقا في ذلك؟

ـ بل أكثر من ذلك وبطريقة باهرة.

ـ تكلم وبدون مواربة.

ـ تحدث معك نيقديموس ويوسف عن الأمل الذي ستحييه بانبعاثك في أرجاء الوطن.

ـ أمل مبني على البهتان.

ـ بواسطة هذا البهتان أصبح شعبنا من الآن فصاعدا يشعر بقوة أكبر وصيت أعلى. هل يمكنك أن توافق على هذه الطقوس المدنسة التي تنتشر على أرض إبراهيم؟ على بعد خطوات من قدس الأقداس تنصب نصب تمجد إسكولاب. هل يمكنك أن تسمح بذلك؟ هل يجب على شعبنا أن يعيش تحت ظل الأوثان اليونانية، وهذه المسارح المملوءة بالإهانات للرب؟ أليس جرحا هذا المحتل الذي يصول ويجول على أرضنا المقدسة؟ ألا يجب بأرضنا أن تستعيد حريتها؟

ـ بالتأكيد، لكن...

ـ وعليه فالمحتل يجب أن يرحل. في الحقيقة فإذا كانت عيوننا قد أعتمت، فلأن جبال «صهيون» مكتسحة بالثعالب التي تجولها بكل حرية. وبمجرد رحيل هذه الثعالب ستنفتح عيوننا وينقشع النور. سنعيد الملح التي تحدثت عنها قبل قليل. وللوصول إلى الهدف الأسمى، يجب أن يرحل المحتل ولأجل هذا سيكون دورك حاسما.

ـ كيف وأنا سجين هنا؟ ومنفي عن العالم؟ كيف؟

ـ ستقوم بواجبك، أن ترحل كي تفسح للأمل أن يكبر يوما بعد يوم. سيتحول رحيلك إلى قوة هائلة ستمتد إلى أصغر ذرة في رمال الصحراء. وذات صباح قادم لن نصبح أقلية تحمل السلاح ضد الثعالب. لكن شعب إسرائيل برمته، بلا خوف سيصبحون أسودا، لأنهم سيشاهدون المسيح يعلن الحدث

المرتقب لأورشليم السماوية، مملكة الرب الأزلي. لقد بلغني أنك قلت ذات يوم: «لم آت لأحمل السلام وإنما جئت حاملا السيف: إذن جرد سلاحك من غمده».

يتوقف كيفاس متفحصا يسوع منتظرا موافقته.

ـ هل تعي ما تقترحه؟ أنا...

ـ لا إنتظر! لا تردَّ الآن. أرجوك. فكر. فكر. يا بن مريم. فكر. اترك عقلك يتدبر الأمر. أستحلفك أن تفكر.

يواصل غير تارك ليسوع فرصة الرد.

ـ تأخر الوقت. يجب أن أتركك الآن.

ـ لحظة يا كيفاس. لم أحضرتموني إلى هنا؟

ـ يقطب الكاهن جبينه أسفا:

ـ لكي نحميك من نفسك. عندما اعترفت لتلك الخادمة، وضعت نفسك في خطر وهددت حلمك بالزوال.

ـ ياكيرا. ماذا فعلتم بها؟

ـ اطمئن، إنها بخير، طردناها فقط.

ـ وما كتبته أين هو؟

ـ إذا كانت هذه رغبتك، فسنعيده إليك.

يتوجه الكاهن الكبير نحو الباب. يفرجه قليلا ثم يلتفت نحو يسوع

ـ لا تنس: إذا كانت عيوننا قد أعتمت، فلأن جبال «صهيون» مكتسحة بالثعالب التي تجولها بكل حرية.

الفصل الثالث عشر
قيسارية إقامة بيلات في ١٤ أيار

رغم سماكة الستائر التي تحجب المدخل عن الشرفة، فإن فيض الاشعة يغمر الكعاب[١] الأربعة ذات اللون العاجي التي ألقاها بيلات في الهواء وقبل أن تسقط يستردها بمهارة عجيبة فوق الطبق وبنفس السرعة يرمي الكعاب مرة أخرى وقبل أن يسقط الكعب الأحمر يلتقطه في اللحظة الأخيرة.

ـ أنت ماهر جدا. تعلق كلوديا. لن أفوز أبدا في هذه اللعبة.

ـ لست مسؤولة، يا عزيزتي، فهذه اللعبة تحتاج إلى صفاء ذهني. لا أريد أن أضايقك لكن هذه المهارة نادرة بين النساء،

تحدق في زوجها بنظرة خالية من التعبير. كانت تفكر في أمر آخر. لم تنم الليلة برمتها، تبحث بين سهادها عن الشجاعة للافصاح عن ملتمسها الذي ستقدمه لزوجها الآن. أما إذا تركته إلى وقت آخر فقد يفوت الأوان. حينها قررت:

ـ هل صحيح ما يحكى؟ ستنقل المساجين من أورشليم إلى قلعة أنطونيا؟

---

(١) لعبة الكعاب هي لعبة قديمة جدا يعود تقنينها كلعبة تنافسية إلى العهد اليوناني وكانت لدى الرومان لعبة شائعة. الكعاب مفردها الكعب هو عظم صغير يستخرج من عظام الاغنام، فينظف جيدا ويصقل او يضاف اليه طلاء كالاحمر او الاخضر او الازرق ويتم اللعب برمي الكعب الاول مسافة محددة ويلحقه الثاني والثالث والرابع او اكثر، والذي يصيب احدها يربحها جميعاً. «المترجم».

ـ نعم، هذا ما أنوي فعله. القبعة مكان مضمون. لا أرغب في رؤية المتواطئين مع هذه العصبة يقومون بمحاولة اقتحام إقامتي بالقوة. لم هذا السؤال؟

تأخذ كلوديا نفسا عميقا.

ـ لأني أطلب منك معروفا.

ـ أنا أسمعك.

ـ طلبت مني أم سجين أن تسمح لها بزيارته قبل أن يرسل إلى أورشليم.

ـ طلبت الاذن ممن؟ أنا لم أتوسط بأي طلب.

ـ هذه المرأة قصدتني أنا.

ـ قصدتك أنت؟

تحتقن جبهة الحاكم:

ـ إليك؟

ـ لا تظن أن في ذلك إهانة لك. إنها صديقة، ف . . .

ـ ما اسمها؟

سلومي زبيدي.

يقلب الطبق بحركة مفاجئة مطلقا صرخة غضب:

ـ ما زلت تخالطين هؤلاء الأسمال مثيري القلاقل الراغبين في ضياعي. هذا غير معقول. كيف تجرئين على ذلك؟

ـ أنت مخطئ. هذه مسألة نسائية ولا علاقة لها بالبلبلة. أُمٌّ تطلب مساندتي. هذه أمٌّ فقط. وأنا لم أخالط أبدا حواريي الناصري!

ـ بالتأكيد، فقط زوجاتهم وأمهاتهم وعاهراتهم.

ينهض ذارعا الغرفة مهرولا محاورا نفسه بشتائم ولعنات.

لا ترد كلوديا، تعرف حالات غضب زوجها فقد تعودت. فلطالما شاهدته محمولا بهيجانه. ففي إحدى النوبات جلد عبدا جلدا مبرحا ملقيا إياه على الأرض. غضباته هذه لم تخفها البتة. لأنها بلا شك تعرف أن في أغلب الحالات يتحول هذا الغضب الشديد إلى نوع من الانهيار.

تغادر ببطء السرير حيث كانت مستلقية متوجهة نحو الستائر، تزيحها بعنف حيوان ضار مأسور منذ زمن بعيد. تندفع الشمس مجتاحة كل الزوايا.

ـ ماذا تفعلين؟ يلعن بيلات. أما كفاك هذا الحر؟

ـ احتاج إلى الهواء.

تعبر المرأة بفتور الشرفة المزينة بالتماثيل والفسيفساء الملون، ثم تتجه صوب الدرابزين المطل على الهضبة. يقتفي بيلات أثرها.

ـ لماذا؟ لماذا تخونينني؟

تلتفت مندهشة:

ـ أخونك؟ الأنني أحسست بحزن أم؟

ـ نفس الشيء شعرت به تجاه الجليلي. ألا ترين في أي وضعية تضعينني أمام هؤلاء الأشخاص؟ حاكم روما الذي يحاول فرض القانون في هذا البلد المليء بالفوضى زوجته تتواطأ مع عدوه! أليس هذا خبلا؟ تصوري معي للحظة أن تعاطفك وصل خبره إلى القيادة في سوريا. هل فكرت في النتائج؟

ابتسامة هادئة تشرق على شفتي كلوديا.

ـ يا صديقي، أنت تعيش في الوهم. زوجتك تتواطأ مع العدو، فليس لأنني تأثرت بالناصري هذا معناه أني متواطئة مع قضية من يحيطون به. لا أرغب مطلقا أن أرى البلد يعيش بين النار والدم. وأعلم جيدا أننا نحن أول من سيهلك. على العكس أنا أبحث فقط عن طريقة لمساعدتك.

ينظر إليها بيلات نظرة مستغربة.

ـ نعم. تواصل كلوديا. فكر معي. يسوع مازال على قيد الحياة وأنت تبحث عن مكانه. الرجال الذين أرسلتهم إلى أرجاء يهوذا للعثور عليه عادوا بخفي حنين. كما أن جواسيس هيروديس وقع لهم نفس الشيء. وها أنت تلقي القبض على حوارييه الذين رفضوا الاعتراف. الخلاصة: أنت تعيش فوق بركان ولا تعرف متى ستنفجر حممه.

ـ مسألة وقت. ففلسطين ليست سوى قرية ورجل واحد لا يمكنه أن يختفي إلى الأبد.

ـ لكنه وقت ثمين؟

ـ أعترف بذلك.

ـ أقترح عليك إذاً وباختصار ما يلي: هذه المرأة المدعوة سلومي. يمكن أن تمنحنا فرصة التقاط معلومة من ابنيها اللذين تبحث عنهما، فقد يعترفا بمكانه وهما لن يكذبا على أمهما.

ـ لنفترض أنك على صواب. لِمَ ستعترف لك بما عرفته؟

ـ لن تعترف لي بأي شيء.

ـ لا أفهمك جيدا.

ـ سأكون إلى جانب سلومي عندما ستتحدث إلى ابنيها.

يطلق الحاكم ضحكة صغيرة.

ـ هل أنت ساذجة لكي تصدقي أنهما سيعترفان بأي ثمن كيفما كان بحضور زوجة حاكم روما.

ـ أنا صديقة أمهما. لقد برهنت على ذلك في عدة مناسبات وهي تثق بي ثقة عمياء. ثم. . .

تتوقف كلوديا لحظة ثم تعلن:

ـ لقد وعدتها باسمك.

ينظر إليه بيلات دون أن ينبس بكلمة واحدة.

ـ نعم لقد أقسمت لها إنك ستسمح ليسوع بأن يغادر بحرية سليما معافى.

ينظر الروماني إلى زوجته نظرة ملغزة. هل هي لفرط دهشته أم لفرط حيطته أم هي لشدة الإعجاب؟

ـ هذا مدهش. يهمس بيلات. كنت أعهدك غريبة الأطوار ولست فاقدة لرشدك. هل تدركين جسامة تصرفك؟ الوعد باسمي!؟

ترمق كلوديا زوجها نظرة مليئة بالسخرية.

ـ صديقي العزيز. هل سأعلم حاكم روما أن الوعود تقدم باللسان أما القلب فلا علاقة له بالموضوع؟

في مكان ما من يهودية، نفس اليوم.

«وبمجرد رحيل هذه الثعالب ستنفتح عيوننا وينقشع النور. سنعيد الملح التي تحدثت عنها قبل قليل. وللوصول إلى الهدف الأسمى، يجب أن يرحل المحتل ولأجل هذا سيكون دورك حاسما».

تخوض كلمات كيفاس حربا داخل رأس ابن الانسان. أين هي الحقيقة، يا ربي؟ أليس تحرير أرض ابراهيم قضية نبيلة؟ أليست هذه مدينة داوود؟ ها هي كأرملة بعدما كانت عاصمة بين الأمم وأميرة الأقاليم أصبحت الآن تابعة تذرف دموعها طيلة الليل، ودموعها تسيل على خديها، و لا أحد من عشاقها يخفف عنها آلامها.

كان كيفاس قد استشهد عبارات قالها سمعان بيير: «لم آت لأجلب السلام، جئت بالسيف أيضا» لكن ليلة اعتقاله قطع أذن حارس المعبد. ألم يستصرخ: «أعد سيفك إلى مكانه، لأن كل من يحمل سيفا سيهلك به» صحيح أن الأمر لا يتعلق بنفس الحرب وبنفس السيف.

السيف الأول سماوي يرتبط بضرورة القطيعة مع العادات القديمة السارية

والانفصال عن الماضي والناموس الفاسد لإذابة قلب الانسان مفسحين المجال للنور كي يغمره. أما السيف الثاني فهو أرضي يرتبط بإراقة الدماء. لا يتعلق الأمر بنفس السيف. وهذا ما لا يستطيع كيفاس استيعابه

تقع عيناه المرهقتان على ورق البردي الذي أعاده الحراس إليه. امتلأت المحبرة من جديد.

«بماذا ستنفعك الكتابة؟ ولأجل من تكتب؟» كان قد قال نيقديموس متعجبا. وماذا لو كان محقا؟

لماذا إذاً؟ ولمن؟ إذا كان في الغد سيقتل. ولا ريب في ذلك. فالقتلة سيلقون بما كتبه إلى النار، ولن يبقوا شيئا. لماذا إذاً؟

ربما من أجل الصراخ بلاصوت كي نحذر الاجيال القادمة. الكتابة إذاً من أجل أن نبقى يقظين.

يستعيد يسوع القصبة، يتفحص رأسها لحظة ثم يغطسه في المحبرة.

يعيد قراءة الفقرة الأخيرة المكتوبة:

«اخترق المسكين الجميع محدثا الفراغ من حوله وجاء راكعا أمامي. كانت جلدته متورمة ومكسوة بالتشققات، عيناه مجوفتين وأذناه ضخمتين بشحمتين تتدليان. كان مظهره مرعبا وهو يستعطفني.

ـ سيدي. إذا أردت يمكنك أن تطهرني».

تستأنف اليد ركضها فوق ورق البردي:

يريدني أن أطهره؟ بأي قوة يمكنني ذلك؟ أنا ابن مريم صانع النير والمحراث. بأي قدرة؟ ألم يصف الناموس ذلك بقوله: «جميع المجذومين سيرتدون الثياب الممزقة ويحلقون رؤوسهم ويطلقون اللحى ويستصرخون: دنس! دنس!»

حينئذ تذكرت حكاية نعمان الواردة في سفر الملوك الثالث. كان نعمان قائدا لجيش الملك السوري ويتمتع بحظوة كبيرة لدى سيده، لكن الرجل الشجاع أصيب بجذام. وفي تلك الآونة أسر الجنود السوريون طفلة من بلاد إسرائيل. اتخذتها زوجة نعمان خادمة لها. وذات يوم قالت الطفلة لسيدتها: «آه! لو كان سيدي إلى جانب النبي هناك في السامرة، لأبرأه النبي من برصه!» حمل نعمان الخبر إلى سيده، فاقترح عليه هذا الأخير أن يسافر إلى السامرة حاملا هذه الكلمات إلى ملك إسرائيل «عندما تصلك هذه الرسالة. ستعلم أني بعثت لك نعمان، خادمنا المطيع، لكي تشفيه من الجذام» وما إن أدرك ملك اسرائيل محتوى الرسالة حتى سارع إلى تمزيق ثيابه متسائلا: «هل أنا إله كي أميت وأحيي؟ لماذا يقصدني كي أشفي شخصا من الجذام؟ » وعندما علم النبي إليشا بذلك أرسل للملك قائلا: «لم مزقت ثيابك؟ أرسله إليّ كي يعلم أن نبيا يوجد في إسرائيل» أطاع الملك، فأرسل القائد. عندما وصل بخيوله أمام بيت النبي قال له هذا الأخير من خلال رسول «اذهب واغتسل سبع مرات بماء نهر الأردن، لحمك سيصبح سليما وطاهرا» صاح نعمان محتجا: «أليست أنهر دمشق أفضل من مياه إسرائيل؟ يمكنني الاغتسال هناك وأصبح طاهرا» واستعد للرحيل غاضبا ومحبطا، حينها استعطفه خدمه: «لو طلب منك النبي شيئا صعبا ألن تنفذه؟ ماذا ستخسر إذا فعلت ما طلب منك؟ » عندئذ وعلى مضض وافق نعمان أن يتبع نصائح إليشا. توجه إلى نهر الأردن واستغطس في مياهه سبع مرات حتى أصبح جسمه كجسم طفل. في نفس اليوم عاد عند النبي وأمامه قال: «أعترف أن لا إله في الأرض غير إله إسرائيل»

وها هو يأتيني شخص مجذوم وأنا لا أسمع غير الكلمات التي صاح بها الملك: «هل أنا إله أميت وأحيي، كي يقصدني لشفيه من جذامه؟ »

لكن الرجل واصل استعطافي:

ـ سيدي، إذا أردت، يمكنك أن تطهرني.

مددت كفا مرتعشة وتوسلت إلى أبي أن يصبح دمي نهر الأردن.

وهمست:

ـ أريد ذلك، فلتتطهر إذاً.

في اللحظة نفسها أصبح الرجل طاهرا.

هل كان المقصود تأكيد الايمان؟ فبعد أيام من الشك تولد لحظة الأمل المطلق والحاسم.

ـ اكتم السر. أؤكد على الرجل. اكتم السر ولا تبح بما حصل لأي شخص كيفما كان.

كنت قد قدمت نفس الوصية لبايرس وزوجته عندما انتشلت ابنتهما من الموت، وكذلك إلى حواريّ في اليوم الذي استنطقوهم عما يقال عني.

كان سمعان قد قال بحماس: «أنت المسيح» وكررت نفس التحذير في منزلٍ في بيت صيدا. في ذلك اليوم استعاد فيه أعمى بصره عندما مسحت جفنيه بلعابي. كم مرة حاولت أن أخفف من حماسة المحيطين بي. لكن هذا المجذوم سار في الناس يحكي في كل مكان عن استشفائه الى درجة أصبح معها من المستحيل في أي مدينة أن لا يأتيني المرضى. كل البؤساء والمقعدين. ولهذا كنت في أغلب الأوقات أضطر إلى الإقامة في ضواحي المدن، أو في أمكنة مهجورة ومع ذلك فقد بقي المصابون بالأمراض يتدفقون من كل مكان.

شيئا فشيئا وبالقدر الذي تتزايد فيه شهرتي كان الكهنة يزداد حذرهم مني. وفي الوقت الذي سيقدرون حجم الخطر الذي أمثله، سيعود القرار لي أنا من سيختار الساعة التي سيسلم فيها ابن الانسان نفسه قربانا لهم.

ذات صباح من شهر تموز وصلني الخبر المرعب. كنت منذ أسابيع قد انسحبت صوب البحر متبوعا بعدد كبير جدا من الذين جاؤوا من جميع أنحاء البلاد. حتى من أرجاء صور وصيدون. ولكي لا تصطدم بي الحشود طلبت من سمعان بيير أن يبقي قاربه على الضفة. كنت على أهبة الصعود حينما جاء ناثانيل مهرولا صوبي ممتقع الوجه:

- رابي، صاح وهو يسقط أمام قدمي. رابي مات ابن عمك يوحنا.

يوحنا مات...

كنت على علم منذ شهور أن يوحنا يقبع بأمر من هيروديس داخل زنزانة القلعة المشؤومة مكاريوس «مكاور» التي توجد على تخوم البلاد. كنت أتمنى أن يمنحه الثعلب حريته في نهاية المطاف. كنت أرفض أن يحدث الأسوأ وها هو قد حصل: في يوم عيد ميلاد الحاكم وبطلب من ابنة هيروديا، المرأة المدنسة، تم إعدام يوحنا وقدم رأسه على طبق.

يا يوحنا، يا أخي وصديقي ومعلمي.

كنت مضطربا فتوجهت نحو الحشود المتجمهرة.

- الحقيقة أن يوحنا هي الشخصية المجيدة التي لم تلد أم مثله منذ عصره وإلى يومنا هذا. فتحت مملكة السموات غصبا واستولى عليها الطغاة. يوحنا هو وحي الأنباء جميعها وإذا أردتم أن تفهموه فهو إيليا الذي يجب أن يأتي. هو بالتأكيد! فمن له أذن فليستمع. بمن سأشبه جيلكم؟ إنه يشبه أطفالا يجلسون على مقاعد عمومية يوجهون كلامهم لأطفال آخرين: «عزفنا لكم الناي فلم ترقصوا، وأشدنا لكم أناشيد الرعب، فلم تبكوا» جاءهم يوحنا لا يأكل ولا يشرب فاتهموه أنه ملبوس بروح شريرة. وأنا جئتكم آكلا وشاربا، فلعنتموني: «ها هو الأكول الشروب»

محمولا بزوبعة من الشجن. رفعت قبضتي إلى السماء وصرخت:

ـ الويل لك يا كورزين. الويل لك يا بيت صيدا. لأن المعجزات التي حدثت فيك كانت قد حدثت في صور وصيدون ولكانت هاتان المدينتان قد أعلنتا توبتهما منذ زمن بعيد. صور وصيدون سيعاملان يوم القيامة بقسوة أقل. وأنت يا كفرنعوم هل ستسمَيْن إلى السماء. لا. ستنزلين أسفل سافلين لأن المعجزات التي حدثت فيك لو حدثت في سدوم لبقيت على قيد الوجود إلى اليوم. لهذا ففي يوم القيامة ستعامل بقسوة أقل مقارنة بك! تذكروا وسجلوا هذا في ذاكرتكم: أنا أتيت لأرمي النار على الأرض!

كنت مكسورا.

انا الذي كره اللعنات، ها أنا ذا ألعن بدوري.

تركت نفسي تنهار داخل قارب سمعان آمرا إياه أن يجعلنا نبحر بعيدا عن الضفة. بعيدا عن كل شيء. عذبني موت يوحنا لأيام وأيام. كنت خلالها أسمعه وأراه في كل مكان. كنت أشده بيدي وأضمه بقوة إلى قلبي برأسه المضرج بالدماء.

عندما عدنا إلى الساحل بعد يومين وجدناه مقفرا، فأخذنا طرق الجرف. عند وصولنا إلى الأعلى وجدنا جماعة من الأشخاص تنتظرنا. كانوا مسلحين بالحجارة يزمجرون كحيوانات. هذه ليس المرة الأولى التي يحاول فيها أعدائي قتلي. حدث هذا عدة مرات من قبل، حينما حاولت إنقاذ الفتاة التي كانت مدانة بتهمة الفاحشة. في ذلك اليوم كان غضبهم يزيد عشرات الأضعاف. كذلك عندما تجرأت على مواجهتهم قائلا: «أقول لكم الحقيقة. قبل إبراهيم كنت موجودا!»

تقدم الحشد باتجاهي. واضح أنهم ينوون إلقائي في هوة الجرف. كان بودِّي

أن أتركهم يفعلون لكن مهمتي لم تنته بعد، فقبلت أن يحيطني حواريّ لأبتعد عن الخطر.

يوما بعد يوم. كانت الانتقادات توجه إليّ من طرف الكهنوتيين، واللاويين والنساخ. واشتدت حدتها عندما كنت في بيت في بيت صيدا، فهاجموني ويخوني على عدم احترامي لطقوس التطهير وعلى اشتراكي الطعام مع الجباة والعاهرات، والأكثر فظاعة في نظرهم عدم احترامي تعاليم «بسار بحلاف» المرتبطة بالحلال والحرام في الطعام. وعند هذا الحد أعلنت غضبي:

ـ أيها الأغبياء! ألا تفهمون أن لا شيء يدخل جوف الانسان لا يمكن أن يدنسه. لأن ما يؤكل لا يدخل إلى القلب ولكن إلى البطن، ثم يمضي إلى أماكن سرية تطهر كل الأطعمة. كيف أقنعكم أن في القلب فقط تولد الأفكار الشريرة، الزنى، الفسوق، القتل، السرقة، القبح، الخداع، الفساد، الحسد، الافتراء، العجرفة، والجنون!

كيف سأجعلكم تفهمون هذا؟

ولأنهم واصلوا شتمي بالكافر والزنديق واصلت لعنتي:

ـ انتم ملعونون، أيها النساخون والفريسيون المنافقون. تطهرون ظاهر الكوب والصحن لكن داخلهما مليء بالنهب والجشع. اللعنة عليكم أيها النساخون والفريسيون، تشبهون القبور المبيضة من الخارج التي تبدو جميلة لكن في الداخل فهي مليئة بعظام الموتى النتنة. من الخارج تبدون مستقيمين لكن في داخلكم فأنتم مترعون بالنفاق والطغيان. شياطين أنتم! سلالة الافاعي! كيف ستهربون من جهنم؟

حاولت أن ألطف عباراتي بهذه الوصية:

ـ ما رأيته عند أبتي، ها قد بلغته.

حاول أحد النساخين الرد بنظرة تحد:

ـ نحن على الأقل لسنا لقطاء، لدينا أب واحد هو الرب.

أدركت إيحاءه المبطن، فقد اخترقتني عبارته كما الخنجر. فقلت ملاحظا:

ـ إذا كان الرب والدك، فإنك ستحبني، لأني منه أنحدر ومنه أتيت. لم آت بمحض إرادتي، لكن الرب من أرسلني. . .

رد هذه المرة بالصمت، لكنه صمت مثقل بالتهديد.

في نهاية شهر «آف» ؟يوليوز ـ غشت؟ توجهت سرا إلى منطقة صور وصيدون وفي ذاكرتي عبارات النبي حزقيال: «وأنت يا ابن الانسان، ألق على صور أغنية حزينة. ستقول لصور: آه! يا من ترفلين بجانب البحر. من شيدك جعلك كاملة الجمال»

تقع المدينة في أقصى شبه الجزيرة، على رأس صخري. عدد كبير من أمكنة العبادة تنتصب أمام البحر، من بينها معبد هرقل. يوجد رسم هذا الاله على العملة التجارية في أورشليم. اقترح أحد أقرباء نثانيل أن يستضيفنا في داره حيث كنت أرغب في قسط من الراحة، لكنها كانت قصيرة الأمد. بعد أيام معدودة رغبت امرأة كانت ابنتها ملبوسة بروح شريرة. كانت المرأة كنعانية، استعطفتني أن أساعدها، فرفضت بشكل قاطع.

صدها أيضا سيمون بيير والآخرون بجفاء.

ـ اخرجي يا امرأة! لم يحضر هنا إلا من أجل أطفال إسرائيل.

وأنا بدوري زدت الطين بلة عندما قلت:

ـ ليس جيدا أن ننزع الخبز من أفواه الأطفال لإعطائه إلى الكلاب!

وبمجرد إدراكي لما قلت، أحسست جسامة التقاليد العتيقة التي اعتقدت واهما أني تخلصت منها. اجتاحتني رشة باردة. حسب القانون من كان غير

إسرائيلي فهو مدنس وهذه المرأة تعتبر مدنسة تدنيسا لا يمكن إزالته. ليس جسدها فقط بل روحها أيضا.

امام هذه الإهانة كان على المرأة أن تفر باصقة حقدها علينا، لكن بدل ذلك ردت بصوت هادئ:

ـ معك حق، ياسيدي، لكن حتى الكلاب قد تكتفي بالفتات الذي يسقط من المائدة. وأنا لا أطلب أكثر من ذلك. شعرت أن الأرض تدور بي. فأقسمت أن لا أسمح لنفسي أبدا ان تتفوه بمثل هذه الكلمات العتيقة. ألم أعد الناس جميعا أن أفتح لهم أبواب الشرق على مصراعيها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا؟

لن أكرر ذلك أبدا.

قيل لي إن المرأة لما عادت إلى بيتها وجدت طفلتها قد شفيت. في هذه الفترة من حياتي كنت مجتاحا بالأسئلة. ليس حول المهمة التي كلفني بها الرب. لكن عن حواريَّ. هل يدركون حقا حمولة رسالتي والهدف الذي حددته لنفسي؟

بدا بيير في البداية أشد قلقا من غيره. فمنذ اليوم الذي نعته فيه بالشيطان ازداد اضطرابي وبدأت ظنوني تتأكد عندما سمعتهم في طريق العودة يناقشون بعنف. فاكتفيت بالصمت. وما إن وصلنا إلى مدخل بارام حتى بادرتهم بالسؤال:

ـ حول ماذا كنتم تتحدثون طوال الطريق؟

أخفضوا رؤوسهم صامتين ومحرجين.

لا طوماس ولا يهوذا ولا بارتلومي. لا أحد وجد الشجاعة ليعترف بما أعلمه سلفا. كانوا يتطاحنون حول أي منهم كان أعظم مرتبة.

ما العمل؟ اقتربت منهم. تفحصتهم بصمت وهممت:

ـ اعلموا أن من يريد أن يصير الأول فسيصبح الأخير وخادما للجميع.

تمنيت لو أنهم سبروا معنى هذه الكلمات، للأسف، فبعد أسابيع وحينما كنا نتشارك وجبة طعام في بيت يعقوب وجان ابني زبيدي، «ابنا الصاعقة» كما كنا نطلق عليهما. ها هي أمهما تسجد فجأة أمامي:

ـ رابي. قالت لي. أحب أن تقدم لي خدمة.

ـ ماذا تريدين؟

ـ اسمح لإبنيَّ أن يجالساك عرش مملكتك. الأول على يمينك والثاني على يسارك.

وعلى الفور تأكد لي أنني لم أنجز أي شيء.

فكرت في يوحنا، فأحسست مثله أنني لم أولد غير صوت يصرخ في الصحراء.

حاولت كبح سخطي، فأجبتها:

ـ أنت تدركين ما تطلبين. الجلوس على يميني أو على يساري ليس من قدراتي. اسمعيني جيدا. تريدون أن تصبحوا زعماء. لكن من ننظر إليهم كزعماء للأمم ليسوا في الحقيقة غير طغاة.

أكرر كلامي:

من يريد أن يكون عظيما منكم، فليكن خادما للجميع. لأن ابن الانسان أتى لا ليخدمه الناس وإنما كي يخدم ويقدم حياته فداء لكل الناس.

علت بعد ذلك ضوضاء غاضبة من تدخل المرأة. هاجمت الجماعة يعقوب وجان. وقفت محبطا محتاجا إلى نفس رباني. أحسست بثقل العظايات، الطيور، الأشجار، أشجار الزيتون، دوالي العنب، الشمس. كل ثقل الخلاص أو الضلالة يجثم على كاهلَي الانسان الضعيف. أحسست برغبة عارمة في الصراخ...

أورشليم ليلا. قصر الكاهن الكبير. في ١٦ أيار.

عند الغروب. لم تهب أي نسمة هواء منعش. يجلس حنان منغرسا في مقعده يحرك مروحته بعصبية يكاد يختنق. يفكر، كيف كمد الذهب؟ وكيف أتلف؟ كيف انتثرت الحجارة المقدسة في كل مكان في الأزقة حيث لا يتصاعد أي صوت؟ تحت الضوء الشاحب المرسل من طرف المصابيح الزيتية يتهيأ له رؤية أشباح يهوه، صموئيل، حزقيال. جيريمي، هوشع، يوئيل، عاموس. ومن بعدهم كل قبائل الأسلاف الاسرائيليين. . اين هم؟ ربي ومعلمي أين هم الانبياء؟ ألا ينبغي أن يكونوا على قيد الحياة دوما؟

فجأة صوت خطوات تعيده إلى هواجسه الأرضية. إنه كيفاس.

ـ إذن؟ يسأل حنان. هل رأيته؟ .

ـ لا، أمرت أن يحضروه إلينا.

ـ أقدر صرامتك.

ـ أعتقد أنه من المفضل أن نكون معا لمعاينته.

ـ أين اعتقلوه؟

ـ في بيته في أريحا. ولم يبد أي مقاومة.

ـ كرفاقه، قال بيلات، الذين سلموا أنفسهم بوداعة كبيرة كمجموعة من الخنازير.

يوافق كيفاس بشرود وهو يجلس بجانب حماه.

ـ أفترض أن الجليلي ما زال على موقفه.

في صوت حنان، نحس أنه توكيد أكثر منه تساؤلا:

ـ ليس بعد، لكنه بدأ يتأرجح. أنا متأكد أن زيارتي بلبلته بعمق. لم يكن بإمكانه أن يتوقع زيارتي له، .ورؤيتي أمامه متواضعا كأي مخلوق بئيس أستعطف عفوه.

ـ وهل صدقك؟

ـ بلا ريب. بالنسبة لرجل حماسي، لا بد أن تقدم له كذبة حماسية.

يتوقف الكاهن الكبير كما لو ان فكرة أشد قوة من غيرها قد انبثقت أمامه:

ـ خلال هذه المقابلة بدا الجليلي أشد خطورة من ذي قبل. لقد فعلنا حسنا بتصفيته.

توقف عن تحريك المروحة.

ـ فسر لي أكثر!

ـ لكي انتزع منه عفوه، ذكرته بعبارة سمعتها من قبل قال فيها: «إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فقدم له ايضا خدك الايسر» وعلى غير المتوقع أجابني بسرعة مصححا وشارحا أن هذه العبارة لا تعني الخضوع وإنما ازدراء المعتدي. وجدت هذا الكلام رهيبا. كيف لنا ألا نحتاط من رجل بمثل هذا الدهاء!

ـ داهية لقيط. هل تعلم أن أمه كانت تزني مع جندي يدعى ابن بانديرا[1] في مدينة صيدون؟

حملق كيفاس.

ـ آه نعم! نال هذا الجندي بعد خمس وعشرين سنة من الخدمة العسكرية المواطنة الرومانية فغيَّر اسمه إلى تبريوس يوليوس بانتيرا. ظلت فرقته العسكرية هنا لعدة سنوات قبل أن تنقل إلى حيث لا أدري، لقيط إذاً، لكنني أعترف بأنه يملك ذكاء كبيرا، لأنه أدرك أن الطريق إلى السلطة لا تنحت في الصخر بل من سذاجة الشعب. ماذا فعل خلال تنقلاته؟ من كان يخاطب؟ ما هي الطائفة من الشعب التي حاول إغواءها؟ البؤساء والمدنيون والمعاقون الذين لا قيمة لهم. حثالة العالم. باختصار كل من كان يكرهنا. هل تفهم الآن لماذا أصبح

---

(١) أنظر الصفحة ٢٩٥.

مستعجلا أن نضع حدا لهذه القضية؟ غير وارد إطلاقا أن يستعيد هذا الشخص حريته ويبقى هنا. وأخشى أن أكرر نفس الكلام. أنا لا أوافق على قرارك أنت ونيقديموس وآخرون. الهدف الذي أردناء حققناه. سيواصل النهر جريانه ولا شيء يمكن أن يوقفه. إذن لم سنبقي الجليلي على قيد الحياة؟ لم سنخاطر بتعريض كل شيء للخراب؟

يعبر كيفاس عن قلقه:

ـ في الحقيقة، قد تكون على صواب، لكننا لا يمكن أن نصبح قتلة أمام الرب. أنت تعرف وصيته: «لا تقتل قط»

ـ أذكرك كذلك بقوله: «من مصلحتكم أن يموت شخص واحد من أجل الشعب على أن تموت الأمة بكاملها»

ـ هذا صحيح، لكن. . .

حركة غير عادية عند مدخل القاعة. توقف الكاهن الكبير والتفت:

توماس التوأم محاطا بحارسين يحملان مشعلين. يدخلون القاعة.

ـ اقترب! يأمر كيفاس.

يستجيب الحواري.

ـ اقترب أكثر!

ينحني الكاهن الكبير ليتفحص قسمات وجه المعتقل برهة ثم يلتفت في اتجاه حنان. يتبادل الطرفان نظرات تشاورية.

ـ لا تشابه. يتنفس كيفاس الصعداء

ـ أبدا. يؤكد حنان.

ظهر الاحباط على وجه الكاهن الكبير.

ينظر إلى توماس بضجر:

ـ أنت تنتمي فعلا إلى حواريي الجليلي؟

ـ نعم.

ـ من أين لك هذا اللقب؟

ـ أي لقب؟

ـ أليس اسم توماس يعني توأم.

ـ بالآرامية وليس باليونانية.

ـ ألست يونانيا؟

ـ بلى. لكن أسرتي أتت من آسيا الصغرى، من قرية ديديم جنوب أفسوس. أعتقد أنه من هناك أتى إسمي التوأم.

ـ أطلق سراحه. همهم كيفاس. فليرحل!

بمجرد انصراف الجنديين يقف حنان ويخطو بضع خطوات ثم يعود صوب زوج ابنته.

ـ والآن؟

يحرك كيفاس رأسه.

ـ لا أدري.

ـ أثبت نيقديموس ويوسف أن صاحبنا لم يغادر حبسه قط. ولا يمكن أن نضع كلامهما موضع الشك. وفي نفس الوقت جواسيس هيروديس يؤكدون رؤيته على ضفة البحيرة. ماذا يحدث يا كيفاس؟

يرفع الكاهن الكبير يديه عاليا ثم يتركهما تسقطان بضجر.

ـ أصغ إليّ جيدا. يواصل حنان. حان الوقت لكي نضع نهاية لهذه القضية. أنا لا أعرف ما وراء هذه التجليات الغريبة. لكن أصبح مستعجلا أن يعود هذا السيف المصلت علينا إلى غمده. كنت دائما أرى أن الإبقاء على هذا الرجل حيا سيشكل خطرا لا حدود له. وكنا نتذرع بأن القتل حرمه ناموس موسى.

لقد انخرطنا في طريق تقود مباشرة نحو الهاوية. أنا لا أرغب في هذه الهدنة المنافقة. يا أخي أليست محكمتنا من أدانت هذا المحرض بالاعدام؟ إذا كان هذا سيريح ضميرك فلنطلب من المحكمة أن تعيد محاكمته. يجب أن ننتهي! هل تسمعني، يجب أن ننتهي منه.

يتلعثم كيفاس.

ـ تريد أن تقول...

ـ... السنهدرين من سيقرر. هو من نطق الحكم في المرة الأولى وسيكرره. هو وحده من سيحسم إن كان يسوع يجب أن يموت أم لا.

كانت شفتا العجوز ترتجفان وهو يشير بسبابته تجاه صهره.

ـ اعلم أن هناك لحظات تصبح فيها الوساوس عبارة عن هوام تعوق تنفيذ القرارات الحاسمة.

الفصل الرابع عشر
قيسارية في ١٨ أيار

رغم المشاعل المعلقة تنتشر بقع من الظلمة على طول الممشى. يخطو السجان وفي يده مصباح. تتعقبه كلوديا بروكولا وسلومي زبيدي. هذه الأخيرة حملت معها سلة مملوءة بالطعام: الخبز والجبن والرطب والفواكه.

هدوء تام، فقط أزير قطرات الرطوبة التي تنزلق أحيانا من الحيطان.

ـ إنه هنا. يعلن السجان متوقفا أمام الباب. كنا مضطرين إلى وضعهم داخل زنزانتين.

أثناء حديثه. أدخل المفتاح في القفل الأحمر الصدئ محدثا صريرا حادا.

ـ هاهم بين يديك.

يعهد بالمصباح لكلوديا.

تتقدم المرأتان صوب عتبة الزنزانة محاولتين العثور على شخص بعينه بين الظلال الشبحية.

ـ إيما. يصرخ صوت.

هب رجل من مكانه في تجاه سلومي.

ـ إيما! ماذا تفعلين هنا؟

ـ بني يعقوب.

ـ كيف وصلت. . .

توقف فجأة عن الكلام عندما اكتشف وجود زوجة بيلات.

ـ إنها صديقة. تحاول أن تطمئنه. بفضلها تمكنت من الوصول إلى هنا.

ـ كلوديا! يتعجب سمعان بيير

ـ نعم هي. يؤكد ماتيوس ليفي

يقترب الحواريان، وكأنهما قدا من الجماعة القابعة في الزنزانة.

ـ سلام عليك يا بيير. تهمهم كلوديا.

ـ سلام عليك.

يلتفت في اتجاه الآخرين:

ـ لمن لا يعرف، فأختنا هذه تعتبر من أكرم المحسنات.

ـ أين أندريه؟ تسأل سلومي بقلق. أكد لي السجان أنه سيكون هنا. هل حدث له مكروه؟

ـ لا يا أمي. إنه بخير لكنه محبوس مع الآخرين.

تعهد سلومي بسلة الطعام الى ابنها.

ـ خذ هذا لك.

ـ هل تعرفين لم نحن هنا؟ يسأل برتلومي. ما هو سبب القسوة التي يعاملنا بها الحاكم؟

تهز زوجة بيلات رأسها بحزن كبير.

ـ هو وهيرودس يعتقدان أنهما وقعا ضحية مؤامرة. يعتقدان أن يسوع مازال على قيد الحياة وأنه مستعد من جديد لإثارة الاضطرابات.

ـ هذا غير معقول. سيدنا غادرنا منذ شهر تقريبا وحتى وإن كان مازال في عالمنا هذا. فهو لم يدعو أبدا إلى العنف. قلقهما هذا ليس في محله.

ـ متى ظهر لك أول مرة؟ تسأل سلومي. بالتأكيد مازلت تتذكر.

ـ طبعا. يجيب سمعان بيير. بعد اثني عشر يوما من انبعاثه. كنا في طريق العودة من الصيد حينما رأيناه يقف على الضفة. وعندما لاحظ أننا عدنا بخفي حنين اقترح علينا أن نجرب حظنا على الجهة اليمنى من القارب. فقمنا بذلك وما إن حملنا الشباك حتى وجدناها ثقيلة إلى درجة أننا خفنا أن تحطمنا. بعد ذلك اقتسمنا السمك وتحدثنا. مازلت أتذكر ذلك جيدا لأن المعلم يومها سألني ثلاث مرات إن كنت أحبه.

ـ من كان منكم حاضرا؟

لا أتذكر جيدا. أظن أن توماس كان حاضرا معنا.

ـ نعم كنت حاضرا أنا أيضا. قال يعقوب وأندريه كذلك.

ـ أنا أيضا يوضح نثانيل. أظن إن لم تخن الذاكرة كان معنا ثادري أيضا.

ـ لم هذا السؤال؟

ـ في ذلك اليوم لم تكونوا وحدكم على الضفة، كان أيضا جاسوسان لهيروديس اقتفيا أثركم وشاهدا الواقعة كاملة. وهذا ما يفسر ذعر زوجي لأنه إلى غاية ذلك اليوم كان مقتنعا أن انبعاث يسوع كان مجرد ثرثرة.

ـ إذن فبيلات يعتقد حقيقة أن يسوع مازال على قيد الحياة.

ـ يعتقد أنه لم يبعث أبدا لأنه أصلا لم يمت وأنت تعرف أين يختبئ. توضح سلومي.

ـ يا له من جنون!

ـ هناك ما يقلق أكثر. تضيف سلومي، انظر إلى هذا... تنشر امام سمعان بيير رقعة مربعة من ورق البردي. اقرأ بصوت عال:

ـ «إذا قال لكم أحد إن يسوع هنا أو هناك، فلا تصدقوه. لأنه سيظهر يسوع مزيف وأنبياء مزيفون. طوبى لمن لم يره وصدقه»

يرفع الحواري عينيه الحائرتين:

ـ من كتب هذا؟

ـ هذا بالتحديد هو السؤال الذي نطرحه. هل المعلم قال يوما مثل هذه العبارة.

وافق الجميع.

ـ وقد قال أيضا. قال ماثيوس: «لأن يسوع المزيف والأنبياء المزيفين سيظهرون ويصنعون علامات ومعجزات عظيمة إلى درجة أنهم سيفتنون المختارين أنفسهم»

ـ نعم هذا صحيح. يؤكد سمعان بيير. في ذلك اليوم كنا قد عبرنا هضبة كيدرون ثم وصلنا جبل الزيتون، عندها اشار يسوع إلى المعبد وقال: «هل تشاهدون هذا؟ فلن يدوم حجر على حجر لأن كل شيء سيتحطم»

ـ لكن لماذا قرر أن هذا التحذير كان ضروريا؟

تسأل كلوديا.

ـ كنا قد سألناه عن العلامات الدالة على نهاية الزمان.

يسود صمت بالكاد تشوش عليه طقطقة المشاعل.

ـ على سبيل الاحتياط. تسأل كلوديا. هل باستطاعة أحدكم أن يتحقق من صحة الخط؟ قد تكون هذه كتابة المعلم؟

يتشاور الحواريون بارتباك.

ـ مستحيل. يجيب يعقوب زبيدي. كل الوقت الذي قضاه معنا. لم نره مطلقا يكتب أي شيء.

ـ نعم، مرة واحدة يؤكد ماثيوس ليفي. مرة واحدة عندما دافع عن تلك الفتاة المتهمة بالفاحشة. كان قد سأله الكهنة عن المصير الذي يقره الناموس لمثل

هذه المعاصي. لم يرد فورا بل قرفص قليلا وأخذ يكتب على الرمل كتابة بسبابته.

ـ هذا صحيح. يوافق يعقوب. لكننا كنا بعيدين لكي نقرأ ما كتبه.

ـ بالطبع، غير أني تسللت بعد الحادثة وانصراف الجميع فذهبت لمعاينة المكان. كنت منذهلا جدا بحركاته. أعترف أن الفضول كان يضطرم بداخلي.

جميع الحاضرين شدوا أنفاسهم. ثم قال:

ـ «عندما تصنع من الاثنين واحدا»

ـ عندما تصنع من الاثنين واحدا؟ تكرر سلومي. ماذا يعني هذا؟

ـ لم أتجرأ يوما على الاستفسار منه. يتنهد الجابي. يلتفت نحو رفاقه متسائلا:

ـ هل يعرف أحدكم معنى هذا الكلام؟

تغمر تعابير الأسف الوجوه كافة.

ـ على أي حال. يواصل ماثيوس. لن يكون بمقدوري أن أعقد مقارنة بين هذه الكتابة وتلك التي شاهدتها. إلا إذا...

يصمت فجأة ثم يسأل بيير:

ـ هل يمكنك أن تريني الرسالة؟

يسلمه بيير الرسالة. يتفحص الجابي لبرهة ورق البردي قبل أن يعلن:

ـ ربما هناك شيء، مع ذلك، لن أتسرع في القول، لأنني لست متأكدا مما سأقوله.

يضع سبابته فوق ورقة البردي.

ـ هل ترى هذا الحرف ± [1] يحتوي على نفس عنصر الغرابة الذي لاحظته

---

(١) حرف السين بالأرامية.

عندما قرأت كلمات السيد في ذلك اليوم: خطان أفقيان في حين يجب أن تكون ثلاثة خطوط. مذاك رجحت سبب الخطأ إلى صعوبة الكتابة بدقة على الرمل. لكن هنا، فالأمر مختلف. في الرسالة نفس الخطأ يتكرر ثلاث مرات.

ـ هل تدرك ما تقوله؟ يتدخل سمعان بيير. إذن كنت محقا، عندما اعتقدت أن يسوع من كتب هذه الرسالة. كما أن بيلات لم يكن مخطئا، فالسيد يتواجد بيننا في فلسطين.

ـ ذهبت بعيدا جدا. لقد قلت ذلك جيدا، فأنا غير متأكد. هذا حدس فقط.

ـ حدس. . . يلاحظ برتلومي. لكن هذا محير خصوصا وأنني أتذكر الان عبارة قالها المعلم خلال عشائنا الأخير. قال: «لن تروني أبدا بعد زمن يسير ثم تروني فيما بعد لأني ذاهب عند الأب» في ذلك الحين لا أحد منا استوعب دلالة الكلمات. بعد زمن يسير. . . هذا الزمن اليسير ألن يكون قد فات أوانه؟

لا أحد تجرّأ على النطق بكلمة واحدة. حينئذ أصر برتلومي قائلا:

ـ أسأل سؤالا آخر: كيف تفسرون أن شخصا غريبا عن جماعتنا هو من تمكن من التعرف على الكلمات التي قالها سيدنا؟ في ذلك اليوم وذلك الحين لم يكن متواجدا غيرنا. إذاً؟

يهتز يعقوب ضاحكا بتوتر:

ـ اهدؤوا! اهدؤوا! صرخ سمعان بيير.

يضم يديه إلى صدره منتظرا عودة الصمت ثم قال بصوت هادئ:

ـ لا أحتفظ من مناقشتنا إلا بشيء واحد، والذي يبدو لي أكثر حسما من تشابه في الخطوط. فعلاً لا أحد منا يمكنه أن يكون على علم بتحذير يسوع، ثم إنك يا برتلومي لست وحدك من يتذكر عبارات السيد، أنا أيضا أحتفظ بذكرى عن نبوءة، نكتشف اليوم فقط دلالتها: «الحقيقة أقول لكم. هناك بعض الأشخاص ممن هم حاضرون هنا، لن يصدقوا الموت عندما يرون ابن الانسان

عائدا إلى عرشه» كيف لم نتمكن من إدراك أن السيد كانت عودته وشيكة الحدوث أكثر مما كنا نتوقعه! يأخذ نفسا عميقا ثم يضيف:

ـ ها قد استيقظ في أعماقي قلق رهيب وبدأ قلبي ينقبض. إذا كان السيد لأسباب نجهلها مازال على قيد الحياة في فلسطين فمن واجبنا إذن ان نكون الآن بجانبه.

ـ معك حق. يعترف يعقوب. لكن كيف؟ نحن محبوسون وحتى وان كنا احرارا فأين سنعثر عليه؟

يلتفت سمعان بيير صوب زوجة الحاكم.

ـ أختي كلوديا. يجب ان تساعدينا أرجوك.

ـ إذا كان بمقدوري سأفعل. ماذا تنتظر مني؟

ـ أن تقنعي زوجك بأن يمنحنا حريتنا.

ـ بيير لا أملك هذه السلطة! أنا...

ـ ستهتدين إليها لأنك تملكينها.

تنظر إليه المرأة نظرة استفهام.

ـ يكفي أن تشرحي لبيلات أننا نعرف مكان يسوع. وانه لا نفع لديه في أن يبقينا سجناء وأن لا أحد منا سيعترف بأي شيء. في المقابل إذا تركنا طلقاء، فإنه بإمكانه أن يقتفي أثرنا لنأخذه إلى مكان السيد.

ـ نأخذه إلى السيد؟! يضطرب ماتيوس. هل فقدت عقلك؟

وتمتم سمعان بصوت ناء بدل الاجابة:

ـ لا تخف يا أخي. عندما الطرقات تصبح ممنوعة فإن الدروب تبقى متاحة.

في مكان ما من يهودية. نفس اليوم.

يرتعش لهب المصباح مرسلا وميضه فوق وجه ابن الانسان الذي ينحني على المائدة.

من يؤمن بي، فهو لا يؤمن بي بل بمن بعثني. ومن يراني فهو سيرى من بعثني.

كل هذا الزمن لم أسع إلا لتنفيذ إرادة الأب. الأب في أعماقي وأنا في أعماقه.

في قلبي وفي رأسي تنشق الزوابع والدوي والعواصف والشك واليقين. الحقيقة يا أدوناي. الحقيقية التي نعتقد امتلاكها بينما هي تنسل كالماء بين فروج أصابعنا. سيسلِّم ابن الانسان نفسه إلى الناس ثم يجعلونه يموت، لكنه سيبعث بعد ثلاثة أيام.

ماذا حدث؟ كانت مع ذلك كلماتك المعلنة بصوتي كلماتك. كلماتك يا أبي. ماذا حدث لكي أبق في عالم البشر؟ هل سأكون ضالا إلى هذه الدرجة؟ لعازر مات، وابنه جيروس مات أيضا. المعاقون ليسوا معاقين والملبوسون بالأرواح ليسوا ملبوسين إلا في مخيلتهم. العميان كانوا مبصرين، وأنا، أنا من كان المعميّ. يجب أن أعلن الخبر السعيد لمملكة السماوات. لأنني لأجل ذلك بعثت.

نعم من أجل ذلك خلقت من الطين. حفنة طين بسيطة ومطواعة، معجونة بين يدي الرب.

«سيبتعث بعد ثلاثة أيام. . . »

كانت حقيقة مؤكدة. لقد أكدها لي ليس مرة واحدة بل مائة مرة.

«الا ترى أن حياتك عبارة عن أوهام؟ متى ستحولها إلى حقيقة؟»

أماه، أتذكر ذلك اليوم الذي أقدمت فيه على معاتبتي أمام الكنيس في كفر نعوم. ومع ذلك ألم أنجز ما اصطفيت لأجله؟ هل قصّرت ومتى؟ خلال هروبي؟ خلال تقاعسي؟ صحيح أني هربت أكثر من مرة.

أول الأمر عندما خرجت من المعبد بعدما سألت الكهنة: «أنتم لا تعرفونني ولا تعرفون من أين أتيت؟ لم آت من تلقاء ذاتي!» كانوا قد انقضوا عليّ لكنني نجوت منهم. ثم علت في ذلك اليوم أصوات مؤيدة من بين الجمهور المحيط بي. «عندما سيأتي المخلّص هل سيفعل معجزات أكثر مما يفعل هذا؟» عندما علم القربانيون والفريسيون بهذه التعليقات أرسلوا حاجبهم ليقبض عليّ، لكنني هربت.

فيما بعد وخلال ليلة شتوية في أورشليم غداة عيد الحانوكا. كان خصومي غاضبين من رؤيتي أعلّم الناس. كانوا مستعدين لرميي بالحجارة. حاولت أن أعيدهم إلى رشدهم: «لقد أريتكم عددا كبيرا من أعمال الرب، فعن أيها سترجمونني؟» بلا جدوى، ففضلت الابتعاد والاحتماء بعتمة الأزقة.

وفي مرة أخرى عندما حاولوا رميي من الجرف.

ربما لأنني لست مؤهلاً لذلك. ربما كان عليّ المواجهة ثم أترك نفسي تقتل؟ لكن ذلك سيكون استعجالا من لقاء الصوت الذي يهاتفني: «ليس بعد. ساعتك لم تدنُ بعد. ليس بعد»

كان هناك أيضا ذلك الصباح حين تحداني إخوتي ماعدا يعقوب. كان عيد تبرناد قد اقترب حينما استجوبوني وأنا أغادر كنيس كفر نعوم. لم يأتوا لوحدهم بل كانت ترافقهم مريم أما توماس فسبقهم لتحذيري.

ـ أمك وإخوتك هنا ويرغبون في الحديث إليك.

فأجبت بجواب اعتبره البعض قاسيا لكنه مع ذلك لن يكون مغايرا.

ـ من هي أمي؟ ومن هم إخوتي؟ ثم أشرت على حواريّ وأضفت:

ـ ها هم أمي وإخوتي، لأن من ينفذ إرادة الرب تعالى فهو بالنسبة لي الاخ والاخت. ابن الانسان ملك للعالم. ابن الانسان ملك للنجوم الشاردة.

إذاك تقدم يهوذا الاشرس من بين إخوتي مخترقا الجمهور معلنا بتقزز:

ـ نراك في كل مكان من الجليل في طبرية في قانا في بيت صيدا في المجدلة في كورزين. يحكون أيضا أنك ذهبت إلى صور وصيدون. لكننا لا نصدق ذلك! ومررت بالسامرة أيضا. لماذا إذاً أنت خائف جدا من الذهاب إلى يهودية؟ اذهب لكي تريهم معجزاتك التي تصنعها. لا أحد يتصرف سرا إذا كان واثقا من نفسه. إذا كنت مدعٍ، فأطلع العالم من أنت. كان يتحداني لأنه يعلم أن مصدر الهلاك يوجد في أورشليم. حافظت على هدوئي.

ـ لم يحن الأوان بعد. لكن أوانكم كان دائما جاهزا. أنتم لا يستطيع العالم أن يكرهكم أما أنا فيكرهني الجميع، لأني شاهد على أعماله الفاسدة. اذهب أنت إلى هذا العيد أما أنا فأواني لم ينفد بعد.

نظروا إليّ نظرة حقد، ثم انسحبوا مستهزئين. مع ذلك لم يعرفوا أبدا أني زرت يهودية سرا.

أين أخفقت؟ ومتى؟

هل تجاوزت الخطوط الممنوعة دون أن أدرك ذلك؟

كان يهوذا قد ذكر مروري بالسامرة، أجل لم يكن مخطئا. في هذه الأرض يلعنني الجميع.

هل ستبقى روحي شاردة إلى الأبد؟

ومع ذلك، فهذه المرأة التي صادفتها صباح كيسليف بجوار بئر يعقوب، تمثل هذه السامرية في نظري تجليا ساطعا للرب الأبدي. ولا يمكن أن تنفى بسبب أصولها. كنا قد غادرنا صخور يهودية ونستعد للدخول إلى الأراضي البيضاء للسامرة. كنا شتاء والأرض ترتعش، فقط أشجار الزيتون والنخيل من

حافظت على حلتها الخضراء. كنت محطما تعبا وعطشا. ألقى يهوذا معطفا صوفيا فوق كتفيّ.

قريبا سنصل إلى بلدة شكيم التي توجد على قدم جبل جرزيم، الجبل المقدس لدى سكان السامرة. لأنه لا يبعد إلا قليلا عن المكان المذكور في العهد القديم حيث اشترى يعقوب قطعة أرض نصب عليها خيمته وبنى مذبحا أطلق عليه: EL- ELOHE-ISRAEL? (الله من إسرائيل) «المترجم»؟

جلست بجانب البئر ويهوذا فعل نفس الشيء. أما الآخرون فذهبوا للبحث عن الطعام لاننا لم نجد ما نتناوله. كانت الساعة السادسة حينذاك رأيتها قادمة في اتجاهنا تحمل جرة في يدها. كانت هيفاء رشيقة تخبئ شعرها تحت شال صغير. عيناها لوزيتان. كانت لها هيأة نبيلة. لم تتجاوز سن الأربعين. تلقيت في صميم القلب هذا الوجه الطفولي المعذب.

عندما أصبحت بالقرب مني قلت لها راجيا:

ـ نحس بالعطش. هل يمكنك أن تقدمي لنا ماء؟

قطبت جبينها فقد اكتشفت من لهجتي أن أصلي من الجليل.

ـ كيف تطلب مني أنت اليهودي ماء وأنا بالنسبة لك سامرية مدنسة؟

بصق يهوذا على الأرض:

ـ يا امرأة. احترمي من تخاطبين!

نصحني وهو يهمس في أذني:

ـ رابي، فلنذهب من هنا بسرعة.

رفضت بإيماءة من رأسي ثم أجبت السامرية:

ـ لو تعلمين ما هي الهبة التي سيمنحها لك الرب. لو تعلمين من يطلب منك الشرب. حينئذ ستطلبين أنت أن تشربي وكان سيمنحك ماء الحياة.

بدأت تضحك:

ـ يا للعجب! ليست البئر عميقة فحسب بل لا تملك دلوا حتى. من أين إذاً ستجلب ماءك للحياة؟ لن تدعي رغم كل شيء أنك أعظم من جدنا يعقوب الذي يعود إليه هذا البئر حيث شرب منه وأبناءه وقطيع غنمه؟

يعود يهوذا للالحاح:

ـ فلنرحل يا سيدي، لنرحل.

تجاهلت إصراره.

ـ معك حق. قلت للمرأة. لكن الذي يشرب من هذا البئر لن يروى أبدا عطشه، بينما الذي يروى من مائي لن يعرف العطش أبدا. بل أكثر من هذا: الماء الذي سأمنحه إياه سيصبح في أحشائه منبعا جاريا يتدفق حتى في الحياة الأبدية.

بدت المرأة في حيرة من أمرها.

ـ إذن. أعطني هذا الماء كي لا أعطش أبدا ولا أعود إلى السقاية مرة أخرى.

ـ سأفعل لكن قبل ذلك إذهبي وأحضري زوجك أولا.

ـ هذا مستحيل، فأنا غير متزوجة.

ابتسمت وقلت:

ـ أنت تقولين الحقيقة، لكن مع ذلك، فأنت عاشرت خمسا، والرجل الذي تعاشرين الآن ليس زوجك.

ترنحت المرأة تاركة الجرة تسقط على الأرض:

ـ مادمت تقرأ ما في القلوب. قل لي إذاً: من على صواب.

تشير إلى المعبد المنتصب.فوق جبل جرزيم.

ـ أجدادنا عبدوا الرب فوق هذا الجبل وأنتم معشر اليهود تؤكدون أننا

مجدفون وأن المكان الذي يجب أن نعبد فيه هو أورشليم. من على صواب؟

تفحصتها جيدا قبل أن أرد:

ما يهم في جرزيم أو في صهيون فليس المكان سوى ركام من الحجارة.

اليوم قريب والساعة حانت. لن تصبح فيه العبادة امتيازا مرتبطا بهذه الارض ولا بأورشليم ولا بأي مكان آخر ستعبدين من لا تعرفين وسنعبد من نعرف. لأن الخلاص سيأتي من الشعب اليهودي.

ابتسمت بسخرية:

- أعرف جيدا هذه العجرفة.

كررت وكأني لم أسمع ما قالته:

- صدقيني لقد حانت الساعة. إنها هنا. حيث لن يعبد الأب لا في هذا المعبد ولا في أورشليم.

حركت رأسها مرتابة، مبلبلة، ربما بسبب ما كشفته لها من أسرار عن حياتها الشخصية. ثم انصرفت في اتجاه البلدة.

التفت يهوذا صوبي مستعلما بنبرة منفعلة:

- رابي. هل صحيح أن الساعة قد دنت فعلا؟

- نعم، يا أخي. وأنت من سيوجه ظل الساعة...

الفصل الخامس عشر
إقامة بيلات ــــ قيسارية ١٨ أيار

كان وجه هيرودس محتقنا غضبا وهو يبحث بصعوبة عن كلمات يقولها. بينما بيلات كان أقل انزعاجا. منذ لحظات والحاكم يصب جام حقده على جماعة السنهدرين. ويبدو أن هذا السيل لن يتوقف:

ـ الجليلي كان معه حق عندما سماهم الأفاعي والقبور المبيضة. فلتنزل عليهم اللعنة والغم. أليسوا رؤوسا يانعة للقطع؟

مد الحاكم حفنة من الزبيب إلى ضيفه بدل الاجابة عن التساؤلات:

ـ خذ، لقد تم إحضاره من كورانث إنه زبيب ممتاز. أفكر في الأوقات التي كنا فيها نحصل على عبد فتي مقابل جرتين من هذه الفاكهة. للأسف انتهى ذاك الزمن. بالنسبة للكهنة فبالفعل أوافقك الرأي، لكن أخشى أن قتلهم لن يغير أي شيء. فسيستبدلون بسرعة بآخرين.

ـ اترك إذاً الأمور كما هي...

ـ حسب علمي لم يقترفوا أي فعل معيب معي أو مع روما. إذاً؟

ـ اعتقال هذا الحواري المدعو التوأم ألا يدل على ان السنهدرين متورطون في قضية الجليلي؟

ـ كيف يمكنهم أن يكونوا متورطين؟ هل نسيت أني شخصيا أبلغت

نيقديموس ويوسف الأرامي؟ زد على ذلك، فإذا رجعت إلى تقارير جواسيسك فستجد أنهم أرادوا فقط التأكد من الحواري المعني بالأمر ليس توأماً ليسوع. خطوة ماكرة لأن اللغز كان سيحل.

يستنكر بيلات مستنتجا:

- لا، في الحقيقة، لا أفهم سبب غضبك.

- لأن قلقي يتزايد ويقض مضجعي. فإلى اليوم لا أحد من رجالي أو رجالك عثر على الجليلي إلى درجة أنه يخيل إلي أنه أصبح جزءا من الرمال والتلال.

- لقد أنذرتك: لا يشبه اليهودي أبدا غير يهودي آخر من عرقه. كما لا تنس أن العلامات التي أعطيناها للكشافين كانت ضئيلة. ومع ذلك فمهما حدث سأبقى متفائلا.

ارتسمت ابتسامة على طرف شفتي الحاكم:

- في هذا الوقت الذي نتحدث فيه، فحواريوه في طريقهم ليأخذونا إلى الجليلي.

بقي هيرودس فاغرا فمه.

- هل أطلقت سراحهم؟

- نعم. تصور أني سمحت بسخاء وهمي لأم السجينين بزيارتهما كانت فرصة لا يجب أن تضيع. كلفت زوجتي أن تنقل لي أقوالهم خلال الزيارة. كنا على صواب، فصاحبنا حي يرزق مثلي ومثلك. كما أن حوارييه مصممون على إيجاده. أنا أثق بأنهم سينجحون حيث فشلنا نحن.

- رائع. يتعجب الحاكم. أعرف جيدا الدقة الرومانية.

كاد أن يرد بيلات ساخرا أن الدقة الرومانية لن تكون أبدا في مكانة الاحتيال الهيروديسي. لكنه تحكم في نفسه ثم قال:

ـ عندما تصدر عنك المجاملة تكون أكثر قيمة. هل أنت الآن مرتاح؟

ـ بالتأكيد، لكن ارتياحي لن يتم إلا يوم يصبح المحرض رهن الاعتقال وميتا بصفة نهائية.

يمد يده صوب الكوب.

ـ الآن أعطني هذا الزبيب الكورنثي لأتذوقه.

وبينما بيلات يستجيب، كان شبح شخص يقبع مختبئا طوال ذلك الوقت خلف شق الباب يبتعد نحو نهاية الممشى.

أورشليم في ٢٠ أيار

بعد عبور السور بواسطة بوابة الوادي، ندخل المدينة صعودا عبر زقاق ذي منحدر شديد الانحدار. يمكن أن نتخيله منحوتا على درجات لامرئية. ليس بعيدا ينتصب يسارا قصر هيرودس القديم. نمر تحت كنّة مصنوعة من شجر الأرز عند نهايتها يوجد درابزين يقود إلى قاعة كبيرة. هنا توجد الغرفة المنحوتة في الصخر حيث المحكمة العظمى. هنا حيث يجتمع منذ عشرات السنوات الحكماء السبعون المكلفون بسن القوانين والبت في القضايا الدينية وتنظيم طقوس المعبد. عددهم سبعون لأن الرب قال: «سيخرج موسى حاملا للشعب كلام الرب الأزلي وسيجمع من شيوخ الشعب سبعين فردا ثم يجلسهم حوله في الخيمة».

يطلع الفجر على سفح جبل المعبد. البيوت الواطئة تعكس ألوان السماء. في البداية يظهر اللون الأحمر الداكن الكثيف. وتدريجيا بدأت الصبغات تتفتح وتتحول إلى الاصفر الذهبي الخفيف والمشرق.

يتجول كيفاس بنظراته حول مجمع الجالسين على الكراسي تحت القبة العارية في شكل دائري. يلاحظ ان مجمل ثلثي أسياد إسرائيل حاضرون: خليط من العلماء. أشعلت المصابيح رغم ضوء النهار.

حنان حاضر بدوره، يجلس جانبا. يحشو بأصابعه ثنايا لحيته بانفعال.

ـ إخواني، يبدأ كيفاس، أذكركم بالوقائع. في ١٣ نيسان وبإرادة من هذا المجمع النبيل تمت إدانة الجليلي بالتجديف حسب ناموس موسى فحكم عليه بالاعدام. وتمت مصادرة الحق في التنفيذ من طرف المحتل الروماني. لهذا كنا مضطرين إلى تسليم المجدف إلى الحاكم لكن بيلات وبعد مماطلة صادق على الحكم. وحوالي الساعة السادسة[1] اقتيد الجليلي إلى جبل الجمجمة. وصل بعد ساعة ثم فيما بعد وضع على الصليب. وحوالي الساعة التاسعة وفقا للخطة التي حبكناها هنا، حصل مستشارو نيقديموس ورفيقنا يوسف الرامي على موافقة بيلات لاستلام الجثة، ثم وضعناها في القبر المعد خصيصا لذلك. طبعا وفقا للخطة المتفق عليها. مع حراسة مشددة لحارسين على المدفن. وبعد يومين عندما عاد رفاقنا على عين المكان ازاحا الحجر بمساعدة الحارسين فلاحظا بدهشة...

يأخذ الكاهن نفسا قصيرا قبل أن يتابع:

ـ... أن الجليلي مازال على قيد الحياة

ـ حي؟ يصرخ صوت مضطرب.

ـ حي؟ يكرر صوت آخر بجواره.

يؤكد كيفاس:

ـ في حالة مزرية لكنه مازال حيا. من الجلي ان ضربة الرمح لم تكن مميتة. حينئذ لم نجد خيارا غير وضع الرجل في مخبأ سري. يعرفه، فقط، لسبب أمني، أربعة أشخاص: حنان، يوسف، نيقديموس وأنا. وكما توقعنا فإن خبر العثور على القبر فارغا انتشر كالسيل العرمرم بين حواريي المجدف. ففي

---

(١) انظر ص٢٩٥.

اعتقادهم أن زعيمهم قد انبعث انبعاثا حقيقيا. وهنا لا بد من شكر الرب، فالبلهاء تصرفوا وفق أكثر آمالنا جنونا معلنين أن الجليلي ظهر لهم هنا وهناك. مؤكدين بذلك فكرة أن الرجل هو المنقذ الحقيقي.

تسود همهمة رضا بين المجتمعين. يهدئها كيفاس بإشارة منه.

ـ نتيجة لذلك، فباستثناء أن الجليلي لم يمت فوق الصليب فإن الأمور الأخرى سارت كما خططنا لها.

يضيف خافضا بصره:

ـ إلى حد الان. . .

تتوتر الوجوه.

ـ إلى حد الآن، يواصل الكاهن الكبير، لكن حدثا غريبا وقع. كنا نفكر في البداية ان تجليات الجليلي كانت محض اوهام وخرافات اختلقها خيال الحواريين. ثم وصلتنا معلومة غيَّرت اعتقادنا السابق: شوهد الجليلي ذات صباح على ضفة البحيرة من طرف أشخاص غرباء عن المحرضين وبالضبط من طرف جاسوسي الحاكم.

تنتشر قشعريرة بين المجتمعين لكن هذه المرة فهي قشعريرة شك.

ـ وقد تأكد لنا بالقطع أن الجليلي لم يغادر حبسه البتة. ولو لحظة واحدة. زد على ذلك فهو ما زال في سجنه إلى اليوم.

ـ غير معقول. يحتج الصوت. أخطأ الجاسوسان بالتأكيد.

ـ صعب أن نصدق، لكنهما كانا على بعد خطوات من الرجل. كما انهما أتيحت لهما فرصة مشاهدته صباح استجوابه من طرف هيرودس. وهذا يعني أنه ليس غريبا عنهما.

ـ شخص يشبهه إذاً. يقترح أحد الكهنة بانزعاج.

ـ خطرت لنا هذه الفرضية، لقد اعتقدنا في البداية أن الشخص ربما هو أحد حوارييه الذي يدعى التوأم. لكن كنا مخطئين. نحن الآن نواجه خطرا لا يمكننا غض الطرف عنه.

يتوقف قليلا، كما لو أنه يبحث عن كلماته ثم قال:

ـ «لن تقتل أبدا» هذا القانون يفرض علينا احترام الحياة، لهذا حاولنا ألاً ننتزع الحياة من الجليلي، فمنحناه خيارا: أن يرحل عن البلد أو البقاء طوال حياته مسجونا. وكانت كل محاولاتنا تصب في اتجاه المنفى غير أنه رفض رفضا باتا. وقد حاولت بنفسي أن أعقله، للأسف أخفقت. إذا كنت قد تحدثت عن المخاطر فلأن اليوم لدينا أدلة أخرى، فقد قرر بيلات أن يطلق سراح الحواريين الذين سبق له أن سجنهم.

ترتفع يد.

ـ هل يعلم الحاكم بكل هذه الأمور؟

ـ أخبره هيروديس جزئيا بتقرير الجاسوسين. الرجلان وصلا إلى نفس الاستنتاج: مادام الناصري حيّاً فإنه سيطلق من جديد ثورة جديدة وربما تمكن من إثارة الشعب والتمكن من امتلاك سلطة مزدوجة. منذ يومين احد رجالنا المندسين في قيسارية فوجئ بحوار دار بين بيلات والحاكم. أترك له الكلمة...

يستدير كيفاس في اتجاه ركن القاعة، ثم يقول آمراك

ـ اقترب يا متاتيا!

طيف رجل ينبعث من بين الظلمات ويندس بين المقاعد ثم يقف يمين الكاهن. رجل مربوع القامة. يطأطئ رأسه. لحيته قصيرة وعيناه مترصدتان بين هالتين من التجاعيد يعلوهما حاجبان رماديان.

في بضع كلمات قدم للحاضرين حكاية تدخل زوجة الحاكم مختتما باستظهار كلمات بيلات: «في هذه الساعة التي نتحدث فيها، فحواريوه في طريقهم ليأخذونا إلى حيث يوجد الجليلي».

يجتاح القاعة ذهول عارم.

يدعو كيفاس الرجل للعودة إلى مكانه. ثم يستعد لاستئناف الحديث لكن حنان قاطعه:

ـ لحظة!

ينهض العجوز ماشيا مشية عرجاء متخذا مكانه في مركز الدائرة.

ـ إخواني. إذا كنت قد سمحت لنفسي بالتدخل فلن الأمر خطير. فأن تزرع في فكر الحواريين فكرة أن الجليلي مازال على قيد الحياة فمعناه تشغيل آلية خطيرة تضعنا كلنا على حافة الهلاك. أنتم تتخيلون جيدا كيف سيقلبون السماء والارض ولن يتوقفوا عن البحث حتى يعثروا على زعيمهم عاجلا أم آجلا. لا تشكُّوا في ذلك، سينجحون في بحثهم. لهذا قلت لكم إن الأمر في غاية الخطورة.

يأخذ حنان نفسا قصيرا ثم يواصل بنبرة أكثر جزما:

ـ لن تقتل أبدا. أتذكر منذ قليل زوج ابنتي. سأضيف وصايا الكهنوت: «لن تصدر حكما ظالما ولن تميت البريء والعادل» لكن دعوني أطرح عليكم السؤال التالي: هنا في هذا المكان ومنذ مدة، هل حكمنا على الناصري البريء والعادل؟

ارتفعت زمجرة مستنكِرة:

ـ لا، المذنب.

ـ في ظل هذه الظروف، أطلب من مجلسكم الموقر البت مرة أخرى آخذين

بعين الاعتبار مما عبر عنه ذات يوم أخونا كيفاس «من الأفضل أن يموت شخص واحد على أن تموت الأمة بكاملها»

يتبادل الحكماء نظرات من قرنة العين: ندرك أن السبب متوافق عليه.

ـ أطلب الكلمة.

يكظم حنان غيظه. كيفاس يقطب جبينه. يحاول الحكماء العثور على المتدخل:

ـ ماذا تريد يا نيقديموس؟

ـ الحلم، فلنكن حلماء.

ـ الحلم. يقول أحد الحكماء بدهشة. ألم نكن كذلك حينما منحناه فرصة إنقاذ حياته؟

ـ نعم والرب شاهد على ذلك.

ـ إذن لماذا تطلب أكثر من هذا؟

ـ «سأعرض أمامك كل طيبوبتي وأنادي أمامك باسم الرب. سأطلب المغفرة لمن أغفر له وأطلب الرحمة لمن أرحمه» فلنمنحه ثلاثة أيام للتفكير. ثلاثة أيام لنكون أكثر عظمة من المذنب وأكثر نبلا من المعتدي، وأكثر طهرا من الطاهرين. فلنبرهن للذي يتهمنا بقسوة ناموسنا أن الرحمة مقدرة من الرب الذي لا يتعب من المغفرة. فلنبرهن للجليلي أن رب ابراهيم هو أيضا رب المحبة.

لم يستطع حنان أن يخفي غمّه.

يشد كيفاس يديه بعصبية.

يتشاور الحكماء بصوت خافت.

ـ أخونا معه حق. يقول فريسي عجوز بجرأة. أدوناي لا يتعب من المغفرة.

ـ آمين. يرد المجمع بصوت واحد.

ـ حسنا. يعلن حنان على مضض. لا يمكن أن نعاقب أحدا على أننا لم نصبر عليه كثيرا.

يلتفت صوب نيقديموس ويختتم الجلسة:

ـ حسنا ثلاثة أيام.

بئر السبع في ٢١ أيار

يوقف سمعان ببير وفليب العربة ووجهاهما معفران بالغبار وسط ساحة السوق حيث خِلط مِلط منصبات عرجاء عليها سلل مصنوعة من الخيزران مملوءة عن آخرها بالجبن والفواكه والعسل والأسماك وبسلع أخرى.

ينزل الحواريان، يبدو أنهما ينتظران شخصا أو شيئا معينا. يمسحان الديكور بعينيهما. في البعيد وفي اتجاه الجنوب يبحثان عن الأديمي. بين روائح الروث وزوابع الغبار.

ـ والآن، يقول فليب قلقا. كيف سنتعرف على رجل شاب بين مئات داخل هذه الفوضى؟

ـ قالت لنا سلومي ان اسمه يالون وأن أمه قتلت هنا في بئر السبع. ولن يكون هناك مائة شخص يحمل نفس الاسم. اذهب في هذا الاتجاه وأنا سأذهب في الاتجاه المعاكس.

يفترقان.

تهب الرياح وتبدأ في جلاء الغيوم القليلة في السماء.

ثلاثة أشباح أشخاص تترصد وراء شجرة قبقب، يظهرون كتجار لولا نظرتهم الحادة التي يحملها غير حراس قلعة أنصونيا.

ـ ماذا سنفعل؟ يسأل أحد الرجال.

ـ لا شيء. سننتظر.

في نفس اللحظة. في مكان ما من يهودية

يشطب يسوع إحدى الكلمات. يفكر قليلا ثم يواصل:

كان الليل قد حل. الآخرون يرقدون ممدَّدون على الفرش. أراد سكان سيشيم المنذهلين بالعبارات التي نقلتها إليهم السامرية أن يضعوها رهن إشارتنا. أوقدنا النار التي أرسلت لهبها المرتعش إلى السماء.

يهوذا لا ينام وأنا أيضا لم أنم. اخذ غصنا جافا وبدأ يحرك النار. بدا وجهه البراق كالحديد المنصهر.

- معلمي. يسأل بهدوء. لم أعلنت بعد ذهاب السامرية أن الساعة حانت وأنني أنا من سيوجه ظلالها.

لم أجب، فأعاد السؤال نفسه.

أتملص من الإجابة مرة أخرى.

- هل اعترفت لك يوما أنه قبل ولادتي بزمن جاء ثلاثة منجمين من بابل فوضعوا هدايا أمام مهدي؟

أجاب بالنفي محركا رأسه.

- المر والبخور وقطع ذهبية. هل تعرف ماذا يمثلون؟

رد مرة أخرى بالنفي.

- لم أكن أعرف أنا أيضا إلى أن جاء اليوم الذي شرح لي فيه نبطي معناها: البخور يعني دخان الراتنج المقدس المخصص لاقامة الصلاة في السموات. انه الزواج الالهي المقدس. اما الذهب فهو المعدن الملكي، لا يصدأ ولا يدنس. بينما المر...

- نعم.

- المر هو رمز للموت، لكنه مرتبط أيضا بالطقوس الكهنوتية. فبواسطة زيت المر طلب الرب من موسى أن يدهن تابوت العهد.

ـ القدسية والملكية والموت. يلاحظ يهوذا. أين ترى نفسك في هذه المرايا الثلاث؟

ـ أنت. . . ، أجبني أولا، أين تراني؟

ـ أراك ملكا ومقدسا. أرى الكهنوت لكن لا أرى الموت بل الحياة الأبدية.

أبتسم:

ـ يهوذا يا أخي. إن إيمانك إذاً عظيم جدا.

أشير إلى الجماعة المستغرقة في النوم:

ـ أكبر من إيمان هؤلاء، وأكبر أيضا من إيمان سمعان.

ـ وحده الأزلي يعلم ذلك. أظن فقط أنك المنقذ، ابن الرب، وأنك ستنجز رغبات «الالوهيم» كما جاء في كتاب حزقيال.

خفض صوته قليلا ثم أنشد كما لو أنه يسرُّ باعترافات.

ـ يا ابن الانسان يمِّم وجهك جهة أورشليم وتكلم لقاء الامكنة المقدسة وتنبأ لبلاد إسرائيل معلنا لها: «هكذا تكلم الرب الأبدي. سأسل سيفي من غمده وأبيد من بينك العادل والظالم. وكل الأجساد لن تصبح سواي، الأبدي، لقد سللت سيفي من غمده ولن يعود أبدا»

صمت ورفع جبهته بشموخ.

ـ أترى. أعلم ما يجهله الآخرون.

شد كفي بحنو وختم:

ـ لهذا فعلت كل ما طلبت منا، أخذت كيسي وصرة نقودي وبعت سترتي لأشتري سيفا. ها هو مشحوذ ومصقول(١).

---

(١) انظر ص٢٩٦.

بقيت صامتا فوجدها فرصة لمواصلة مناجاته.

ـ نعم، رابي، نعتقد نحن الذين اتبعناك أننا من سيجلس على العروش لنحكم القبائل الاثنتي عشرة. نعتقد انك ستصلح الملكوت. اعتقد أن كل من غادر اخوانه أو أخواته أو أباه، أو أمه، أو زوجته أو أولاده أو أراضيه أو منزله لأجلك، فإنه سينال أضعافا مضاعفة ويرث الحياة الأبدية. لأننا على هذا العهد تعاقدنا.

ـ هل نسيت أنه قبل أن تحدث هذه الأشياء قلت أيضا إنه يجب أن يتعذب ابن الانسان كثيرا وإن زعماء وأسياد القانون سيطردونه. وإنه سيتعرض للموت وفي اليوم الثالث سيبعث حيّا؟

ـ نعم، رابي، لكن الذي سيبعث من الموت أليس هو أيضا سيد الحياة؟ أنت الجمرة التي ستبقى جذوتها تشع حتى في أزمنة الظلمات. أنت المنقذ.

تفحصته مليا قبل أن أنبهه:

ـ في البدء النار ثم تأتي بعدها الجمرة ولكي ينجز كل ما قلته لا بد أن تصبح أنت تلك النار.

وضعت فوق جبينه قبلة. قاطعا عليه أسئلته. ثم طافت ببالي صورة أورشليم كأنها جبل من الجماجم أرزها يحترق وشمسها تشع بالدماء.

هكذا أصبح ابن قريوت المختار فجعله الرب يفهم ما ينبغي أن يفهمه. نعم. ولكن الآخرين. . .

أتذكر في أحد أيام فصل الشتاء كان هدوء غير متوقع يسود الجليل. كنت قد صليت في الكنيس، وعند مغادرتي وجدت جماعة تقف في الخارج. فأخذ بعضهم يصيح باللائمة:

ـ لماذا أتيت إلى هنا؟

ـ وأنت؟

شخص ناداني:

ـ لكي تعلمنا ما يجب أن نفعل. لكي تتحقق اعمال الرب.

ـ يكفيكم أن تؤمنوا بمن أرسلني!

ـ إذن قم بالمعجزات لكي نصدقك. آباؤنا أطعموا المن في الصحراء وأعطاهم الرب الخبز من السماء لكي يأكلوا. وأنت؟

رددت عليه:

ـ آباؤكم أكلوا المن في الصحراء ومع ذلك ماتوا أما أنا فخبز الحياة. من يأكل منه يعش أبدا. الخبز الذي أمنحه لكم من لحمي وهو لأجل أبدية جميع الناس.

فورا ارتفعت صرخات استنكار واستفهامات من طرف الجميع: «كيف يمكنه أن يطعمنا لحمه؟»

ـ أكل لحمك؟ سألت امرأة. رافعة عقيرتها.

قلت بإصرار:

ـ نعم، من يأكل لحمي ويشرب دمي سينال الحياة الأبدية. إن لحمي طعام حقيقي ودمي شراب حقيقي. من يأكل لحمي ويشرب دمي سيقيم فيّ وأنا سأقيم فيه.

كان بعض حواريّ الذين يقفون خلفي يستهجنون الامر بعبارات:

ـ هذا كلام لا يطاق! من يستطيع أن يواصل الانصات إليه!

ـ هل يحسبنا حيوانات؟ كيف يمكن للانسان أن يقتات من لحم الانسان؟

التفت بسرعة وقلت:

ـ أرى أن كلامي صادم لكم.

منذ تلك اللحظة، تحطمت الصفوف وتفرقت الخرفان. من السبعين ما بقي غير القليل. فهمت أن من سيرحل منهم لن يعود أبدا.

ـ ماذا تنتظرون للحاق بهم؟ سألت الآخرين. ارحلوا، لم لا تذهبون أنتم أيضا؟

الصمت وحده من أجابني. وفجأة ألقى بيير بنفسه أمام قدمي مضطربا.

ـ أن نرحل؟ أن نرحل؟ إلى أين سنذهب. رابي؟ وإلى من؟

كاد يجهش بالبكاء.

لقد وضعنا كل ثقتنا فيك ونعلم أنك القديس المرسل من الرب.

شخصت طويلا قبل أن أعلن:

ـ الآن، الليل سيأتي...

ـ هل أنهيت؟ يسأل نيقديموس. الشعلة تترنح. . هل تريد أن أطلب منهم أن يجددوا لك زيت المصباح؟

يضع يسوع القصبة.

ـ لا، هذا يكفي لهذا اليوم.

يصب الكاهن نبيذا ويعرضه على ابن الانسان. أثناء ذلك كان يسوع مستغرقا في الكتابة بصمت.

يلاحظ:

ـ لم يتبق لنا وقت كثير.

ـ يومان. أعرف. يا لها من مصادفة غريبة.

ـ مصادفة؟

ـ «لكي يكون مستعدا لليوم الثالث، لأنه في اليوم الثالث سيهبط الرب الأبدي على قمة جبل سيناء، وأمام أنظار الجميع»

ـ مصادفة فعلا . . .

ـ وهذه المرة من هو يهوذا؟

لم يستطع الكاهن الرد.

ـ يهوذا المسكين.

ـ ألم تعلم أنه شنق؟

ـ لا أعلم ذلك. حدث له ما حدث لأبشالوم رفيق السلاح لداوود. لكن هذا لا يدهشني أبدا: الحزن قد يقود إلى تيه رهيب.

ـ بلا شك.

ـ لأنك فهمت أسباب فعلته؟ ربما أنت الوحيد. لقد اعترف لك أليس كذلك؟

ـ بالفعل لقد جاء لزيارتي.

ـ لأنه يعتقد أنك مقرب إلينا. فقد كان حاضرا عندما زرتني سرا لتسألني، فأجبتك:

«إذا لم يولد المرء ثانية فانه لن يرى مملكة الرب الأبدي» أتذكر أن عبارتي أثرت فيه تأثيرا كبيرا؟

ـ بالفعل، ربما في ذلك المساء بدأ يخطط لمشروعه.

ـ مشروع يقتضي أن يعترف لكم متى وأين يمكنكم إلقاء القبض عليّ دون إثارة الاضطراب بين الشعب.

ـ نعم.

ـ واصل، بماذا اعترف أيضا؟ هل كشف لك عن الأسباب التي دفعته إلى خيانتي؟

ـ لا أتذكر. . . كان في حالة هيجان غريب.

ـ قل الأساسي.

ـ الأسباب؟ كان لديه سبب واحد فقط هو إيمانه. الإيمان الهائل والشاسع برسالتك. بالنسبة إليه لم يكن هناك أدنى شك أنك المنقذ. كان أكثر اقتناعا من أغلب الحواريين. كان يؤمن بقدوم هذه المملكة التي لا تتوقف عن الإعلان عنها. غير أن قلة صبره كان ينهشه ويحرقه. كان يجلس منتظرا وكل يوم يزداد احباطه من رؤيتك وأنت لا تتصرف ولا تستعمل قوتك المقدسة. بينما يبقى متفحصا الأفق كل صباح آملا أن يرى ظهور جنود السماء. إذن. . .

ـ إذن، حاول أن يساعد على مولد فجر لا يظهر في الأفق. . .

يتنهد نيقديموس.

ـ كان أمله عظيما فيك إلى درجة انه في لحظة اعتقالك كان متأكدا أنك لن تختار السقوط بل الملوكية وان اعتقالك سيطلق ثورة جامحة بين الناس، ستكنس بالأرجواني الكهنوت ولن تتوقف حتى تنهض أرض إسرائيل لتمنع موتك. كانت قناعته راسخة وتضاعفت أكثر عندما شاهد الاستقبال الذي خِصك به سكان أورشليم.

يشد يسوع رأسه بكفيه.

أورشليم. . .

الموعد الأخير.

في التاسع من نيسان كان قد غادر بيت عنيا بعدما قضى فيها الليل في بيت مارتا ومريم. وقبل أن يعبر حدود القرية طلب من ماتيوس وبرتلومي أن يستدعيا جحشا. وبمجرد وصولهم إلى قمة جبل الزيتون لمح المدينة التي ينتشر بهاؤها تحت اقدامه وأسوارها المشبعة بالضوء. حبس المشهد أنفاسه بقوة إلى درجة أنه أجهش بالبكاء للمرة الثانية واضعا ركبتيه على الأرض

ومناديا: «أورشليم يا أورشليم سيأتي عليك يوم يحيطك أعداؤك بالخنادق مسيجينك ومحاصرينك من كل الجهات. سيدمرونك وأطفالك داخلك ولن يتركوا بنيانا فيك مشيدا. لأنك لم تعترفي بي في الزمن الذي زرتك فيه» ثم دخل إلى المدينة. انتشرت الضوضاء اثر قدومه في كل مكان. بسط الجليليون أرديتهم في طريقه حاملين سعف النخيل وأخذوا يهللون:

«أوصنا Hosanna يا بن داوود! مبارك من يأتي باسم الرب!» خيل إليه أيضا أنه سمع لقب «ملك إسرائيل». جلبت الضوضاء الكهنة فهرعوا إلى عين المكان:

«أسكتهم! أسكتهم!» فرد عليهم: «إذا سكتوا فإن الحجارة ستصيح بدلا عنهم»

يهوذا يا أخي، يا ابن قريوت كيف يمكنك أن تشك لحظة أن من بين كل هؤلاء الأشخاص الذين يهتفون لأجلي لا توجد يد يمكنها أن تمنع سقوطي؟

طفل مسكين. . .

بدا يسوع ينطق كلماته بصوت عال، لأن نيقديموس سأل:

ـ هل قلت طفلا مسكينا؟

ـ ساذج مثل جميع الأطفال. يمكنني أن أتخيل آلامه وهو لا يرى قدوم جيش الملائكة ولا جيش البشر. لم يستطع تحمل انهيار حلمه بأن يشاهد يسوع المنقذ مهانا محتقرا ومعذبا. كنت أعلم جيدا، أن الطفل الذي لعنته تلك الليلة، إلى أين سيذهب ولأي سبب.

ـ هل لعنته؟

خلال العشاء الأخير كنت مجتمعا بحواريّ. كان قد وضع أحد الأصدقاء رهن إشارتنا غرفة علوية. أعلنت لهم حينها أن أحدا منهم سيسلمني للعدو. كنت أعلم أن يهوذا كان يتأهب للقيام بذلك. طلبوا مني مذعورين من أقصد. لم أكن أجلس في وسطهم ولك على يسارهم كالمعتاد. كان يهوذا يجلس بجانبي وآخر أظن أنه يوحنا ألح عليّ أن أكشف هوية الخائن. عندئذ أخذت

قطعة خبز وغمستها عمدا أولا ففعل يهوذا نفس الشيء، فأعلنت: «من يغمس مثلي في الصحن» ملتفتا صوب القريوتي، فلمحته مترددا حينئذ شجعته قائلا: «ما يجب أن تفعله، فافعله!» أصبح من الضروري أن يذهب إلى نهاية شكوكه ما دام يتبنى نفس شكوكي.

في تلك اللحظة لا أحد ممن حولي استوعب الرسالة. لأنهم لم يفهموا لما قلت تلك الكلمات. فكر أغلبهم أن يهوذا بصفته أمين مالنا فقد أمرته أن يشتر لنا ما سنحتاجه للعيد. وبمجرد انصرافه أحسست بشفقة عارمة تجتاحني تجاهه. ضغطت قبضتي وتمتمت: «يا لتعاسة هذا الرجل الذي سيسلم ابن الانسان. كان الأجدر به أن لا يولد قط»

ـ ومع ذلك، فأنت كنت تؤيد تصرفه.

ـ كنت أتخيل مصيره المنذور له وهو أن يكره ويلعن إلى أبد الآبدين. ممقوت من جيل إلى جيل. وايهوذا، وايهوذا، وا يهوذاه... نعم كان يجب ألا يرى النور.

يتوقف ثم يضيف:

ـ هناك أيضا الخوف الشبيه بالحزن الذي يمكنه أن يقود إلى تيه رهيب. ليس الخوف من الموت ولكن من عذابه.

يهز الكاهن حاجبيه.

ـ الخوف من الموت؟ وانت؟

ـ يا نيقديموس، وحدهم اليائسون من يتجاهلون الخوف. وأنا أحمل في داخلي آمالا كبيرة، ثم هل تحدثت عن الموت؟ تحدثت فقط عن عذاباته.

يحدق يسوع بعينيه الغائمتين في عيني نيقديموس ثم يواصل:

ـ الموت لا وجود له.

تتحرك شفتا الكاهن وكأنه سيطرح سؤالا يعذبه منذ وصوله:

ـ الحرية أم الموت؟

لا فائدة فقد اجاب ابن الانسان عن السؤال سابقا، فاكتفى بالقول:

ـ بقيت ليلتين، وبعد غد عند الفجر سعود أنا ويوسف. سنحضر لك كفنا وطيبا.

وكأن يسوع لم يسمع هذه المعلومة. دعك ورقة البردي الأخيرة وطلب من نيقديموس:

ـ مادامت الساعة قد حانت. هل يمكنني أن أعبر لك عن رغبتي الأخيرة؟

ـ ما هي يا رابي؟

ـ هذه الأوراق هل تعدني ألا تدمرها بعد رحيلي وان تحافظ عليها؟

ـ أنا؟ هل ترغب أن أكون أنا حارسها؟

ـ نعم يا نيقديموس أنت. هل تقدم لي هذا المعروف؟

ـ هل تعتبر هذا المكتوب نفيسا؟

ـ أكثر من ذلك.

يتردد الكاهن متجولا بنظراته بين الأوراق المكدسة.

ـ رابي. كنت قد سألتك ذات مرة لكنك لم تجبني. لماذا ولمن خصصت كل هذه الساعات للكتابة. مع أنك لن تعرف ماذا سيكون مصيرها؟

ـ كتبتها من أجل الآخرين. لمن سيأتي بعدي.

ـ من بعدك؟

يميل يسوع تجاه الكاهن. وفجأة يبدأ في الاضطراب.

ـ أستشعر قدوم العاصفة يا نيقديموس. الزوبعة والخيانة. أتوقع مستقبلا غامضا ومرعبا.

يهز نيقديموس رأسه مرتبكا:

ـ ماذا تقصد؟

ـ يوما بعد يوم. أرى ظهور ونمو سوء التفاهم في أعين حواريّ وفي أعين الحشود التي كانت تنصت إليّ. أنا راحل وأخشى أن يستولى على كلماتي فتجمل كما تجمل فتاة سيئة السمعة. في هذه الحالة ستصبح وصايا أبي مجرد هباء. أنا تحدثت عن السلام وهم سيحولونه إلى حرب سيخوضونها باسمي. وتحدثت عن الحب وهم سيحولونه إلى كراهية كي تطفح الدماء من بطون الأرض. وسيفعلون ذلك باسمي. تحدثت عن البسطاء الذين سيرثون الذهب والقصور وتحدثت عن الرحمة لكنهم سيختلقون الخطايا. أردت أن أحرر الانسان من العناء الجسيم لتعاليم عقيمة لا نفع فيها، لكنهم سيصبحون أسياد المنع والقوانين. أخشى ما أخشاه يا نيقديموس بل استشعر أنكم إذا كنتم أنتم قد سرقتم مني موتي فإن الآتين بعدي سيسرقون مني حياتي.

ـ أنت إذاً لا تثق كثيرا بحوارييك؟

ـ لا ليس حواريّ فقط لأنهم ليسوا خالدين كما أنهم عرفوني عن قرب. أقصد الآخرين الذين سيأتون فيما بعد فهم لا يعرفونني. من هؤلاء سيظهر الخطر. سيتنازعون ذاكرتي كما تنازع الجنود سترتي. سيكون الأمر رهيبا. يا نيقديموس انظر كيف ستصبح كتبنا المقدسة... انظر كيف ستصبح مهانة على أفواه الفريسيين والسدوسيين والأسينيين والزيلوت والسامريين. وغداً من يدري، الـ...

* يحاول يسوع أن يجد الكلمة المناسبة. يقترح نيقديموس:

ـ الـ... الناصريون.

ـ ربما، ومن ضلالهم ستولد ديانة جديدة.

ـ أليس هذا ما تبحث عنه؟ القطيعة؟ وإزالة ما أسسه آباؤنا؟

يحس ابن الانسان بالسأم:

- مسكين انت يا نيقديموس. مازلت لم تفهم شيئا. مع أنني كل ما قلته أكدته بوضوح: «لم آت لإلغاء الكتابات السابقة ولكن لإتمامها» لقد أكدت ذلك بقولي: «من يلغي أبسط الوصايا ومن يعلم الناس فعل ذلك سيصبح الأصغر في مملكة السموات، لكن الذي يتأمل الوصايا ويعلم تأملها سيلقب بالعظيم في مملكة السموات»

- ألا يتعارض هذا مع خطبك؟

- عبَّر كيفاس أيضا عن نفس الملاحظة. لا. يوجد اختلاف بين فعل الالغاء وفعل التحسين. لم أرغب في شيء سوى تخليص ديانة آبائنا من بهرجها وإلباسها حلة جديدة. وليس مطلقا اختلاق ديانة جديدة.

يتوقف ابن الانسان عن الكلام قليلا قبل أن يشير إلى أوراق البردي.

- كتب كل شيء. هذا ميراثي. حافظ عليه!

يحس نيقديموس بالدوار.

- أعدك أني سأفعل.

يخيم الصمت على المكان. يخطو يسوع بضع خطوات ثم يجلس فوق الحصير:

- طرحت عليّ سؤالا. والآن جاء دوري لأسألك.

- نعم.

- قريني الآخر، ماذا حل به؟

امتنع نيقديموس عن الاجابة، فأصر يسوع:

- قريني الذي جعلتموه يظهر هنا وهناك. هل يشبهني إلى هذه الدرجة حتى يضلل الذين يعرفونني جيدا؟

ـ لا أنت مخطئ فهو يشبهك حد التطابق. أنت مخطئ، أنا أعرف أن كلماتي تزرع فيك الشك لكن ليس هناك قرين لأن لا أحد منا فكر في مثل هذه الخدعة. لا يوسف ولا أي عضو آخر من السنهدرين. يمكنني أن أؤكد لك ذلك. كان من المستحيل إعداد مثل ذلك. ثق بي. بخصوص هذا الأمر يجب أن تصدقني.

يأخذ نيقديموس نفسا قصيرا قبل أن يفصح:

ـ في الحقيقة، نحن فكرنا مليا ان هذه التجليات لم تكن سوى إشاعات أذاعها حواريوك. كنا مقتنعين بذلك كل الإقتناع. لكن ذات صباح شاهدك رجلان من جنود هيرودس، فأصبحت شهادتهما حقيقة لا جدال حولها.

يتوتر يسوع وينشدُّ جسده كالقوس.

ـ رجلا هيرودس؟ متى وأين؟

ـ على ضفة بحر الجليل. أياما بعد أن أخرجناك من القبر.

صمت.

يلاحظ يسوع:

ـ في ذلك الوقت كنت ألزم الفراش، هنا بالتحديد كنت أتأرجح بين الحياة والموت.

ـ بالفعل، كان المعالج المكلف بعلاجك متأكداً من موتك الوشيك. لكن التئام جراحك بشكل عجيب، عجل بعلاجك.

يستغرق يسوع في الشرود محدقا في عيني الكاهن بحدة ثم يسأل بإلحاح:

ـ هل أنت متأكد أن لاشيء حدث بعد معالجتي؟

ـ لا رابي، أؤكد لك ذلك.

تشتبك وتحتدم في ذهن ابن الانسان أفكار جديدة.

يقول ببطء:

ـ إذن حدثت هذه التجليات وأنا أتأرجح بين عالمين، فقط في هذه اللحظة بالذات كما لو أن دنو ملاك الموت نتج عنه صراع بين الجسد والروح. الجسد انطلق إلى مكان آخر هاربا ومترددا بينما الروح تستعجل الانفصال للالتحاق بالأب.

يتوقف يسوع لحظة. قسمات وجهه تنبسط ثم يواصل:

ـ لا يوجد إلا تفسير واحد لهذه التجليات.

ـ ما هو؟

ـ أمتلك هذه القدرة. هي قدرة إضافية منحني الرب إياها راودتني هذه الفكرة سابقا لكنني استبعدتها ومع ذلك فهذه هي الحقيقة بعينها.

ـ الحقيقة؟ لا أستوعب كلامك.

ـ ألم تقل إن هذه التجليات حدثت عندما كنت بين الحياة والموت؟ وليس بعد ذلك؟

يوافق نيقديموس.

ـ أذكرك بعباراتي التي قلتها قبل قليل: «حدثت هذه التجليات وأنا أتأرجح بين عالمين، فقط في هذه اللحظة بالذات كما لو أن دنو ملاك الموت نتج عنه صراع بين الجسد والروح. الجسد انطلق إلى مكان آخر هاربا ومترددا بينما الروح تستعجل الانفصال للالتحاق بالأب.»

ـ دون أن نعي ذلك؟ ودون أن نحتفظ بأدنى ذكرى؟ هذا غير معقول!

ـ بالنسبة لإبن الانسان... نعم.

يخيم الصمت. يغرق ابن الانسان في تفكير عميق. خرير ماء، حفيف قضبان قصب لامعة. صرخات تأتي دفعات من أعماق الليل. صراخ يائس.

لآلئ عرق تسيل على صدغي يسوع ويدوي نفس الصوت داخل تخوم ذاته:
«سيتمم إذاً خطته المعدة سلفا ويعد أخرى أيضا»

بعد لحظات مديدة يتمتم:

ـ كل شيء واضح يا نيقديموس. لسنا أحياء ولسنا أمواتا ولكن في المنزلة بين المنزلتين. الآن أعلم أن كل شيء قد انتهى. كل شيء انقضى. ما كان هو ما سيكون وما حدث هو ما سيحدث. تذكر هذه الكلمات يا نيقديموس.

الفصل السادس عشر
٢٢ أيار ـ بئر السبع

وصل للتو سمعان بيير وفليب ووقفا أمام منزل. المنزل متواضع. حيطانه من التراب المطلي بالجير الأبيض. سقفه من الخشب والأغصان.

تحت ظلال شجر القبقب يلعب طفلان. بنت وولد يلعبان في الدرب الحجري. يناديهما فليب.

ـ هل يقطن هنا يالون ابن ميناسي؟

ـ نعم. إنه أبونا.

يقترب الرجلان من الباب. يطرق سمعان بيير طرقتين.

تمر برهة. تفتح امرأة في الثلاثين الباب على مصراعيه. قامتها متوسطة، بنيتها قوية وجهها يحيطه شعر مجعد وعيناها سوداوان وواسعتان.

ـ سلام عليك. يستهل سمعان بيير. هل نحن عند ابن مناسي؟

ترد المرأة بالايجاب وترى أنه من الضروري أن تضيف:

ـ إنه زوجي.

ـ هل يوجد الآن؟

يشرق وجه المرأة فجأة وكأنها تستشعر أملا:

ـ هل عثرتم عليه؟

يغمغم سمعان بيير مشوشا.

ـ العثور عليه!؟

يتكدر وجه المرأة وتبدو وكأنها ستنهار:

ـ مضت ثمانية أيام ولا نعلم عنه شيئا. من أنت؟

ـ هل تسمحين لنا بالدخول؟ يسأل سمعان بيير.

تتردد المرأة متفحصة الرجلين بتوجس. توافق في الأخير.

في الداخل: كراس وحصر ومخدات وبضع جرار وخزانة وفرن للخبز موضوع في تجويف حائطي. تترك المرأة الباب منفرجا.

ـ حسنا قولي لنا ماذا حدث؟

يجلس سمعان بيير على الحصير بينما فليب يبقى واقفا:

ـ نحن هنا بخصوص أم يالون.

ـ ياكيرا؟

ـ نعم...

ـ ماتت. هل تعلمان ذلك؟

ـ لأجل هذا نحن هنا. فقد علمنا أنها سلمت ابنها رسالة موجهة إلى أصدقاء من بيت عنيا، و...

ـ نعم... نعم... أنا على علم بذلك. كما أن يالون اختفى منذ ذلك اليوم. ذهب إلى بيت عنيا ولم يعد منها أبدا.

يتبادل بيير وفليب نظرات خاطفة.

ـ ولم يره أحد؟ يسأل هذا الأخير.

ـ لا أحد.

أصبح وجه المرأة متضرعا:

ـ هل تعلمان شيئا؟ هل مازال حيا؟ هل هو مريض؟

ـ للأسف يا أختاه، نحن أيضا، نجهل مصيره. كنا نعتقد أننا سنجده هنا. ربما تستطيعين مساعدتنا؟

ـ أساعدكم وأنا من يعيش في هذا الشقاء؟

اسمعيني. يتدخل سمعان بيير. هل قتلت أم يالون حقا؟

ـ نعم، امرأة في عمرها... المسكينة وهي البريئة كيف سولت نفسهم فعل ذلك؟

ـ هل تعلمين أين كانت تشتغل؟ هل يمكنك مدنا باسم مشغلها؟

ـ لماذا؟ وما علاقة ذلك بيالون؟

ـ لأن الأدلة تجعلنا نعتقد أن مقتل الأم واختفاء الابن مرتبطان ببعضهما. اسم واحد أرجوك.

تحرك المرأة رأسها عدة مرات متأسفة.

ـ ليست لدي أدنى فكرة، أتذكر فقط أن شخصا جاء ذات يوم للبحث عن خادمة، فرشَّحت ياكيرا نفسها. كانت الأجرة جيدة.

ـ هل كنت حاضرة يومها؟

توافق.

ـ هل أفصح الرجل عن هويته؟

ـ لا. أو ربما لا أتذكر جيدا.

ـ أرجوك. أبذلي مجهودا!

ـ أنتما تخيفاني هل تظن أن هذا الرجل...

ـ أنا فقط متأكد من أننا إذا تمكنا من معرفة المكان الذي كانت تعمل فيه كنتك، فإننا سنعرف ما حدث ليالون.

تشد المرأة وجهها بكفيها.

ـ فكري... يرجوها فليب. ربما صادفت شيئا. كلمة مثلا.

ـ لاشيء، لاشيء، لا أتذكر شيئا.

يحاصر الحواريين إحساس بالعجز. ينهض بيير واضعا كفه على كتف المرأة ويقول بموساة:

ـ اغفري لنا يا أختاه إن قد تسرعنا في طرح الأسئلة، فلأننا قمنا بسفر طويل من كفرنعوم إلى هنا وهذا أتعبنا.

يصدر تنهيدة.

ـ لو كان بمقدوري مساعدتكما بخصوص يالون...

ـ فليحفظك الرب، سنصلي لأجله كي يرجع إليك. سلام عليك.

يرجع الحواريان إلى مخرج الباب. في الخارج نسيم يهز دوائر الغبار. يترك الطفلان ظلال شجرة القبقب ويقتربان من الرجلين.

تهمس الطفلة:

ـ بئر العهد ؟ (السبع أو السبعة) «المترجم».

يقطب بيير جبينه ويدغدغ شعر الطفلة. بطبيعة الحال، لم يهتم كثيرا بكلامها، فكررت بإلحاح:

ـ بئر العهد.

ينحني فليب نحو الطفلة.

ـ هل يمكنك أن تشرحي أكثر.

ـ عندما خرج الرجل من المنزل كان شخص ينتظره فتحدثا معا عن بئر العهد.

ـ بئر العهد؟ يكرر فليب.

ـ ابنتي تقول الحقيقة. تهتف المرأة القادمة صوبهم. المكان يوجد غرب الصحراء. على مسافة ساعة سيرا على الاقدام هناك بئر. يحكي سكان المنطقة أن في ذلك المكان وقّع إبراهيم وملك العمالقة عقدا بموجبه يمنح ابومالك إلى أبينا الحق في إرواء ماشيته.

يتفحص فليب رفيقه. لا أحد منهما سمع مثل هذه الحكاية. وبدون تردد قال بيير.

ـ هيا بنا بسرعة.

الرمال حارقة. الشمس لاهبة وقت الظهيرة. العربة تتأرجح فوق الحصى. الحصان يلهث، منخاراه ينفثان الرغوة. يجلس الحواريان ينظران إلى تحول الحصى إلى رمال ممتدة.

قريبا ستظهر الصخور الناتئة من جوف الرمل. بئر وحاد يشرب من قربته. ليس بعيدا يمنة نلمح بيتا صغيرا ينقشع من وراء ستارة الحرارة.

ـ هنا يقول سمعان بيير متعجبا.

يعبران بسرعة المسافة التي تفصلهما عن المكان.

يضعان أقدامهما على التراب ويهرولان نحو المبنى.

وأثناء عجلتهما لم يفكرا لحظة ولم ينتبها قط إلى الخيالة الذين يركضون بعيدا خلفهم.

الباب مفتوح. يمسحان بسرعة ديكور المكان ثم يدلفان إلى ممر يؤدي إلى غرفة بدون نوافذ. حصير. طاولة ومصباح.

يتجمد الرجلان في مكانهما.

ـ ما من أحد هنا.

ـ ربما لم يوجد أي أحد هنا. يصحح بيير.

يتقصيان بعناية كل ركن من المكان.

ـ أنت مخطئ. يصرخ فليب. كان هنا شخص ما. انظر!

على الحصير نلمح آثار دماء ويقع حبر تلطخ الطاولة. وعصيبة ملقاة على الارض.

ـ كان هنا، رابي. كان هنا.

تستشري قشعريرة في جسم سمعان بيير مرتعشا يقول:

ـ أنت محق يا أخي. هذا الدم لن يكون سوى دمه.

ـ أين ذهب؟ وأين سنعثر عليه؟

ـ لا يرد بيير. يجلس على ركبتيه أمام الحصير، تقبض كفاه بقوة شديدة على قطع صغيرة من القش. نائحا يقول:

ـ وا أبتاه... رابوني. . وا أبتاه!

توقفه جلبة. يرفع رأسه.

ثلاثة جنود مسلحين يظهرون فجأة عند المدخل.

قيسارية

يخفي بيلات وراء هدوئه شيئا مرعبا. بالكاد يمكن ملاحظة رعشة خفيفة تظهر على شفتي وجهه الرخامي.

فليب وبيير يرقبان الحاكم مقيدا اليدين.

ـ هكذا إذاً، تزعمان أن جريمة قد حدثت.

يوافق الحواريان.

ـ امرأة كانت مكلفة بحمل رسالة الجليلي...

يوافقان مرة اخرى.

ـ ما هو محتوى هذه الرسالة؟ لن ينفعكما بشيء اعترافكما. فأنا القاضي الوحيد يا بن جوناس. ها انا أسمعك...

ـ «إذا قال لكم احد أن يسوع يوجد هنا أو هناك، فلا تصدقوه لأنه سيظهر اكثر من يسوع مزيف وأنبياء مزيفين. لكن طوبى لمن لم يره وصدقه»

ـ أهذا كل شيء؟

ـ هذا كل شيء أيها الحاكم.

ـ هذا يعني ـ إذا سلمنا بفرضيتكم ـ أن الجليلي أيضا يعتبر هذه التجليات مجرد كلام فارغ. وهذا يؤكد بالمناسبة أن الرجل أنزل من الصليب حيا.

يهز بيير كتفيه:

ـ تماما كأحكامك، فاستنتاجاتك تخصك وحدك.

ـ بمن تتلاعب، أليست الأمور كلها واضحة؟

صوت الحاكم أصبح حادا:

ـ إذا كان حيا، فمعنى هذا أنه لم يمت!

ـ أو أنه مات وانبعث من جديد... يصحح فليب بهدوء.

يطلق بيلات قهقهة متوترة:

ـ أيها المسكينان التعيسان. سذاجتكما مريعة. وبسببها وحدها يجب أن تلقيا نفس مصير زعيمكما. الأمر عندي سيان. فأن تؤمنا برب واحد مرئي لا اسم له يجعلكما بسيطي التفكير وعليه لا ينبغي التحدث مع العقول البسيطة. أنا أشفق عليكما وأشفق على سلالتكما.

يكنس الهواء بيده ثم يواصل لكن هذه المرة موجها خطابه لجنوده الواقفين جانبا.

ـ هكذا إذاً. البيت كان فارغا.

ـ نعم سيدي الحاكم، كان فارغا.

يستدير بيلات ويمشي في اتجاه المائدة حيث يوجد كوب وجرة ماء. يصب ويشرب جرعة وهو شارد البال.

يفرض استنتاج ملح نفسه مما أمكنه أن يتنفس الصعداء. واضح أن الحواريين والناصري ليسوا متآمرين. فرضية المؤامرة إذاً باطلة، غير أن مجموعة من الأسئلة تبقى عالقة تشغل باله: من يقف وراء يسوع؟ الكهنة؟ كانت هذه هي الفكرة الأولى. مستحيل. هكذا دافع يوسف ونيقديموس عن نفسيهما: «هل يمكنك أن تصدق أننا نحن أعضاء السنهدرين يمكننا أن نشترك مع هذا الشخص الذي لا يتمنى غير تحطيمنا؟ » إذن من؟ ولماذا؟ ولأي سبب لم يظهر الرجل«يسوع» منذ شهر في أي مكان؟ فلا تجل ولا تظاهرة بأي شكل من الأشكال. مع ذلك يبقى احتمال آخر: ربما لفرط سعادته بالنجاة من الموت فر مغادرا البلاد. ممكن جدا، لكن هذه مجرد فرضية، إذن ما العمل؟

أصابع بيلات تعصر الكوب. لا يوجد إلا جواب واحد: الانتظار، الترقب والصلاة للآلهة على أمل أن تظهر رسالة في الغد أو في الأيام القادمة آتية من طبريا أو سيجان معلنة أن الوقت قد حان كي يغادر البلاد أو حتى أن الحجارة تصرخ في الليل والأشجار تعتقد نفسها النبي المنقذ.

في مكان ما من يهودية في ٢٣ أيار عند أوان الفجر.

يسير نيقديموس ويوسف الرامي بتؤدة في اتجاه الغرفة. يحمل يوسف صندوقا مملوءا بالطيب ونيقديموس يحمل كفنا مطويا ووراءهما يسير قائد جنود المعبد مالشوس حاملا سيفه.

عند وصولهم إلى الباب، يتوقف نيقديموس مترددا قبل أن يأمر الجندي:

ـ افعل ذلك بسرعة! حاول ألاَّ يكون مؤلما.

يطمئنه الجندي.

ـ لا تخش شيئا.

يبتعد الكاهنان مفسحان له الطريق. يدير مالشوس المفتاح ويدفع المصراع. يتوقف عند عتبة الغرفة.

يناديه يوسف الرامي منزعجا:

- ماذا تنتظر؟

لا يرد مالشوس.

- إنه . . .

- ماذا دهاك؟ تكلم!

- إنه . . . إنه اختفى.

يندفع الكاهنان نحو الداخل وعيونهما تستكشفان الغرفة.

أوراق البردي ملفوفة بعناية بين المحبرة وقلم القصب. وبوثبة واحدة هرول الثلاثة خارجا.

السماء حمراء.

يلاحظ نيقديموس أثار أقدام على الرمل تتجه نحو الأفق.

يقسم إنها لم تكن موجودة بالأمس.

الفصل السابع عشر

أورشليم بعد ثلاث سنوات - إقامة كيفاس

تدخل عبر النافذة المنفرجة رائحة خبز قادمة من الأراضي التي لم تعد تحصد. الهواء منحبس فلا ورقة تتحرك.

- سنوات مضت ومازلت أفكر في هذه القضية. يتنهد كيفاس. كنت دائما أفكر أن الجليلي لا يمكن ان يستسلم بسهولة. ما كنت أبدا سأصدق ذلك.

يمد إلى نيقديموس صحنا من الرمان وهو يواصل حديثه:

- هل تعتقد حقا أن هذا التحول المفاجئ في الساعة الأخيرة مرده إلى خوفه من الرضوخ إلى شروطنا؟

يخفي نيقديموس حرجه مرة أخرى.

- لا أدري. الخوف ربما أو الحكمة، او هما معا.

- هذا يدل على أنه لم يكن سوى بشر، على أي حال، فهو يشبهنا. هل رافقته فعلا على ظهر المركب؟ هل بقي هناك؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

يجهد نيقديموس نفسه ليبدوا وجهه مستنكرا:

- يا أخي، لقد طرحت عليّ هذا السؤال مرارا. انتظرت بنفسي حتى انفكّ القلس وغاب المركب عن الأنظار. كما أن القبطان تلقى أمرا الا يعود أدراجه مهما كان السبب.

ـ حسنا حسنا. لكن يجب الاعتراف أن مشروعنا كاد أن ينقلب إلى كارثة. والآن نتمنى أن تتكلل مجهوداتنا بنجاح مضاعف.

يريد الكاهن أن يبدو واثقا من نفسه:

ـ كيف يمكن للأمور ألا تكون غير ذلك؟ يكفي أن ننظر إلى ما يحدث حولنا. تخلصنا من بيلات. يقولون إنه نفي إلى بلاد الغال. والبعض الآخر يتحدث عن موته[1]. لا يكف مؤيدو يسوع عن التكاثر ولا يمر يوم إلا ونسمع هنا وهناك عن ظهور مرشدين ينشرون تعاليمه. من صور إلى أنطاكية ومن دمشق إلى أفسس.

ـ هذا صحيح. يعترف كيفاس. تصور أن شخصا يدعى بولس الطرسوسي قد حمل المشعل بحماس أكبر من حواريي الجليلي. وعلى خلاف معلمه فإنه يدعو إلى القطيعة النهائية مع اليهودية. وقد وصلني عنه أنه يتمسك بعبارات في أغلبها سفالة تتناقض مع ما سمعته من الناصري.

أسردها عليك بلا ترتيب: «أظن أنه من الأفضل للرجل أن لا يمسس المرأة. هل أنت مرتبط بامرأة فلا تبحث عن فك هذا الارتباط. وإذا كنت غير مرتبط بامرأة فلا تبحث عن امرأة. » فكيف إذاً مخلوقات الرب ستتناسل؟

يرسم نيقديموس ابتسامة:

ـ ليس هذا كل شيء، يواصل الكاهن الكبير. هذا المدعو بولس يؤكد أيضا أنه: «إذا كانت المرأة غير محجبة فيجب أن تحلق شعرها. أما الرجل فلا يجب أن يغطي رأسه لأنه صورة عن مجد الرب، بينما المرأة هي مجد الرجل! الرجل لم يخلق من المرأة بل المرأة من خلقت من الرجل. وهذا الأخير لم يخلق لأجل المرأة ولكن المرأة هي التي خلقت لأجل الرجل»

---

(١) في الحقيقة، كان بيلات قد مات فعلا منذ فترة. يقال إنه انتحر بأمر من كاليغولا.

يصمت الكاهن لحظة ثم يسأل:

ـ أليس هذا مذهلاً؟

يحافظ نيقديموس على صمته وفي باله يتردد صوت سمعه منذ ثلاث سنوات.

«لم أرغب في شيء سوى تخليص ديانة آبائنا من بهرجها وإلباسها حلة جديدة. وليس مطلقا اختلاق ديانة جديدة. أنا راحل وأخشى أن يُستولى على كلماتي فتُجمَّل كما تجمل فتاة سيئة السمعة.»

ـ هناك ما هو افضل. يواصل كيفاس. اسمع:

«من دعي للختان، فليختتن ومن لم يدع للختان فلا يختتن» هل تدرك هذا؟ الناصري لم يتفوه أبدا بمثل هذه الوصايا.

ـ مجنون هذا المدعو بولس. لا تهتم بالأمر يا نيقديموس.

ـ أنت مخطئ يا أخي، إنه أمر جيد. أليس هذا ما كنا نصبو إليه؟!

ـ أدرك ذلك لكنني لم أتوقع أن تتبلور بهذه السرعة.

ـ فلنشكر الرب ونحمده كل يوم. فقد حان الوقت أخيرا كي يجابه الرومان آخرين غيرنا. كل مخططاتنا سارت على أحسن ما يرام. ديانة جديدة تبلورت وأخذت في الانبلاج. ديانة ستكون هي ايضا العدو اللدود لروما لمواجهة ديانة الامبراطور المقدس. آجلا أم عاجلا وامام هذا التشرذم فإن روما ستختفي وفي النهاية نتحرر. حمدا لأدوناي.

يعبِّر نيقديموس عن نشوته لكن في داخله العاصفة عادت تعصف. والأرض استأنفت صراخها. ها هي آلاف ليالي السهاد قد عادت مرة أخرى ولن يعرف الرقاد أبدا.

الغرفة فارغة.

أوراق البردي ملفوفة بعناية فوق المائدة.

ليس هنا. الرب شاهد على ذلك. الغرفة كانت فارغة.

ومنذ تلك الساعة ها هو مقدر عليه أن يحمل السؤال المؤرق المتمنع عن الاجابة إلى آخر يوم من حياته.

ثلاث سنوات، ثلاث سنوات، لم يتوقف يوما في حياته عن استعادة الذاكرة على أعقابها المرة تلو المرة.

ـ في ذلك الوقت كنت ألزم الفراش، هنا بالتحديد كنت أتأرجح بين الحياة والموت.

ـ بالفعل، كان المعالج المكلف بعلاجك متأكداً من موتك الوشيك. لكن التئام جراحك بشكل عجيب، عجّل بعلاجك.

يستغرق يسوع في الشرود محدقا في عيني الكاهن بحدة ثم يسأل بإلحاح:

ـ هل أنت متأكد أن لاشيء حدث بعد معالجتي؟

ـ لا رابي، أؤكد لك ذلك.

تشتبك وتحتدم في ذهن ابن الانسان أفكار جديدة.

يقول ببطء:

ـ إذن حدثت هذه التجليات وأنا أتأرجح بين عالمين، فقط في هذه اللحظة بالذات كما لو أن دنو ملاك الموت نتج عنه صراع بين الجسد والروح. الجسد انطلق إلى مكان آخر هاربا ومترددا بينما الروح تستعجل الانفصال للالتحاق بالأب.

في اليوم الموالي للصلب أزاح يوسف الرامي ونيقديموس الحجر فاكتشفا أن يسوع مازال على قيد الحياة.

على قيد الحياة، أليس هذا ما استنتجناه؟ أم شيئا آخر؟

التفكير في احتمال آخر يجعل روح نيقديموس ترتعد.

إنبعث؟!

مستحيل. مستحيل. يرفض قلبه، عقله، إيمانه الراسخ، الضارب بجذوره في أعماقه، أن يصدق.

بعد ضربة الرمح مات ثم ينبعث؟

لا ، هذا غير معقول، غير معقول!

ـ إذن حدثت هذه التجليات وأنا أتأرجح بين عالمين، فقط في هذه اللحظة بالذات كما لو أن دنو ملاك الموت نتج عنه صراع بين الجسد والروح. الجسد انطلق إلى مكان آخر هاربا ومترددا بينما الروح تستعجل الانفصال للالتحاق بالأب.

لا يوجد إلا تفسير واحد لهذه التجليات.

ـ ماهو؟

ـ أمتلك هذه القدرة

أجل، بالفعل. يمكن أن يكون هذا هو التفسير الوحيد. كان الجليلي يملك هذه القدرة الخارقة مثل دوستيوس وسمعان، السحر، وكل هؤلاء المنجمين الذين يتزايدون في المنطقة. على أي حال، ألم يكن يشفي المرضى، ويطرد الأرواح الشريرة؟ ألم يعد البصر للعميان؟ بل قيل أيضا إنه كان يسير فوق الماء وأعاد للحياة احد المقربين إليه المدعو لعازر وابنة رئيس معبد كفر نعوم. نعم له هذه القدرة الخارقة. هذا هو التفسير الوحيد ولا يمكن أن يوجد تفسير آخر.

كل شيء واضح يا نيقديموس. لسنا أحياء ولسنا أمواتا ولكن في المنزلة بين المنزلتين. الآن أعلم أن كل شيء قد انتهى. كل شيء انقضى. ما كان هو ما سيكون، وما حدث هو ما سيحدث. تذكر هذه الكلمات يا نيقديموس.

إبك يا نيقديموس. إبك! اختفى الفرح والرقص من قلبك. وحل محلهما الحزن

وكل الذين أحببتهم لن يستطيعوا مواساتك، وبلاجدوى ستصرخ وتتمنى النجدة ولكن لا احد سيغيثك. أغلقت طريقك بالحجارة المنحوتة ودمرت دروبك.

كان وسيبقى ابن الإنسان بالنسبة لك لغزا متواريا في مكان ما.

أجوبة عن بعض الاستغرابات

١ ـ حول إخوة وأخوات يسوع

مرقس (٣ : ٣١ ـ ٣٥) : «فجاءت حينئذ امه وإخوته ووقفوا خارجا وأرسلوا اليه يدعونه. وكان الجمع جالسا حوله فقالوا له هي ذي امك واخوتك خارجا يطلبونك. » متى (١٣ : ٥٥): «أليس هذا ابن النجار؟ أليست هذه مريم أمه؟ أليس يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا إخوته؟ وليست أخواته كلهن بيننا؟ » لوقا (٢ : ٧)

«بينما هما هناك تمّت ايامها لتلد. فولدت ابنها البكر» لوقا (٨: ١٩) «جاءت أمه وإخوته لملاقاتهن لكنهم لم يستطيعوا محادثته بسبب الحشود» يوحنا (٢ : ١٢): «بعد ذلك، نزل إلى كفر نعوم رفقة أمه وإخوته وحوارييه» يوحنا (٧ : ٣): «ثم قال له إخوته: ارحل من هنا واذهب إلى يهودية لكي يرى حواريوك معجزاتك. لأن إخوته أيضا لا يصدقونه»

بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (١ ، ١٩) يحدد: «لكنني لم أر أي حواري غير يعقوب أخا للسيد»

أردنا أن نخلص إلى أن كلمة «أخ» لها معنى واسع في العبرية akh انطلاقا من مبدأ أنه لا يوجد في الآرامية ولا في العبرية مفردة لتعيين: ابن عمومة أو قرابة من بعيد أو قريب. كما أن العادات الشرقية توسع دلالة كلمة أخ لتعم الأقرباء

على وجه العموم أو حتى الأصدقاء. لكن لابد من إبداء ملاحظة مهمة: إنجيل ورسائل بولس كتبت باللغة اليونانية وهذه الأخيرة تميز بين Adelphos التي تعني «أخ» و anepsios التي تعني «ابن عمومة».

٢ ـ حول ما صلب عليه يسوع

ربما لم يصلب يسوع أبدا على صليب كما نتخيل ذلك ولكن على جذع شجرة زيتون. كان من عادة الرومان أن يصلبوا بالمئات قطّاع الطرق والمجرمين والمتمردين. وفكرة تخصيص صليب لكل مدان مستبعدة كثيرا. فما كان يصنع هي عارضة خشبية يصلب عليها المذنب. في متحف أورشليم يتم عرض سلسلة من الصلبان تمثل لتلك المرحلة، كلها وبدون استثناء مصنوعة من جذوع شجر الزيتون وعلى شكل عارضة. أحيانا على شكل كرسي يثبت أمام الصليب في وسطه تقريبا لمساندة الجسد في عذابه وبالتالي تمديد احتضاره. ويمكن لنفس الجذع أن يستعمل إلى ما لا نهاية. بالاضافة إلى هذا فقد أشار المؤرخ اليهودي للقرن الأول فلافيوس يوسف أن الخشب في أورشليم كان نادرا في ذلك الوقت، فكان الرومان يضطرون للذهاب مسافة عشرة أميال (١٦ كلم تقريبا) خارج المدينة للعثور على الخشب اللازم لصناعة آلات الحصار.

٣ ـ حول ضربة الرمح

من وجهة نظر طبية صرفة، وبشكل متناقض للسياق، فإن ضربة الرمح يمكن أن تكون تفسيرا لبقاء يسوع على قيد الحياة. إذا أخذنا بعين الاعتبار وصف يوحنا (١٩ : ٣٤) «خرق أحد الجنود برمحه جنبه وعلى الفور تدفق الدم والماء» محتمل جدا أن يكون يسوع ضحية «وذمة» رئوية وتتميز باحتباس تنفسي. ويبدو أن السائل الذي خرج من الرئتين كان لونه ورديا رغويا ومن هنا يظهر سبب ظهور «الماء والدم» فاختراق الوذمة يحرر في الحال الضغط المفروض على الرئتين، فتستعيد الضحية تنفسها الطبيعي.

٤ ـ حول تاريخ ولادة يسوع

خلال القرن السادس سيتصارع المسيحيون حول تاريخ عيد الفصح. عيد انبعاث المسيح. سينخرط دنيس لوبوتي الرياضي والفلكي في هذه الحرب الكلامية مقدما للبابا يوحنا الأول في سنة ٥٢٥ م أو ٥٣٢م حسب المصادر، تقويما زمنيا جديدا للبشرية مبنياً على تاريخ ولادة المسيح بعدما كان التاريخ يقوم على التاريخ المفترض لقيام الدولة الرومانية. وحسب حسابات دنيس لوبوتي، فإن يسوع ولد سنة ٧٥٣ بعد قيام روما، ونعلم أنه كان مخطئا. لأنه في نظر لوك: «في ذلك الوقت ظهر مرسوم للقيصر أغوسطين يأمر بإحصاء الأراضي. حدث الاحصاء الأول خلال حكم كورنيوس لسوريا. وحسب الأرشيف ففي هذه الفترة لم يصبح بعد كورنيوس حاكما لسوريا إلا في العام السادس بعد ميلاد المسيح». ومن جهة أخرى فإن «متى» يقول إن يسوع ولد في «عصر الملك هيرودس الأكبر» وهيرودس مات في العام الرابع قبل ميلاد المسيح.

وبشكل عام فإن يسوع لم يولد إلا بعد هلاك هذا الحاكم حوالي العام السابع. أو ما قبل ميلاد المسيح. وبخصوص الشهر فلم يتحدث أي مؤرخ معاصر جاد عن ديسمبر/ كانون الأول أو على الأقل الـ ٢٥ منه وهو تاريخ وثني قديم يدون لانتصار ميثرا على الظلمات.

إن اختيار ٢٥ ديسمبر/ كانون الأول تقرر سنة ٣٢٥م: خلال مجمع نيقية أرادت الكنيسة إذن أن تعوض عيدا وثنيا بعيد ميلاد المسيح.

في المقبل فكل شيء يدعو إلى الاعتقاد أنه ولد حوالي منتصف شهر أبريل/ نيسان وبالضبط خلال فترة الفصح. لوقا وحده يذكر أن يسوع ولد في «زريبة» لأن الغرف لم تكن متوفرة في ذلك الوقت لأن في هذه الفترة من السنة يتدفق

المسافرون إلى بيت لحم. وبالفعل فعيد الفصح كان يستجلب عددا مهما من الزوار الذين يبلغ عددهم حوالي مائتي ألف.

يذكر لوقا عنصرا آخر يتعلق بتواجد الرعاة في الحقول رفقة قطعانهم بيد أن منطقة بيت لحم يتواجد بها الرعاة ابتداء من نهاية شهر مارس أو بداية شهر أبريل حتى شهر نوفمبر. ومن هنا، فمن الواضح (حسب لوقا دائما) فإن يسوع بدأ يعمل في سنة ١٥ من حكم ثيبر (١٤ ـ ٣٧) وكان وقتها بيلات حاكما ليهودية (٢٦ ـ ٣٦) وكان هيروديس انتيباس حاكما للجليل (في السنة الرابعة قبل ميلاد المسيح إلى ٣٩ بعد ميلاد المسيح) ومن هنا يمكن ان نستنتج ان يسوع بدأ دعوته في ٢٦ و٢٩ وستدوم على الاقل سنة وعلى الاكثر ثلاث سنوات وستنتهي بمقتله بين ٢٨ و٣٣. وعليه فقد كان في الثلاثينيات أي يبلغ من العمر ابان دعوته ٣١ عاما إلى ٣٥ عاما.

وبناء عليه فسيكون يسوع في بداية أو نهاية الثلاثين (٣٥ ـ ٣٩) وانطلاقا من هذه المعطيات فإن دعوة يوحنا المعمدان كانت في نهاية العام ٢٧ أو بداية العام ٢٨. فيسوع سيكون عمره ٣٣ أو ٣٤. وبما أنه مات في العام ٣٠ فإن عمره سيكون على الأقل ٣٦ عاما. وهذا يفسر الاعتراض الذي وجهه له الفريسيون: «لم تبلغ بعد الخمسين» ومنطقيا فلا يمكن توجيه مثل هذه الملاحظة إلى شخص في بداية الثلاثين بل في الأربعين.

يمكن للقراء المهتمين أن يرجعوا إلى العمل الجليل لجون ب. ماير: أحد اليهود. يسوع. المجلد ١ منشورات سيرف.

٥ ـ حول ولادة يسوع في الناصرة وليس في بيت لحم

يؤكد متى ولوقا أنه وُلد في بيت لحم، لكنهما الفقرتان الوحيدتان من العهد الجديد اللتان تؤيدان هذا الزعم. بل إن هذين الحواريين يعتبران يسوع من

الناصرة. ويصر يوحنا أن الناصرة هي المكان الذي ينتمي إليه يسوع. ومن هنا جاء سؤال نثنايل: (يوحنا ١ : ص ٤٥ ص ٤٦) هل يمكن أن يأتي من الناصرة شيء حسن؟ ويمكننا أن نفهم تصرف معارضي يسوع: «هل يجب فعلا أن يأتي المسيح من الجليل؟ ألا يقول الكتاب يجب أن يأتي المسيح من نسل داوود ومن قرية بيت لحم حيث عاش داوود؟» (يوحنا ٧: ٤١ ـ ٤٢) ونفس الشيء نقرأه عند لوقا (٢: ٣٢): «عندما ينجزان ما أمرهما به ناموس الرب، سيعود يوسف ومريم إلى الجليل وإلى الناصرة بلدتهما». ومن هنا يبدو أن التأكيد على أن يسوع لا يمكنه أن يولد إلا في بيت لحم تم التوافق عليه لينسجم مع شرط النبوة».

٦ ـ حول توماس الملقب بالتوأم

يترجم مترجم الإنجيل الرابع لثلاث مرات الكلمة العبرية تيعوم أو الآرامية تعوما المستعملة كلقب لتوما وتعني الكلمة في اليونانية ديديموس التي تعني التوأم. في القرن الأول من هذا العصر كانت هاتان الكلمتان العبرية والآرامية اسمين لا يطلقان على الأشخاص ومن هنا نسجل أن مجمل المراجع تحيل على أن «ديديموس توما» أصله من جنوب أفسس بتركيا حيث توجد مدينة ديديموس التي استوطنها في القرن السابع قبل الميلاد حيث استوطنت الجماعات اليونانية الأولى. ونجد هناك معبدين متشابهين: معبد أبولو وآخر لآرتميس. وكلاهما شيَّدهما المهندس نفسه كهديتين لإلهي التوائم في الأولمب أرتميس وابولو ابني زيوس وليتو.

٧ ـ حول الدم والعرق

«استبد به الجزع وبدأت صلاته شيئا فشيئا تصبح متسارعة وعرقه كقطرات الدم يتساقط على الأرض» (لوقا ٢٢: ٤٤) هذا النزيف الدموي Hématidrose

ليس ظاهرة خارقة فهو معروف باسم مرض فون ولبراند. زد على ذلك فهو لا يعتبر مرضا في حد ذاته لكنه خلل في البروتينات الدموية الأساسية وتجمد للدم. يمكن لأعراضه أن تندلع تحت تأثير الخوف الهائل أو موجة قوية من القلق نتيجة توجس خطر الموت.

٨ ـ حول عدد الحواريين

في كل الأحوال فقد كانوا أكثر من سبعين فردا. أما الأربعة عشر فكانوا يشكلون النواة الصلبة.

لوقا: (١٠ : ١) يشير بوضوح: «بعد هذا عين السيد مرة أخرى سبعين من الحواريين الذين أرسلهم أمامه مثنى مثنى إلى كل المدن والأمكنة التي يجب أن يذهب إليها»

إذا قمنا بمقارنة بين الأناجيل الأربعة يمكننا أن نعدهم:

١ . سمعان بيير
٢ . أخوه أندراوس
٣ . يوحنا بن زبدي
٤ . يعقوب بن زبدي
٥ . فليبوس
٦ . بارتلومي.
٧ . توما التوأم.
٨ . متى ليفي «جامع الضرائب»
٩ . يعقوب بن حليفي.
١٠ . تداوس.
١١ . سمعان القانوي

١٢ . يهوذا ابن يعقوب

١٣ . يهوذا الأسخريوطي أو القريوتي.

١٤ . نثنائيل.

يدَّعي بعضهم أن تداوس ويهوذا ابن يعقوب ليسا سوى شخص واحد. كذلك نتنائيل وبارتلومي. أما الاسباب التي يقدمها هؤلاء لهذه الازدواجية في الهوية لا تبدو لنا مقنعة.

فبالنسبة لتداوس فيشرحون أنه كان معتادا أن يطلق على شخص واحد عددا من الأسماء. وبالتالي فتداوس اسم محبب كان يعرف به بين أقاربه. لكن فيما بعد أصبح معروفا باسم يهوذا ابن يعقوب. كما أنهم يعللون بإنجيل يوحنا أن نثنائيل وضع في الترتيب بعد فليبوس «وهذا يعني أنه وضع في المكان المعتاد الذي يحتله بارتلومي في لائحة الحواريين التي ترد في الأناجيل الأخرى» ومن هنا قرروا أن نثنائيل وبارتلومي ليسا سوى شخص واحد. هناك فرضية أخرى تقترح أنه خلال دعوة المسيح ليس مستبعدا أن الاثني عشر حواريا مات أو رحل منهم البعض فعوضوا بأفراد آخرين.

في الواقع، إن أهمية العدد الاثني عشر يأتي لأنه يرمز إلى القبائل الاثني عشر الاسرائيلية.

وتعتبر هذه الرمزية مهمة جدا. وليس مستغربا أن يصبح هذا العدد بسرعة تعيينا لصيغة مقولبة ستستمر في الاستعمال حتى وإن كانت التشكيلة تتغير أو أن فردا ينضاف أو يختفي «كما حدث بعد ارتداد يهوذا»

٩ ـ حول مريم المجدلية

لم تكن أبدا المخطئة أو العاهرة التي شاع منذ قرون وصفها بذلك. وليست

أيضا عشيقة أو حتى الزوجة السرية ليسوع. توجد في الواقع ثلاث نساء لهن نفس الاسم: مريم المجدلية «الملبوسة بسبع شياطين وشفيت على يد يسوع». مريم من بيت عنيا «أخت لعازر» وهي «المخطئة المجهولة» التي غمرت يسوع بالعطر ذات عشاء. وعليه فإنه في الأناجيل الأربعة لم يتم ولا مرة التأكيد على أن مريم المجدلية هي المخطئة. فعند كل ذكر لاسمها، فإنها تمثل بامرأة ملبوسة بسبعة شياطين وأبدا بامرأة مخطئة. زد على هذا فوحده لوقا (٧: ٣٦ ـ ٣٩) يستعمل هذا النعت ليصف امرأة العطر. في المقابل فإن يوحنا يقدم لنا معلومة واضحة جدا عن هوية الشخصية حينما يقول لنا: «كان هناك رجل مريض، يدعى لعازر من بيت عنيا، قرية الاختين مريم ومارثا. كانت هي مريم التي مسحت السيد بالعطر وهي من مسحت قدميه بشعرها. وكان أخوها لعازر مريضا». إلى غاية القرن السادس كان آباء الكنيسة يميزون جيدا بينهن. لكن بعد هذا التاريخ أعلن البابا غريغوريوس الأول لسبب غير معلوم أن النساء الثلاث لسن سوى مريم واحدة. منذ ذلك العهد وبواسطة قرار متحذلق يبذل جهد كبير كي تجمع النساء الثلاث في شخصية امرأة واحدة. وهكذا غدت مريم المجدلية حسب الاسطورة امرأة ثرية، ذات أخلاق نبيلة، تنتمي إلى بيت عنيا، تمتلك ضيعة كبيرة في المجدلة و. . . عشيقة يسوع. وإذا كان هذا صحيحا، فإننا لا نرى السبب الذي جعل الانجيليين الأربعة لا يجدون في أي مناسبة أن تأكيدها كان مفيدا. في حين ورد اسم مريم المجدلية إحدى عشرة مرة. هناك عنصر آخر يدعم فرضية أن مريم من بيت عنيا هي المخطئة: خلال أمسية المنظمة للاحتفال بانبعاث لعازر، أخيها، فإنها هي وليست مريم المجدلية التي قامت بتعطير يسوع لدى سمعان الفريسي. ونؤكد في الختام أن القرية التي تحمل إسم المجدلة توجد على بعد ١٥٠ كلم عن بيت عنيا. إلا في

حالة مصادفة خارقة فإنه يصعب علينا أن نصدق تواجد مريم المجدلية خلال ليلة العشاء لدى سمعان الفريسي مزودة بقنينة مملوءة بالعطر «ولعل هذا ما يفسر أن إدماج النساء الثلاث في شخصية واحدة كان فعلا متعمدا».

المحتويات

هذا الكتاب

في السادس والعشرين من شهر نيسان، سنة ٣٧٩٠ بعد تكوين العالم

* * * *

أكتب .

أكتب مادامت يدي تستمد القوة من الركض فوق ورق البردي. أكتب من أجل أن نتذكر. أكتب كي أحذرهم، لأني أشعر باقتراب العاصفة. أكتب لهؤلاء الذين سيقرؤونني ليعلموا أني لم أرغب في شيء مما يرغبون فيه.

أسمع .

مازلت أسمع صرير الأشواك وهي تسحق جبهتي، وضربات المطارق وهي تطرق بجانب وجهي ممزوجة بصخب الصراخ المتعالي من أحشاء يهودية، والسامرة، والجليل.

ارتفعت الرياح، والغيوم حجبت الشمس، وخشب الصليب اللاذع يكشط أجزاء من لحمي.



